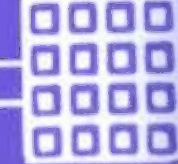
أعلام المسلمين

٦٥



الدكتور
محمد رجب البيومي



دار القلم
دمشق

مُصطفى صَادِق الرّافِعي

فَارِسُ القَلَمِ تَحتَ رَايَةِ القُرءَان

الدكتور

محمّد رجب البيّومي

مصطفى صادق الرافعي

فارس القلم تحت راية القرآن

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰذا الرَّجُل

الرافعي أمةٌ وحده، وأكثرُ الذين كرهوه هم الذين جهلوه، إنما يحبّ الرافعي ويبكيه مَن عرف وحي الله في قرآنه، وفَهم إعجاز القرآن في بيانه، وأدرك سرّ العقيدة في إيمانه.

(أحمد حسن الزيات)

أوتي الرافعي من الحرية الإلهية نصيباً، ومن النور الإلهي قلباً، ومن الفيض الإلهي ينبوعاً، فلبث دهره نسيج وحده، ينير للسالكين، ويسقي الظامئين.

(عبد الوهاب عزام)

أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن يقمك في الأواخر مقام حسّان من الأوائل.

(محمد عبده)

سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي قال الناس هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان.

(مصطفى كامل)

بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم.

(سعد زغلول)

لقد جُعِلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وجوته كما للألمان جوته، وهوجو كما للفرنسيين هوجو.

(أحمد زكي باشا شيخ العروبة)

لو كان كتابك [كتاب تاريخ آداب العرب] في بيت حرام إخراجه للناس، لكان جديراً بأن يحج إليه، ولو عكف على غير كتاب الله في نواشىء الأسحار لكان جديراً بأن يعكف عليه.

(شكيب أرسلان)

عظمة الرافعي مرجعها إلى اتصاله الوثيق بتراثنا الأدبي القديم دون غيره، فنهل من شرابه العذب، وتغذّى من خلاصته القوية الصالحة، فاستطاع أن يشق للأدب القديم التليد سبيله في الأدب الحديث العتيد.

(منصور فهمي)

إن الرافعي لم يكن كاتباً للفن وحده، ولكنه كان صاحب رسالة وأهداف، وشعوره برسالته قد استولى عليه في كل ما كتب، فهو لم ينس غايته فيما كتب من أحاديث الحب والسوامر، ولم تخدعه فتنة الشهرة، أو تملق الجماهير، بل فرض نفسه فرضاً.

(عبد المنعم خلاَّف)

مصيبة الرافعي في جيله هي مصيبة الجاد بالهازل، وطالب الجد بطالب اللعب، وهو أنطق ناطق في التعبير عن الإشراق الإلهي، وأبرع بارع في التفسير النبوي.

(حسين مُرُوَّة)

الرافعي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن إيمان الأمة وعقيدتها، فتسير وراءه بنور الإيمان، ثابتة العقيدة، طاهرة المبادىء، جريئة في الحق، صريحة في نبذ الباطل.

(محمد حسين زيدان)

أراك وأنت نبت اليوم تمشي   بشعـرك فـوق هـام الأولينـا
وأوتيـت النبـوة فـي المعـانـي   ومـا جـاوزت حـد الأربعينـا

(حافظ إبراهيم)

* * *



مقدّمة

كنت نشرتُ بحثاً موجزاً عن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله قلت فيه:

«إنّ الرافعي قد ظُلم بالنسبة إلى سواه لدى مؤرخي الفكر المعاصر، إذ تعرّض إلى حملات ظالمة شنّها عليه الكثيرون، فقد تواطأ خصوم الفكرة الإسلامية. وأشياع المجون الإباحي على النيل منه، والحملة على أدبه، إذ كان حرباً عليهم جميعاً، يقف حيالهم في طليعة المناضلين. ثم مات الرجل، وأصبح جهاده في ذمة التاريخ، وأدبه في ميزان النقد، فهبتْ فئاتٌ أخرى تصمه بما هو منه براء لمخالفتها اتجاهه القويم».

قلتُ ذلك، فقابلني أستاذ جليل أعرف له حق النصيحة المثمرة، فقال لي: إن حديثك هذا عامّ يتطلب التفصيل، وبخاصةٍ لقراءِ هذا الجيل مِمَّن لم يدركوا نضال الرافعي كما أدركناه، ولا بدّ لك من كتابٍ مستقل بالرافعي يوضّح اتجاهه الأدبي، وقيادته الفكرية، وحماسته المفرطة في الذياد عن عقيدته، وذلك حقٌّ مفروضٌ عليك، فلا تتأخر.

ولكني أشفق من الكتابة عن الرافعي لسبب واضح، هو أنّ

الرافعي في بعض أساليبه البيانية يرقى إلى مستوى أعجز عن الوصول إليه. وقد أجدُ في بعض أفكاره غموضاً يجعلني أرهب من توضيحه لخفائه عليّ، ثم تذكرتُ أن الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات قد قال عنه في مقال له:[١]

«وهو ـ أي الرافعي ـ قد يحملُ الفكرة في ذهنه أياماً يعاودها الساعة بعد الساعة بالتقليب والتنقيب والملاحظة والتأمل حتى تتشعب في خياله، وتتكاثر في خاطره، ويكون هو لكثرة النظر والإجالة قد سما في فهمها على الذكاء المألوف، فتأتي في بعض المواضع غامضة وهو يحسبها واضحة في نفسك وضوحها في نفسه».

تذكرت ما قاله الأستاذ الزيات فعرفتُ أن المركب وَعْرٌ لمن يريد اجتياز البيان الرافعي وكدتُ أحجم، ولكنّي قلت في نفسي إذا أَحْجَم كلّ كاتب عن الرافعي لهذه العلّة فقد ضاع حقّ الرافعي على الأدباء جميعاً، وإذا كنتُ لا أستشف كل ما قال الرافعي، فَلأقصر الحديث على ما أدركه من معانيه، ومراميه، وقد يأتي الناقد البصير، المحيط بكلّ ما قال الرافعي، فيمتدّ به الحديث إلى مدى أوسع.

ومع هذه العزيمة فقد تلكأت في التنفيذ حيناً من الدهر، ثم قابلني الأخ الفاضل الأستاذ محمد علي دولة القائم على إصدار

---

(١) وحي الرسالة ـ الجزء الأول، ص ٤٤٤.

سلسلة (أعلام المسلمين) فقال إنه يريد كتاباً عن مصطفى صادق الرافعي ويرشحني للحديث عنه.

هنا دارت الفكرة في نفسي بسلطانٍ قويّ دَفَعتني إلى الكتابة، فحاولتُ أن أتحدث عن هذا العملاق السّامي ببعض ما يفي بحقّه على قدر ما أملك.

أما منزلةُ الرافعي الأدبيّة لديّ فقد صورتُها في صدر المقال الذي تحدثت عنه حيث بدأته قائلاً[1]: «تستطيعُ أن تجد لكل أديب شبيهاً يماثله في السابقين أو المعاصرين، ولكنك لا تستطيع أن تجد لمصطفى صادق الرافعي في نثره هذا الشبيه؛ إذ كان الرجل نسيج وحده دون خلاف.

إذا طلبت للرافعي الناثر شبيهاً يحاكيه، فاترك الإنسان إلى غيره من مظاهر الطبيعة لتجد للرافعي ذلك الشبيه المنشود!!

هل رأيتَ الرعد المجلجل الذي يأخذُ عليك سمعك وشعورك، حين يُدوّي في الفضاء، هكذا يكون الرافعي حين يزأر غاضباً لحرمة تنهك أو معصية تُذاع.

هل رأيتَ البركان المدمّر، يبعثُ اللَّهب، ويرمي بالشواظ، هكذا يكونُ الرافعي حين يقفُ أمام أعداء الإسلام، ليرجمهم بالنقد القاتل، ويسحقهم بالصاعق المبيد.

هل رأيتَ النسيم الهادىء يرفّ على الروض الزاهر، فيحملُ

---

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين جـ١ ص٤٣١.

عبيره الفواح إلى النفوس، يشرح به الصدور ويُمتع الأحاسيس، هكذا يكون الرافعي إذا رقَّ في عتاب، أو عَذُب في مناجاة، أو حنّ إلى غائب حبيب.

ثم هل رأيت النّمير العذب، يترقرق به الجدول الصافي، تنتهلُ منه شراباً لذيذ الرشف. حلو الموقع من اللهاة، هكذا يكون الرافعي إذا روَى حديثاً عن السلف الصالح، يفيض بالعبرة الواعظة ويدعو إلى القدوة الحسنة على هدى وإيمان.

هذه أشباء الرافعي حين تتطلب التشبيه له، ولست بمستزيد.

محمّد رجب البيّومي

* * *

تمهيدٌ موجز

حين تقرأ آثار الرافعي رحمه الله تحسّ أنّ لفحة خفيفة من الحزن الصامت تهب عليك، فوراء كل سطر ـ في غير البحوث الأدبيّة ـ رعشة رقيقة تشي بخلجة ساهمة، وانقباضة موحشة، فإذا التمست أسباب هذه النفحة الحزينة فلن يُعْيِيك إيضاحها، وماذا تقول في إنسان رقيق الحسّ مشبوب العاطفة كُتب عليه ألاّ ينعم بحديث يتجاوب بين أذن مُصْغية وشفة ناطقة، وإن لديه من المشاعر الرقيقة ما يتطلب المفيض الدافق، فلا يجد السبيل إلا على صفحات الورق، ومتى كانت صفحات الورق كافية لترداد أرق الهمسات وأعذب الأحاسيس.

بل ماذا تقول في إنسان يرى نفسه من كبار الأدباء في عصره، يدافع عن قيم عالية ويتبنّى مثلاً رائعة، وله كل يوم وقفة غاضبة مع جبّار من جبابرة القلم، أو ناقد من جهابذة الفكر، وقد يمدّه الله بوسائل الظفر الباهر، فيفلج بالحجة، وينتصر بالرأي، ثم يوازن بين مكانته المادّية كاتباً في محكمة شرعية متواضعة ومكانة مُبارِزِه في عالم السياسة والمنصب والجاه، فإذا الفرق شاسع بعيد، لا لشيء سوى أن الرافعي مكبل بالأصفاد التي لا حيلة له في

الفكاك منها، مهما أعمل الفكرة، وأخذ بالأسباب.

بل ما تقول في إنسان يتزعم مذهباً أدبياً، ويقود رأياً عاماً، ويملك أنْ يصدر المؤلّفات الرنانة حافلة بجلائل الآراء، ومختطة أقوى السبل إلى نصرة العروبة والإسلام، ثم لا يجدُ من ينهض لطبع هذه الآثار، كما تطبع عشرات القصص الهابطة والبحوث المتهافتة، فتجد الرواج الذائع، والإشادة البالغة، فإذا ما أجبره الموقف على الطبع، اقترض حيناً، وأعدّ دفاتر الاشتراكات حيناً، وصبر وصابر حتى يجد الفدائي الذي يُسارع بالنشر، وإذا وُجِد مرة، فإنه يفقد مرات، والرافعي حائر لا يدري أيبحث عن رزقَ العائلة ذات العدد، أم عن نفقة الطبع؟ على حين يحسّ أنه إذا أُلزم بالنفقة على ولده، فإن كتابه ولدٌ آخر، لابدّ أن يرى النور ليعيش بين الناس.

بلْ ما تقول في إنسانٍ رقيق العاطفة، ملتهب الجوانح يحسّ بَرْح الحبّ في قلبه، وهو بإيمانه الأصيل، وشرفه الأثيل ينشده حباً عذرياً يلتحف بالطهر، وينضح بالعفاف، ثم يلهمه هذا الحب الأمين أرقّ الرسائل، وأجمل الفصول، وأمتع القصائد، وينتظر بعد أن يبدع ما يبدع، فلا يجد غير الجفاء القاتل، واليأس المرير!!

ظلمات بعضها فوق بعض، في بحْر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج، أفلا يكون من أثر ذلك هذه اللفحة من الحزم الصامت التي يحسّها القارىء وراء كل سطر من سطور الإبداع الأدبيّ، وليتها تكون لفحة هادئة دائماً، لأنها في بعض السطور تتقد شواظا يتطاير منه اللهيب!!

بل ما تقول في إنسان قرأ تاريخ الإسلام في عصوره الزاهرة، فرأى القوة العادلة، والخلافة الراشدة، والكلمة النافذة، والعزّ السابغ، والمجد الطافي، وأحسّ معاني الرحمة والعزة والإخاء والمساواة فيما درس من سير، وخبر من أحداث وألمّ من مواقف. ثم يتلفت إلى واقعه في العالم الإسلامي فإذا المجد حلم، وإذا السيادة ماض، وإذا الخلافة سراب، وإذا المسلمون اليوم نقيض ما كانوا بالأمس، أشْباح بلا أرواح، وجسومٌ بلا رؤوس، إن الشكاة لمريرة، وإن السكوت عن الشكاة لأشد مرارة، وأقوى فجيعة، وأوخم عاقبة ونكالا!!

بل ما تقول في إنسان خَبَر الحقائق الدينيّة، واستشف الروح المسيطر على التشريع، وأدرك الأهداف التي عناها بارىء السموات والأرض حين أنزل القرآن على عبده ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ثم جال بعينه قارئاً وناظراً، فإذا نصوص تُفهم على غير وجهها، وإذا تأويلٌ يعصف بالنص الصريح حتى يُموّه بالباطل، وإذا بعض القائمين على ذلك أناس يأكلون الدنيا بزاد الآخرة، ويذكرون اليوم وينسون الغد، ثم لهم مع ذلك صيت يدوّي، وقول مسموع، ما تقول في ذلك الإنسان؟! ما تقول في مصطفى صادق الرافعي، وقد حمل من ذلك كلّه ما تنوء به الرواسي، وتندك القلاع!!

محن كليلات المحاق تتابعت   متشابهات هذه من هاته!

* * *



مُوجَزعَن حَياةِ الرّافِعيّ

نَشْأَة كَرِيمَة

من يدرس تاريخ الرافعي الرسميّ، لا يحتاج إلى مراجعة ما بين الوثائق والملفات، فلم يكن الرجل صاحب أدْوار متنوعة بين المدارس والمعاهد والجامعات طالباً، وبين الوظائف والمناصب مُرقّىً من درجة إلى درجة، ومنقلاً من رئاسة إلى رئاسة، ولكنه موظف محدود كتب عليه أن يبقى طيلة حياته في المحكمة الشرعية مُقدِّراً لبعض أمورها الماليّة!! وهو بعدُ مصطفى صادق الرافعي.

أمّا الذي جعله أديب العرب، وحجة الإسلام يوم الذياد عن الحقائق المؤمنة، فهو توفيق الله. وإعدادُه إياه في أسرةٍ مؤمنة كانت له كلَّ شيء في تربيته الدينيّة، ونشأته الأدبيّة، واتجاهه الخلقي، كانت أسرتُه أسرةَ قضاء وفقه وفتوى، إذْ نزح أعمامه وأجداده من الشام إلى مصر ليتولوا مناصب القضاء الشرعيّ مسلّحين بأداوته الثقافيّة، ودراياته العمليّة، وكذلك كان من بَقي في طرابلس بالشام، يزاولون مسائل الفتيا والفقه، والدين والأدب صنوان متماثلان في أكثر فروع الأسرة الرافعية، لأنّ دارس القرآن

عن فهم، وقارىء الحديث النبوي عن تبَصّر، وحافظ مسائل الشافعي وأبي حنيفة عن حِذْق، لابدّ أن يكون بليل الريق إذا خطب، ناصع البيان إذا كتب، قويَّ العارضة إذا ناظر، هذا إلى عزّة نفسيّة يخلعها الإيمان الصادق على من يعرفون كرامة المؤمن، ونخوة الإنسان، في ظلّ الدين الحنيف. ولأكثر فروع الأسرة كما لأصولها مواقفُ خالدة يعرفها الذين يَزِنون الناس بشمائلهم الراقية، لا بما يثمِّرون من مال، وما يحرزون من مناصب، ولعلّ الإفاضة في هذا المنحى مهما امتدت إلى أبعد نطاق لا تبلغ في تأثيرها الحاسم مبلغ أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال عن هذه الأسرة الكريمة في مناسبة شريفة:

أعرني النجم أو هَبْني يراعا	يزيد الرافعيين ارتفاعا
مكانُ الشمس أضوأُ أن يحلّى	وأنبهُ في البريّة أن يُذاعا
بنوا الشرق الكرام الوارثوه	خلال البر والشرف اليفاعا
تأملْ شَمْسَهم ومدى ضحاها	تجد في كلّ ناحية شعاعا
قد اقِتسموا ممالكه فكانتْ	لهم وطناً من الفصحى مشاعا
همو زادوا القضاء جمال وجهٍ	وزادوا غرّة الفتيا التماعا
أبوا في محنة الأخلاق إلاّ	لِياذاً في العقيدة وامتناعا
أَوَوْا شيباً وشباناً إليها	تخالُهم الصحابة والتباعا
إذا أسْد الشرىٰ شبعتْ فعفت	رأيت شبابهم عفوا جياعا

وما كان شوقي بمضطر إلى أن يقول في الرافعيين مالا يعتقد، فقد قال قصيدته في خاتمة حياته، ومكانهُ في الشرق شاعراً لا يعلوه مكان!! ولكنّه التاريخ الصادق أملى عليه ما سطّره عن عيان.

هذا عن الأسرة الكبيرة، أمّا الأسرة الخاصة بمصطفى صادق الرافعي، ففرعٌ زكي من هذه الدوحة الفارعة، حيث كان أبوه الشيخ عبد الرازق الرافعي من قضاة الشرع في دمنهور والمنصورة، ثم استقر به المقام في قضاء المحكمة الشرعية بطنطا، وبها لقي ربّه وترك بيته لينشأَ به ولده مصطفى، ولتكون طنطا أفق نجمه، تزهو به حيّاً، وتعدّه من أعلامها في الراحلين.

ومهما ذكرنا عن الجوّ الديني الذي نشأ فيه الأديب الموهوب مستظلاًّ بفروع هذه الدوحة الزاهية فإننا لا نجد أبلغ من قوله حين تحدث عن أبيه في مطلع مقاله (قرآن الفجر) فقال [١]:

«كنتُ في العاشرة من سنّي، وقد جمعتُ القرآن كلّه حفظاً، وجوّدته بأحكام القراءة، ونحن يومئذٍ في دمنهور عاصمة البحيرة، وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيّين بهذا الإقليم ومن عادته أنه كان يعتكف كلّ سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان، يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم، فهناك يتأمل ويتعبد ويتّصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطلّ على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة، ويغيّر الأيام في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان

(١) وحي القلم جـ٣ ص٢٨.

المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطّب الروح بالوضوء، المدعوّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السّامية، المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجد بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وذهبتُ ليلةً فبتُّ عند أبي في المسجد، فلما كان في جوف الليل الأخير، أيقظني للسحور ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر، وأقبل هو على قراءته، فلما كان السحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، أنت الحق ومنك الحق. . . إلى أن قال رحمه الله:

وسمعنا القرآن غضاً طرياً، كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنّه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى هذه الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه، واهتز المكان والزمان كأنما تجلّى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور.

أما الطفل الذي كان فيَّ يومئذ، فكأنما دُعي بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة، ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد، فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

هذه السطور كافية كل الكفاية في الحديث عن أسرة الناشىء الغض الذي حفظ القرآن وجمعه تجويداً وإلقاء قبل أن يبلغ

العاشرة، والذي شبَّ فلمس أثر العبادات في منزله صلاة وصياماً وزكاة واعتكافاً، وأثر المعاملات إخلاصاً وصدقاً وأمانة، وأثر الدين عزة ومجداً وولاء. إنه يذهبُ ليبيت في المسجد مع أبيه ثم يقوم قبل الفجر ليتوضأ ويتهجد ويتناول السحور، ثم يستمع في خشوع إلى من يتلو قول الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فتأخذه هزّة لا تفارقه عن آماد كثيرة من أوقات حياته، حتى صار رجلاً، فعلم أن الصوت البعيد يُناديه ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

وماذا تتنظر ممّن حفظ القرآن وجوّده قبل أن يبلغ العاشرة، وهو يجد نفسه في منزل كريم تملأ إحدى غرفه مكتبةٌ حافلة بروائع الآثار في الفقه والتاريخ والأدب، ثم يجد زوّار والده يؤمُّون المنزل كلّ ليلة ليتسامروا في شؤون الفقه والفتيا والتاريخ الإسلامي، والوالدُ يتردد بين الآونة والآونة إلى حجرة المكتبة ليحمل منها مرجعاً يكون صاحب المنطق الفصل في الحوار، ألا يتمنى في أعماق أعماقه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يتناقشون في أمور الدين، ألا يتمنى أن يُرزق الفهم البصير ليكب على هذه المائدة الحافلة قراءة ودرساً واستظهاراً؟ ألا يتهيأ له أملٌ أن يكون مؤلفاً داعياً، يكتب المصنفات الحافلة، ويتردّد اسمه كما تتردد أسماء من يحتفظ والده بمؤلفاتهم الذائعة! كل ذلك كان يحتدم في نفس الناشيء. وهي بعدُ ليستْ نفساً مألوفة مكرّرة، ولكنها نفس طامحة تشعر في أعماقها بأثر موهبةٍ وضيئة تُشرق أنوارها بين الحين

والحين لتهدي إلى الطريق، كما تُسمِعهُ نداءً من الغيب بأنه أهل لأن يحمل الراية، ويتقدّم الموكب، فروحه تتوثب، وأشواقه تفيض.

لقد رأى والد مصطفى أن يلتحق ولده بالمدرسة الابتدائية لينتظم في التعليم المدني، وتلميذُ المدرسة الابتدائية لا يتهيأ لها بحفظ القرآن الكريم، ودراسة الحديث النبوي، وقراءة السيرة المحمّدية، أفكان توفيقاً من الله أن يشذّ الرافعي عن زملائه، فيدخل المدرسة الابتدائية، ولديْه محصول الطالب الأزهري في المرحلة الأولى؟ نعم كان ذلك توفيقاً من الله، لأن التلميذ قد نال الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات، ثم فاجأه مرض قاسٍ عطّل لديه حاسة السمع بحيثُ لا يستطيع الانتقال إلى المرحلة الثانويّة مع زملائه الذين صاحبهم أربع سنوات!! كان مصطفى على أبواب السابعة عشرة من عمره حين داهمته هذه العلّة الفادحة!! ولو كان طالباً خامل الموهبة، قليل الهمّة، ضعيف الإرادة، لانسحب من الميدان الدراسي إلى حيث يجد وظيفة مناسبة هيأها له ذووه في مرفق كتابي بالمحكمة الشرعية في طلخا، فقد وجَدَ الراتب المناسب، والعمل المُريح، وما عليه إلا أن يستريح من عناء التحصيل الدراسيّ، ليأخذ في بناء أسرة جديدة كنظرائه من الموظفين!! لو كان الناشىء إنساناً ضعيف الهمّة خامل الإرادة لآثر الراحة، واكتفى بما أُتيح له من عمل. ولكنّ الذي وجّهه إلى حفظ القرآن، ودراسة الحديث، وتَصفّح تاريخ الإسلام، قد قرّر له أنْ يتفرغ إلى إكمال دراسته الدينيّة في مكتبة أبيه، فأمامهُ

عشرات الكتب الحافلة في مجالات الدين والأدب والتاريخ، وأمامه الفراغ المتسع للتملّيء من هذا الغذاء المستطاب. لا جَرم قد شعر الشاب الناهض بغُصّة في صدره إذ حيل بينه وبين التعليم الثانوي، ولكنّ المدرسة ليست وحدها باب الثقافة الفريد، فالكتب أكبرُ وسائل هذه الثقافة، وسيأخذُ منها ما يروق مشربه، ويوافق منحاه، وهو حينئذٍ أكثر انطلاقاً وأشدّ حرّية من طالب التعليم الثانوي. إن زميله في مقاعد الدرس مكلفٌ بمواد قد يجد المشقة في تحصيلها، والرغبة عن اكتناهها، ولكنّه ملزم بأداء الامتحان في مسائلها، وعليه أن يُخضع رغبته لرغبات الجدول الدراسي. أما مصطفى فحرٌّ مطلقٌ يعرض الكتُب الحافلة ليختار ما يشاء، وليدعَ ما يشاء.

وكانت الصحافة يومئذ تحفل بمقالات الأدب، وقصائد الشعر، وترى أبناء الفكر رُسل الثقافة، وقادة الأمّة، فمحمد عبده والبكري والمويلحي والبارودي والمنفلوطي وعلي يوسف وشوقي وحافظ ومُحرَّم وحفني ناصف ترنّ أسماؤهم في العالم العربي رنين الذهب، ولهم أشياع يتناقلون فرائدهم، ومنهم من لم يستوف حظَّه من التعليم المدرسي، وإلاّ فماذا نالَ من الدرجات العلمية حافظ إبراهيم ومحمد المويلحي وتوفيق البكري وعلي يوسف وأحمد مُحرَّم والمنفلوطي، وهمْ ما همْ في عالم البيان!! لِمَ لا يكون الرافعي زميلاً لهم في درب الفكر، وفي وجدانه عاطفة وفي إدراكه نفاذ، وفي إرادته قوة، وفي ذهنه استيعاب!! لَقدْ فكّر في مجال يتيح سبقه فرأى الشعر باب الذيوع، ووسيلة

النهوض، وهو بعد حافظٌ لكثيرٍ من الروائع، ملمّ بقدر غير يسير من تاريخ المبدعين، مع ملكةٍ قوية في النقد، وموهبة دافعة للإنتاج! وقد جرّبَ النظم، ودفع ببعض قصائده إلى الجرائد اليومية فصادفت قبولاً، وأخذ اسمه يسير على الأفواه، وإذن فليواصل الدراسة الأدبيّة مستقلاً بنفسه، فالكتاب أستاذه، وهو تلميذُ الكتاب، وديوان الشعر العربي على مدّ عصوره منذ العهد الجاهلي إلى زمان البارودي وشوقي وحافظ أَيْكُهُ النضير، وفردوسه البهيج، لابدّ إذن من أن يكون شاعراً، وقد كان.

لقد نشأ الرافعي شاعراً، ولكنّه انتحَى منتحى لا يؤهله للزعامة الشعرية، مهما أصدرَ من دواوين، ذلك لأنه تشبّع باتجاه البارودي أستاذاً، وبمشرب حافظ إبراهيم زميلاً، والبارودي له دوْر أدبيّ ملموس، حيث انتقل بالشعر من ركاكة البديع المتكلّف، والأغراض الهابطة إلى ديباجة الشعر العربي في أزهى عصوره، وتلك نقلةٌ واسعة المدى تحفظ لصاحبها موْضع الصدارة، ولكنّ وراءها خطوات أخرى تتطلّب التجديد العصري الذي يبعث الشعر في زمانه المعاصر بعثاً حيّاً، ينبضُ بالروح، ويعفّي على التقليد، وهذا ما قصّر عنه الرافعي إذ شاء له تفكيره المتعجّل أن ينحو منحى حافظ إبراهيم في اختيار الاجتماعيات والسياسيات اختياراً تجد فيه نَفَس الخطيب[١]، ولا تلمس روح الشاعر، فأكثر

---

(١) كان هذا في مبدأ حياة الشاعر ثم استقام له رأي خاص في الاجتماعيات والسياسيات سأذكره في حديثي عن الرافعي الناقد.

اجتماعيات حافظ مقالات منظومة، ونحن لا نبخسه قدره حين نضعه موضعه الصحيح، وقد راجتْ في إبّانها لأن قارئها إذ ذاك لم يكُنْ يتطلب من الشاعر غير التعبير عن الإحساس المشترك، والشعور العام، دون أن يتقدّم الموكبَ فيشير إلى أفق جديد، فإذا شاء الرافعي أن يُنافس حافظاً في ميدانه فإنّه لم يفارق اتجاهه، ولو قدّر له أن يميل إلى منحى شاعر مجدّد مثل خليل مطران لرأينا في شعره الناشيء غير ما نراه مدوّناً في دواوينه المختلفة، وسأعرض لشعر الرافعي الذي قاله بعد أن فارق أيام الحداثة، لأنّه انتقل انتقالاً فنيّاً يُحسب له، ولولا غلبة النثر الفني على إنتاجه لكان ذا مكان مرموق في عالم الشعر الرفيع، ولا يهمّنا أن يسبق الرافعي في فن دون فنّ، ولكن يهمّنا أن نجزم بأن القدر قد هيأه لحمل رسالةٍ أدبيّة واسعة الأفق، حين اختاره ليكون كاتب الإسلام في عصره، وكتَّابُ الإسلام في هذا العصر أكثرُ من أن يندرجوا تحت حصر، ولكن الرافعي كان صاحب البيان المبدع الذي لا يرتقي إلى أوجه سواه، ومن هنا كان كاتب الإسلام الأول في عالم البيان!!

* * *



العَصْرُ العَجِيبُ

منذ بدأ مصطفى صادق الرافعي يتنسّم ريح الأدب ويجد له طريقاً في الصحف في أوائل هذا القرن إلى أن لقي ربه بعد سبعة وثلاثين عاماً منذ مطلعه، وهو يعيش في جيلٍ عاصف تتناهبه شتّى الاتجاهات، وأكثرُها ممّا يوقد اللوعة في قلب المصري المؤمن الغيور، فالاستعمار جاثم على أكثر بقاع العالم الإسلامي، التي هي وطن الرافعي الكبير، وإذا كان يعيش في جزءٍ منه في مصر فإنّ همومه لتمتد حتى تشمل هذا العالم الرحب، وفي هذا الجوّ الشاسع كانت جرائد إسلامية مثل المؤيد واللواء والدستور تهتف هتاف الوحدة الإسلامية معلنة أن المسلمين أمة واحدة، مهما اختلفت البقاع وتباعدت الأماكن، على حين نجدُ الجرائد الاستعمارية الصريحة، والجرائد الاستعمارية المستترة تناوىء هذه الفكرة، وتريدُ أن تحصر الجهاد في أرض مصر وحدها، ولا تتسلّلُ إلى الضمائر فتقذف جميع من يتجهون هذا المتجّه بالمروق الآثم، ولكننا نجدهم في أخفّ أمورهم قد خُدعوا بما يروّجه المحتّل من أفكار التمزق والانقسام، لحاجةٍ مريضة في نفسه. ومن المؤسف حقاً أنه يملك النفوذ المستطيل، والمال السّاحر، والجاه الواعد

بالمنْصب والرفاهية والسلطان، يملك ذلك كلّه ليجذب بِفُتات منه كثيراً ممن يحتطبون في حبْله، ويروّجون لأفكاره، ولهم أقلامهم الناطقة وصحفهم السَيَّارة، ومناصبهم الرفيعة، أما ذوو الفكرة الإسلامية، فيكافحون أمرّ الكفاح ليُعلنوا وحدة العالم الإسلامي، وليكشفوا حيل المستعمر، وقد يُرهقون بما يتطلبه الكفاح من أدوات النّصر المتعذرة عليهم، ولكنّهم لا ييأسون، ولهم زعماؤهم الدائبون من تلاميذ محمد عبده وجمال الدين والكواكبي.

فإذا انتقل الباحث إلى وجهة ثانية فإنه يجد الأقلام السّامة تردّد أراجيف المستعمر حين تنسب تأخر الدول الإسلامية إلى الإسلام نفسه باعتباره داعية الجمود والتقهقر، فهو دينٌ صحراوي لا يحملُ عناصر التمدن كما تتأصلُ في دول الاستعمار، وعلى الشعوب الإسلامية أن تقصر تدينها على العبادات فحسب، أما أمورُ الاجتماع والسياسة والتشريع والتربية والتعليم فيجب أن تُستمد من أوربا، إذ لدى رجالها معجزة الإنقاذ من هذا الجمود المسيطر على الناس، ولا سبيل لارتقاء مصر وإخواتها دون أن تحتذي دولة المستعمر، ودون أن تجعل المعتمد البريطاني صاحب التوجيه الناصح والرأي السديد. وإذا كانت ثورة الزعيم الباسل أحمد عرابي قد انتهت بالإخفاق، وتركتْ جراحاً أليمةً في نفوس المصريين، فلابدّ في منطق الاحتلال أن ييأس الشعب من فائدة النضال، وأنْ يستكين للمحتلّ ما دام لا يستطيع أن يقف في وجهه مسلحاً بالذخيرة والعتاد. هكذا روجّ الاستعمار، وهكذا تبعه أذياله الهتافون!!

ثم القرآن!! إنّ له سيطرته الدافعة للعزّة، الباعثة على النهوض، فلابدّ أن تُختلق حوله الشُّبه، وأن ينهض فريقٌ مأجور لتوهين تعاليمه، وإنكار لغته، ومحاولة استبدالها لتنشأ لغةٌ جديدة هي العاميّة التي ينطقها سواد الناس، لأنَّ اللّغة العربية لا تنهض بمدنيَّة العصر، ولا تعرف مصطلحات العلم في شتى فروعه، وكأن العاميّة هي التي تنهض وتعرف!!. وقد نشط مهندس وقاضٍ إنجليزيان للدعوة إلى العاميّة تأليفاً ومحاضرة، ومنهما مَن كتب قاموساً للعامية ليكون المرجع المرجوّ عند انحدار العربيّة وقيام العامية مكانها، وكالمعتاد وجدت العامية من يتحمّس لها ممن يجهلون العربية تارة، وممن يضطغنون على لغة القرآن تارة أخرى، وقد نسوا أن العامية في القطر الواحد ليست متحدة، فعامية أبناء الصعيد تختلف عن عامية أبناء الدلتا، فهل يكون لكل إقليم لغته[1]، وهل من الأوفق أن تنشط العربية لاستكمال ما ينقصها من ألفاظ الحضارة المستحدثة، كما نشطت لذلك من قبل في عصور العباسيين والفاطميين والأندلسيين، أو أن نفرض العامية التي لا تملك أدنى مقوّم للبقاء!! دعوةٌ مريبة منكرة واجهها المخلصون ـ كتاباً وشعراء ـ بالتفنيد الباتر والدفع الصريح، ولازلنا نذكر لحافظ إبراهيم قوله على لسان اللّغة العربيّة:

رَجَعْتُ لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي

---

(١) سنتحدث عن جهاد الرافعي في هذا الميدان حين نعرض لكفاحه في هذا المجال.

رموني بعُقم في الشباب وليتني … عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وُلدتُ ولمّا لم أجدْ لعرائسي … رجالاً وأكفاء وأدتُ بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية … وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة … وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ … فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني … ومنكم وإن عز الدواء أساتي
أرى لرجال الغرْب عزّاً ومنعة … وكم عز أقوام بعز لغات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب … ينادي بوأدي في ربيع حياتي
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً … من القبر يدنيني بغير أناة
أيهجرني قومي عفا الله عنهمو … إلى لغةٍ لم تتصل برواة
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى … لعاب الأفاعي في مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة … مشكلة الألوان مختلفات

أمّا التعليم فسُلّط عليه المستشار الانجليزي دَنْلوب ليقصره على المدارس الابتدائية، وقليلٍ من المدارس الثانوية في بعض عواصم القطر المصري، وأكبرُ همّه أن تخرّج المدارس موظفين صغاراً للمكاتب الحكوميّة يرأسهم مديرٌ انجليزي يجعل تسيير الأمور في قبضته، لذلك كان من شأن المدرسة التعليم الأوّلي لا التربية الصحيحة، بمعنى أن يكون التلميذ آلةً راصدة فهو يحفظ المعلومات حفظاً دون تبصر أو اتجاهٍ لمناقشتها، وبعض هذه المعلومات بل أكثرها مما لا يفيده في شيء، فهو يعرف مدن انجلترا وفرنسا ومختلف الأقطار الأوربية، وما يجري بها من أنهار وما تُنتجه من صناعات، دون أن يدري شيئاً ذا بال عن وطنه

المصري وأمّته العربية وإخوانه في ربوع العالم الإسلامي.

فإذا رجعت إلى المدارس فإنك تجد أكثر مدرسيها من الإنجليز الذين ضاقت بهم بلادهم، واستقدمهم كرومر لينعُموا بالمرتب الكبير دُون عطاء مكافىء، وهم بعدُ عُيون على زملائهم المصريين يحصون عليهم أنفسهم، ويتلمَّسون مَن به حماسةٌ وطنيةٌ تدفعه إلى تبصير النّشء بحقوقه السياسية والاجتماعية في وطنهم ليدفعوا به إلى التشريد في أماكن قاصية جزاءً وفاقاً على وطنيته، فإذا تكرر ذلك منه كان الفصل الباتر، ليجد نفسه ضائعاً في الطريق، وطبيعي أن يكون التدريس في أكثر المواد باللّغة الانجليزية.

وحين قام الوطنيّون بانتقاد هذا الوضع وقع وزير المعارف المصرية إذ ذاك في حيرة، لأنه يودّ من صميم نفسه أن يكون المدرسون مصريين، وأن يكون التدريس باللّغة العربيّة، ولكنّ المدرس المصريّ غير موجود، إذ لمْ تعمل سياسة دنلوب على إعداد من يقومون بتدريس المواد المختلفة في غير دروس اللّغة العربية التي يقوم بها أبناء مدرسة دار العلوم، كي يستطيع كرومر أن يجد من أبناء جلدته من يقوم بتدريسها بمرتبات مغرية، أما الأساتذة البررة من أبناء البلاد فلا يعاملون معاملة الأجانب من الوافدين مادياً وأدبياً، فالرواتب غير مجزية، والاحترام غير متبادل، ولا نستطيع أن نحصي أسماء من تركوا التدريس اضطراراً حين وجدوا تعسف المسؤولين أمام ما ينشدون من إتقان، وتجاه ما يقومون به من تنوير للعقول، وتهيئة للأفهام!

أما تعليم البنات فقد تنوعت فيه الاتجاهات الاستعمارية وفق

ما تراه مؤيّداً لدوام الاحتلال، واستمرار العجز المصري عن إدارة الأعمال، فالاحتلالُ من ناحية أولى يشجّع السفور الكاشف، ويدعو إلى التبرج والاختلاط، ويهيىء من طلبة البعثات الحكومية من يكتبون المقالات الطنّانة في هذا المنحى، وكأن التبرج أمرٌ مقصود لذاته، كما أنّه من ناحيةٍ ثانية لا يعمل على إنشاء المدارس الكافية لاستيعاب من تتطلّب التعليم من الفتيات، وقد قطعت البلاد أمداً طويلاً وليس بها غير مدرستين لتعليم الفتيات، تحت سيطرة ناظرةٍ أجنبية، ومدرساتٍ لا يفهمْن العربية في قليل أو كثير، ولو صدق الّذين يَدْعون إلى التبرج في دعواهم الهاتفة بالتقدّم الحضاري للمرأة، لهيّؤوا المدارس الكافية لتهذيب الفتاة، ولسارعوا بإعدادها إعداداً مثمراً باعتبارها معلمة الأجيال، ولكنّهم تركوا مظاهر الغواية تمتدّ وتتسع وشجّعوا التبذّل في السّهرات والاجتماعات الخاصة والعامة بدعوى الحريّة، أمّا أن يكون من الحرية أن يفهم الناشىء والناشئة دروس المدرسة باعتبارها سلاحاً فاعلاً في محو الجهالة، وسبيلاً إلى إنارة الطريق في ظلمات الحياة، فهذا ما لا يخطر للقائمين على التعليم ببال.

ثم وقعت الحرب العالمية الأولى، فكانت وسيلةً غاشمة لإعلان الحماية على مصر، وتسخير كلّ مواردها لخدمة المحاربين من الحلفاء، فكانت حملات الاغتصاب الهمجي توجه إلى القُرى والمدن لنهب الحاصلات الزراعية، والحيوانات والطيور وما تُنتجهُ بعض المصانع الخاصة، دون ثمن مقابل، لأن الحكم العسكري يجعل من سلطة الإدارة الغاشمة أن تنهب ما تشاء

دون حساب، كما كان من الفادح أن تختلىٰ المنازل من أصحابها لتحتلّها الوفود الطارئة من السنغال واستراليا وسائر الربوع التي تحتلّها المملكة المتحدة حين يستريحون من الميدان بالقطر المصري، وما يكادون يبرحون حتى يقدم وفدٌ مماثل!! يقدم جائعاً عارياً شرهاً يتطلّب الغذاء والمسكن والكساء، بل يتطلّب أدواتِ الترفيه المنكرة، من خمر وبغاء ورقص ومسرح وتهريج فنّي لا يمتّ إلى الأسلوب الحضاري في قليل أو كثير. وقد انتشرت دور البغاء انتشاراً قابضاً للنفوس الكريمة، بحجة أنّ البلاد الأوربية تفسح مجالاً للتعيسات من بنات حواء ليجدن المرتزق السهل من أيسر طريق، وقد قام أنصار الفضيلة بمحاربة هذا الزّنى الفاضح قدر ما يستطيعون، ومن أفجع ما يقال في هذا المجال أنّ كثيراً من أرباب الأقلام المأجورة أخذوا يهجّنون دعوة العلماء إلى الشرف وصيانة الأعراض، بدليل أن البغاء أمرٌ عالميّ يجدُ الاعتراف الرسمي من أرقى الدول الأوربية الناهضة!! وكأننا لسنا نؤمن بدين له أحكامه المشروعة، وسننه المفروضة. وأذكر أن الأستاذ محمود أبو العيون رحمه الله قد قطع أمداً كبيراً من عمره داعياً إلى إلغاء هذه السنة النكراء، وبدل أن يسكت عنه من يَدّعون القيادة الفكرية في أمهات الصحف المصرية فقد وَجَد من يقول له أنت صغير يا شيخ، ولا تفهمُ أنَّ أوضاع الاجتماع توجب هذا الترفيه الضّروري للإنسان!! كما وجد من يقول له إنّه يسعى للاشتهار بدعوى الفضيلة الكاذبة! ومن يقول إن البغاء شريعة دولية لا يملك تغييرها مصلح خطير فضلاً عن شيخ معمم لا يجد

في دفاعه غير آيات القرآن وأحاديث الرسول!! وأنه سيبقى ما بقي الإنسان في الأرض!! وقد مرّت الأيام بعد ذلك وألغي البغاء، فلم يكنْ شريعةً ملزمة محتومة البقاء كما تخيّل هؤلاء.

ثم انتهت الحرب العالمية بانتصار الحلفاء، وهبّت الثورة المصرية سنة ١٩١٩م لتطالب بالحرية والاستقلال، ودارت المعارك الرهيبة في كل قرية ومدينة طافحةً بسيول الدماء ومتناثر الأشلاء حتى تحقق بعض النصر، وأُتيح لأبناء البلاد أن يملكوا أمر الإدارة الداخلية، وكان المنتظر أن يعود المجتمع المصري إلى مُثُلِه الإسلاميّة، وأن ينشد البناء الصحيح على أساس قوي من المبادىء الرفيعة التي سنّها الإسلام، ولكنّ هذا المنتظر المنشود وجدَ التيّار الكاسح المؤيّد بالجاه والحظوة ليضل عن السبيل، وليصد عن الصراط.

لقد انتصرت انجلترا وفرنسا وذهبتا تتقاسمان بلاد الشرق كافرتيْن بما أُعْلِنَ من قبل عن حقوق الإنسان فرداً، وحقّ الأمّة مجموعةً في الاستقلال التام، ووجدتا من أنصار التغريب مَنْ صفّق لهذا الانتصار، وأخذ يكيلُ المحامد للمستعمر الغاصب، كما جعل يستشهدُ بنماذج من بطولات رجاله في ميداني الحرب والسلم معاً، ناعياً على المسلمين بعامة والعرب بخاصة تخلفهم الحضاري، واندحارهم الثقافي، راسماً خطة الإنقاذ في احتذاء أوربا، والإيمان بكل ما تُبدعه من خير وشرّ، أقولُ من شِرّ وألحّ على هذه الكلمة، لأنّ أحد المتحمسين لفرنسا قد كرّرها مراراً في مقالاته، ولا أدري كيف نُؤمن بالشرّ الوافد من الغرب وهو شرٌّ باعتراف الداعي إليه!!

أفلا يكونُ الأقربُ إلى الإنصاف أن نؤمنَ بإيجابيات الغرب في ميادين الكشف والاختراع والسبق في مجالات التفوق الصناعِي حتى نتابعهم في خطوات التقدم العلمي. ونخالفُهم فيما افتنوا فيه من وسائل اللهو وأفانين الابتذال!! لقد سارت الأمور على عكس ما يجب أن يكون، فالتقليدُ العربيّ بعامة والمصري بخاصة قد انحصر لدى المتحمسين لأوربا في التبرّج السّافر، واللهو العابث، والتفنّن في تمثيل روايات الخيانة والاحتيال، وإذاعة الأغاني الهابطة، والألحان المثيرة، وترجمة ما يبعث على الإلحاد، حتّى في شرح النظريات العلميّة، فنظريةُ دارون في أصل الأنواع، لم يتَحمّس لها كتابُ الصحف تحمّس المنقِّب الدارس، الملمّ بنواحي القوة فيها، وجهات الضعف البارزة، ولكنّ الكثرة منها جعلت منها قنطرةً للإلحاد وبثّ الآراء المنكرة لما سجّلتْه الكتب المقدّسة في نشأة الإنسان، وكانت الأمانة العلمية تقتضي على حملة الأقلام هؤلاء أن يشرحوا ماوُجِّه إلى دارون من نقدٍ حين جعل المصادفة حلاًّ لأدقّ المسائل في نشأة الإنسان! ولكن البحث العلميّ هنا ليس مقصوداً لذاته، ولكنه هدفٌ إلى الزيغ الضال.

ثم توالت بواعثُ التشكيك في المقررات الإسلامية حين نهض من الباحثين من يعلن أنه ليس ملزماً بتصديق ما حكاه القرآن ونقلته التوراة عن إبراهيم[1] عليه السلام، أعلن ذلك في بحث عن الشعر

---

(١) سيرى القارىء دفاع الرافعي عن حقائق التاريخ فيما يلي من هذه الفصول.

الجاهلي لم يكن من دواعيه أن يعمد الباحث إلى إعلان هذه الترهات، ولكنه أراد الإثارة والصخب، حين تعمّد ذكر إبراهيم عليه السلام، ولولا ذلك ما قامت معركة صاخبة حول الشعر الجاهلي، لأنّ ما قيل عن الشك في كثيرٍ مما روي منسوباً إليه قد قرّره الباحثون في كتب التراث منذ كتب ابن سلام طبقات الشعراء، ولم يُثر الشك في بعض الشعر الجاهلي ضجيجاً في القديم حين قرره ابن سلام ومَن ارتضوا رأيه من الباحثين في إثره، وكذلك لم يثر شيئاً من الضجة حين قرّره الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الجزء الأول من كتابه عن أدب العرب، لأنّ الحقائق الأدبيّة خاضعة للنقد في كل زمان ومكان، والكلمة الأخيرة في هذه الحقائق لم تُقلْ بعدُ، فكثيرٌ من النظريات الأدبيّة قد استقرت مطمئنة في جيل من الأجيال، ثم جاء جيل آخر ليجعلها ذات قلق مضطرب بما يوجِّه إليها من شكوك علميّة لا تزال تأخذ مجال الدفع والجذب حتى تنكشف النتائج عن وضع جديد. وإذن فالثورة على كتاب الشعر الجاهلي لم تكن لما تضمّنه من المقررات الأدبيّة، ولكنْ لما تورّطَ فيه الباحث من الشك في مقدسات مسلّمة لا سبيل إلى إنكارها لدى من يؤمن بالله!! فكيف إذا كان هذا الإنكار من أستاذ يتسلّط على أذهان طلّاب، لا يستطيعون في عقولهم الغضّة أن يميّزوا بين الطيِّب والخبيث، وهل يكون من حرية الباحث أن يطعَن في المقدسات الثابتة عن يقين، ولا يكون من حق الطلاب أن يتساءلوا عن هذا الطعن الجارح مستنكرين، ثم لا يكون من حق العلماء أن يجابهوا الباطل

بالقمع حين يثورون على أوهام مُلحدة تلبس لباس البحث العلمي وهو منها براء؟!. ولماذا نُعطي الحرية التامة لمن يتجرأ على كتاب الله دون دليل، ونعدّه باحثاً مستقلاً، ثم لا نُعطي الحرية لمنْ يقف في وجه العبث، ليدّل على بطلانه، وليرشد إلى مصدره الأول باعتباره رأياً لمستشرقٍ مغرض، نقَله الباحث عنهُ دون أن يعزوه إليه، وهو مشتهر لدى الدارسين.

ثم طُويت الخلافة الإسلامية على يد كمال إتاتورك فكان لسقوطها أثران مختلفان عند الناس، فالذين يرعُون الرابطة الإسلامية ويروْن في الإسلام وطَناً واحداً مهما تعددت ممالكه، وتباعدت جهاته، ساءهم أن ينطوي لواءٌ مديد الظل كان المسلمون يفيئون إليه، ومهما كانت السلطة العثمانية ذات مآخذ دُستورية، فقد كانت حائطاً منيعاً، وسدّاً يصد الموج المتدفق بالطوفان ليكتسح البقية الباقية من أمجاد الإسلام، وقد عبَّر شعراء العصر عن هذه العواطف في قصائد حزينة باكية هتف بها أحمد مُحَرّم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب، وكان شوقي رحمه الله أعلى الشعراء صوتاً حين سجّل عواطف المسلمين في قصيدة حارة تزفر باللهيب، وتشتعل باللوعة قال فيها:

يا للرجال لحرّة موءودة	قُتلت بغير جريرة وجُناح
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم	مَوشيّة بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة	ونضوْا عن الأعطاف خير وشاح
حَسَبٌ أتى طول الليالي دونه	قد ضاع بين عشية وصباح
وعلاقة فصُمت عُرَى أسبابها	كانت أبر علائق الأرواح

جَمعت على البّر الحضور وربما جمعت عليه سرائر النزاح
نَظمتْ صفوف المسلمين وخطوهم في كل غدوة جمعة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابثٍ بالشرع عربيد القضاء وقاح
إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك في صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقرى والناس نقل كتائب في السّاح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو حتى تناول كلّ غير مباح
غرّته طاعات الجموع ودولة وجَد السّواد لها هوى المرتاح
وإذا أخذت المجد من أمّية لم تُعط غير سرابه اللّماح

أما الأثر الثاني فيمثّله الذين استهوتْهم حضارة أوربا ببهارجها الزائفة، فقد ذهبوا يكيلون الطعان للخلافة الإسلامية بمعناها الديني باعتبارها لديهم أداةً قيصريّة للتحكم والاستعباد، وقد كذبوا على الله وعلى الناس حين قرنوا الخليفة المسلم الذي يخضع لقانون السمّاء مدوّناً في كتاب الله ببابا الكنيسة الرومانية الذي يمنحُ الغفران من يشاء، ويحجبه عمن أراد، فانطلق الوالغونَ في الباطل يُعدِّدون مساوىء الكنيسة في عصور ما قبل النهضة ليضيفوها إلى الخلفاء، وهذه المقارنة الظالمة لا تزال تجدُ من ذيول الكتّاب من يردّدها بين الحين والحين، فيجد الهتاف الحار ممن يسيئهم أن تعلو كلمة الله. ولقد تورط الأستاذ علي عبد الرازق فيما سطره بكتاب الإسلام وأصول الحكم عن الخلافة الإسلامية وبُعدها عن تعاليم الإسلام، ومن المؤسف أنْ صاحَبَ ظهور الكتاب ظرفٌ سياسي جعل منه قضية كبرى للحرية الفكرية لدى قوم يقصرون المعنى المراد من الحرية على تسطير كل

ما يقال ضد الإسلام بغياً دون حق، فإذا حاولتِ الأقلامُ المنصفة أن تُمسك بالزمام سمعتَ صيحات الاستنكار، ورُمي المدافعون عن دين الله بالوصولية والنفاق، ونحنُ نتساءل هل نال المدافعون عن الحكم الإسلامي بَعْضاً من الحظوة التي ينالها المنحرفون؟ إننا نلتفت ذات اليمن وذات الشمال فنجد أصحاب الانحراف يتبوّؤون أرقى المناصب، ويتصدّرون الصفحات الأولى في أمهات الصحف، وينتشر لهم دوي مزعج في أدوات الإعلام المختلفة، بينما يحاول أنصارُ الفكرة الإسلامية نشر آرائهم، فتضنُّ الصحف عليهم بمساحة صغيرة تعلن عن رأيهم الصحيح، وتكتفي بتلخيص الرد إذا جاء من كبير مسؤول!! حتى صَرخ شيخ الأزهر شاكياً من إهمال الصحف لردوده!! فإذا اشتكى شيخ الأزهر ـ وهو الرأس الأعلى للإسلام في مصر ـ من إهمال ردوده القاطعة. فبماذا يُعامل مَنْ دونه مِنَ العلماء والدعاة وهم يسمعون اللغو الشائن، ويقرؤون السفه المنكر، ثم تدفعُهم الغيرة الإسلامية إلى إحقاق الحق، فلا يجدون المجال المتّسع للنشر!! بل يجدون من يرميهم بالتعصب والتزمت دون حياء. أذكر أنّ جمعية الشبان المسلمين عند تأسيسها الأوّل قد صادفتْ حرباً ضارية لا لشيء إلا لأنّها ستكون جمعيةً إسلاميّة في بلد إسلامي!! مع أنّ جمعيات أخرى تنسب لطوائف دينيّة تجدُ التأييد التام، والمعونة المطلقة، ونحن لا نمنع أن تنتشر الجمعيات الدينيّة إسلامية وغير إسلامية لتدعُو إلى الفضائل الإنسانية كما رسمتْها الأديان الصحيحة، إنما نمنع أن تعلو الصيحات عند إنشاء جريدة إسلامية أو جمعيّة للشبان

المسلمين، وكأننا بذلك نهدم بناءً شامخاً، وسوراً حصيناً يحمي البلاد!! وفي معمعان هذه المعارك تظهر الدعوات إلى الفرعونية لا ليراد بها الاعتزاز بتاريخ مصر القديم بل لتكون الفرعونية رمزاً للأمة المصرية، وتبحث عن صدى هذه الفرعونية في الأمة المصرية فلا تجد غير الآثار والهياكل، وتلك لا تجذب غير السائحين من الأجانب، أما المصريون مسلمون وأقباط فلديهم من آثارهم الدينيّة ما يقع موقع الإجلال والتكريم، ولكنّه الهزل المقيت.

على أن الذين يرمون القائمين على الجمعيات الإسلامية بالتعصّب قد سكتوا سكوتاً عن موجة التبشير التي عمت البلاد في بعض الفترات، حيث قام بعض الغُلاة ببذل أموال كثيرة لبعض المرضى من فقراء المسلمين كي يتركُوا دينهم، وأسهمت الجامعة الأمريكية بمصر في الترحيب بمن يبشّرون عن قصد، كما دعت بعض المحاضرين من المسلمين ليتكلّموا عن حرية اعتناق الأديان، وأنكى ما قيل في هذا الموقف، أنّ الدين القويّ لا يخاف من التبشير، ويجب على معتنقيه ألاّ ينزعجوا من أيّ دعوة مضادة، وهذا كلامٌ له خبيءٌ لأنه دعوة صريحة إلى عدم المقاومة أمام تيّارٍ يهاجم الإسلام في بلد الأزهر، ونحنُ نحمد لجريدة السياسة أنّها في قضية التبشير بالذات قد انضمتْ إلى الجبهة الإسلامية، فكتبَ الدكتور محمد حسين هيكل مقالاتٍ حرّة أوضح فيها مآربَ الاستعمار في قطع الصلة بين المسلمين وعقيدتهم، ليتمكّن المغرضون من عرض قيم أخرى تنافي القيم الإسلامية عبادةً

وسلوكاً، وقد امتدتْ موجةُ التبشير حتى بلغتْ أقصى حدود ارتفاعها في عهد وزارة إسماعيل صدقي الأولى، وكانت وزارةً مفروضة على الشعب لا تجدُ الترحيب من الأكثرية الغالبة، ولكنها تستند إلى قُوى خارجيّة يهمّها أن تكمم الأفواه، وتغلّ الأيدي، والحق أن الجمهرة المؤمنة لم تسكت عن ضيْم يطعن إيمانها في الصميم، فتضافرت الجهود حتى انحصر وباء التبشير في أضيق نطاق!

في هذا العصر العجيب بأحداثه المتعارضة، وكوارثه المتلاحقة، نشأ الكاتب الجهير مصطفى صادق الرافعي، ليكون لساناً صارماً في جبهة الدفاع عن الحقائق الإسلامية، وليصبح الذائد الأول عن التراث الإسلامي، وكان لبيانه الناصع من التأثير القوي ما جعله مِدْرَه الإسلام، وفارس الحلبة تحت راية القرآن...

* * *



الكَاتِبُ البَلِيغُ

طُبع الرافعي على البلاغة العربية المُترفَة لأمورٍ تمت له أدواتُها في نشأته الأولى، فقد حفظ القرآن صغيراً، واستمَع إلى معانيه في مجلس أبيه، فكان حفظاً ذا ثقافة وتوجيه، ثم أكبَّ على الحديث النبوي في كُتب الصحاح، ليعرف مقدار ما بين أسلوب السماء في أفصح كتاب وأسلوب العرب في أجزل بيان من صِلات تتباعد وتتقارب. ثم حبّب إليه أن يعكف على استظهار نهج البلاغة استظهاراً يُريه موقع الجزالة الآسرة، والحجج الدافعة، والعبر الواعظة من النفس الجياشة بالإحساس حين تتوقُ إلى نمط من التعبير الحيّ تفصح به عن أدقّ الخلجات. والقرآنُ والحديثُ ونهجُ البلاغة آياتُ أدب ودين معاً، لذلك شبّ الرافعي ومفهومُ الأدب لا ينفصل لديه عن مفهوم الدين، وما العربية في أرفع مستوياتها إلا ثوبٌ أنيق يشفّ عن أسمى الفضائل الإنسانية، وأطهر المبادىء الدينيّة التي جاء بها الإسلام، فلا عجب أن رأينا الرافعي يعرف أنّ مكانه في الأدباء منذ امتشق اليراع، مكان البليغ الذي يحتذي أسلوب الكتاب تعبيراً، وروح القرآن إحساساً، ومعاني الذكر تفكيراً، وصُورَه خيالاً وتمثيلاً، فالدينُ لا ينفصل عن الأدب في مرتقاه، وعلى الأدب أن يرتفع حتى يحلّق في أوج

الدين، وقد يكتب الرافعي عن الوجدانيات العاطفية، في (أوراق الورد) و(رسائل الأحزان) فلا يخرج عن هدي الدين في شيء، لأن الحديث عن العاطفة الشريفة يمتّ إلى القرآن بنسب أصيل، وأنت حين تقرأ الغزل العفيف تحسّ بارتفاع في مشاعرك، وسمو في اتجاهك، وحاشاك مع هذا النمط الراقي من البيان أن تسِفَّ إلى نزوة هابطة أو تطيع عاطفة رعناء! والشعر الذي شُغل به الرافعي رَدَحاً غير قليل من حياته كان شعر المروءة والعزة، ونشيد المجد والاستقلال وترجمان الطهارة والمروءة والشرف، وذلك ما ينطق به قوله:

قلبـــي يحـــب وإنمـــا أخـــلاقـــه فيـــه ودينـــه

فالأدب والإسلام هُما متّجهُ الرافعي في حياته الأدبية، وإذا كان الرافعي زعيماً من زعماء الأدب دون نزاع، فهو سيفٌ من سيوف الإسلام في عصر الزندقة والإلحاد، والرافعي رحمه الله يعرف ذلك في نفسه، وقد أفصح عنه أبلغ إفصاح حين قال:

«أنا لا أعبأ بالمظاهر والأعراض التي يأتي بها يومٌ وينسخها يوم آخر، والقبلةُ التي أتّجه إليها في الأدب إنّما هي النفسُ الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتبُ إلاّ ما يبعثها حيّةً، ويزيد في حياتها وسمو غايتها، ويمكّن لفضائلها وخصائصها في الحياة، ولذا لا أمسُّ من الآداب كلها إلاّ نواحيها العليا، ثم إنَّه يخيّلُ إلي دائماً أنّي رسولٌ لغويّ بُعِثْتُ للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا أبداً في موقف الجيش تحت السلاح، له ما يُعانيه، وما يكلّفه، وما يحاولهُ ويفي به، وما يتحاماه ويتحفَّظ فيه. وتاريخ نصره، وهزيمته في

أعماله دون سواها، وكيف اعترضتَ الجيش رأيته فنَّ نفسه لا فنَّك أنت ولا فَنّ سواك، إذ هو لطَريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ»[1].

والرافعي في واقعِه العمليّ صادق في كل مقال، فجميعُ ما صدر من آثاره ينطق بمكانته العليا في الأدب والدين معاً، مع حميّة مفرطة جعلته مميّزاً بين نظرائه الذين يتخذون من الكتابة وسيلةً لنصرة مبادىء الإسلام، وسلاحاً لهزيمة مناوئيه، فالأساتذة الكبار محمد الخضرحسين، وشكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي وعبد العزيز جاويش ومحب الدين الخطيب وغيرهم يشتركون مع الرافعي في جبهة الدفاع عن المثل الإسلامية، ولكن الرافعي يتميز عنهم بأسلوبه الناريّ، وقمعِه الرادع، وصَلْصلته المُرِنَّة التي لا تستمدّ رنينها من قوة الألفاظ وحدها، فالألفاظُ في متناول الكاتبين جميعاً، ولكنها تستمد قوتها ممّا وراء الألفاظ من روح غلّابة قاهرة، هي روحُ البطل الجبار الذي يثقُ من قوّته الحربيَّة،ومهارته الفنيّة في حلبات الصّيال. ولأمرٍ ما تحاشاه المناوئون وهربوا من منازلته في ميدانه الراعد بالهول، العاصف بالويل، ولأمرٍ ما تركوا الحجج الدامغـــة، والبراهين الدافعة إلى ما يجري مجرى الشتائم من مبتذلاتٍ ترجع بالخيبة إلى القائل، وترتدّ عن الرافعي وهي ذليلةٌ حسرى، وما تقدم جريء على المثل الإسلامية في عصر الرافعي إلا وهو

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٢٥٧.

يحسب حسابه، ويتوقّع هجومه الباغت، وما ظنك بهذا الذي حَسب نفسه يقفُ تحت السّلاح للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، وهي أمورٌ ثلاثة تتداخل وتتعانق حتى تصير أمراً واحداً، هو المجدُ الإسلامي الخالد، الذي يشرف على الأجيال من الأفق الأعلى داعياً أهل الملّة أن يصعدوا إليه مرتفعين، لا أن يهووا إلى الحضيض مندحرين.

وليس الرافعي هو الذي يرى نفسه مِدْرَه الأدب والدين معاً، فذلك إجماعٌ قد انعقد بين الذين يتجرّدون عن الهوى في أحكامهم الخالصة، تؤيدُه آثاره المنبثة في الصحف، والتي جمع بعضها في أجزاء مختلفة تحمل أسماء متنوعة، وبقي بعضٌ آخر لا يجد من يهتم به، لأن جيل الرافعي كان يضمّ بقيّة مُثْلى من ذوي الهيام بالأساليب الرفيعة، والتحليق الصاعد، فعشقُوا آثار الرجل، وهامُوا به، أما جيلُنا المعاصر فقد أَلِف السطحيّة الهشة التي لا تكلّف عناء، ولا تتطلب يقظة، وقد كانت المقالة الأدبية في عصر الرافعي ذات صدى بعيد بين القراء، يُقبلون عليها كما يقبلون على القصيدة الرائعة في شغفٍ وإعجاب، فصارتِ القصّةُ اليوم وسيلة التسلية، قراءةً في الورق، ومشاهدةً في التليفزيون، وسماعاً في المذياعِ!! وغابت المقالة والقصيدة، واحتجب الكتاب الجادّ!! ولابدّ من قارعةٍ تُوقظ النائمين ليقبلوا على الثقافة الجادة، والفكر الرصين.

على أنّ الرافعي كان في دولة البيان علَماً وحده لا يمكنُ أن تجدَ لأسلوبه نظيراً فيما عُرف من أساليب البلغاء والمُحْدَثين، وقد

تحاشىٰ أكثرُ الدارسين تحليلَ أُسلوبه لشيء واحد، هو عجزهم عن الإفصاح عن مكْنون جوهره، فليس الطريق مُعَبَّداً، أمام من يحلّل روائع البيان في أدب مصطفى صادق، لأنه إذا وجد للبلغاء من أمثال الجاحظ وأبي حيان وعبد القاهر أساليب تبلُغ الروعة في فن التدبيج، فهي أساليب متقاربة يدنُو بعضها من بعض، ويبقى أسلوب الرافعي متميّزاً. وقد اشتهر في جيل الرافعي أربعة من كبار الأدباء ينتسبون إلى البيان في أرقى مجاله، وهم: مصطفى لطفي المنفلوطي، وعبد العزيز البشري، ومصطفى الرافعي، وأحمد حسن الزيات. ودراسة أساليب المنفلوطي والبشري والزيات مما يسهل على الدارس لأنّه يجد الطريقة ممهّدةً لا تحتاج إلى كبير جهد. أما دراسة أسلوب الرافعي، فما أشقَّ وأهولَ، لأن المعنى والصورة والتركيب تشترك اشتراكاً متداخلاً في أسلوبه بحيث لا تعرف الفصل التحليلي بين عنصر وعنصر، ويخيّل إليَّ أن الرافعي يفكر بالصورة قبل أن يُحدد المعنى، فأفكاره صورٌ تتناسق، وكأنها نجوم تُضيء من أفق رفيع، لا تعرف منها نجمةً تعلو نجمه، ولهذه الصور التي تحمل المعاني الراقية تدفقٌ وانصباب يدهش القارىء كثيراً فيقفُ محبوس الأنفاس، إذ يَرى الشّلال الزاخر ينحدر من قمة عالية إلى الوادي الفسيح مصطخباً ثائراً تعلو الموجة الموجة، وتقذف اللّجة اللّجة، دون انتظار، فلستَ ترى إلا سيولَ الماء يعلوها الزبد الدافق الجياش!! وقد ظلّ الرافعي شاعراً في نثره، ففي (أوراق الورد) و(رسائل الأحزان) و(السحاب الأحمر) بنوع عام و(وحي القلم) بنوع خاص من

الصور الشعرية ما يحاول الناقد استكناهه فلا يستطيع، ولكنه مع عجزه يعترف منبهراً بروعة ما يقرأ، كما يرى السائر طائرةً تمخر عباب الجوّ، فتأخذهُ روعة انطلاقها، ويعجز أن يقف على أسرار تركيبها، ولكنّه يعلم تمام العلم أنها من صنع عبقري عظيم.

وفي يقيني أنّه لا يقدر على تحليل أسلوب الرافعي غير الرافعي نفسه، وقد قامَ في فكره، أن يقوم الأستاذ أحمد حسن الزيات بكتابة مقدّمة لوحي القلم تصوُّر اتجاهه البياني، ومكثَ الكتاب شهراً لدى الزيات حتى يئس الرافعي، فكتب المقدمة بقلمه ليفصح عن بعض الأسرار الخاصة ببيانه المبدع، وقد قال فيما قال: «إن نقل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة والشعر هو انتزاعها من الحياة في أسلوب، وإظهارها للحياة في أسلوب آخر، يكونُ أوفى وأدقّ وأجمل، لِوضْعِه كل شيء في خاص معناه، وكَشْفِهِ حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبس، وتلك هي الصناعة الفنيّة الكاملة، تستدركُ النقص فتتمّه، وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيد فتطلقه، وتأخذ المطلق فتحده، وتكشف الجمال فتظهره، وترفع الحياة درجة في المعنى، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به»[١].

ثم قال الرافعي بعد ذلك: «وفي الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم ومعانيهم فناً عقلياً غايته صحة الأداء

---

(١) وحي القلم ج١ ص١٥ (المقدمة).

وسلامة النسق، فيكون البيانُ في كلامهم على نَدْرَة كَوَخْزِ الخُضْرةِ في الشجرة اليابسة هنا وهنا. ولكن الفن البياني يرتفع عن ذلك، بأن غايته قوة الأداء مع الصّحة، وسمو التعبير مع الدقة، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة، أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ويَدِفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري... ودورة العبارة الفنيّة في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي، كأنها شَبَّتْ في نفسه شباباً؛ وأقوى مما هي، كأنما كسبت من روحه قوة، وأدلّ ممّا هي كأنما زاد فيها بصناعته زيادةً؛ فالكاتب العلمي تمرّ اللّغة منه في ذاكرة، وتخرجُ كما دخلت عليها طابعُ واضعيها؛ ولكنّها من الكاتب البياني تمرّ في مصنع وتخرج عليها طابعه هو. أولئك أزاحوا اللّغة عن مرتبة سامية، وهؤلاء عَلَوا بها إلى أسمىٰ مراتبها»[١].

لقد وازن الرافعي بين كاتب وكاتب، وهذه الموازنة هي التي تجعلنا نعرف كيف تميز الرافعي وحده بنمط من البيان ليس له شبيه في القديم والحديث، إذ أن العبارة لديه تدور في نفسه دورة خلق وتركيب، فتخرج بها الألفاظ أزْهى مما هي، وأدلّ مما هي، وأكبر ممّا هي كأنّما شبّت في نفسه شبابا، واقرأْ إن شئت آثارَ أبي حامد الغزالي وابن حزم الأندلسي وأبي الفرج ابن الجوزي في القديم، كما اقرأْ إن شئت الآثار الإسلامية لمحمد حسين هيكل

---

(١) وحي القلم ج١ ص١٧.

وعباس محمود العقاد ومحمد فريد وجدي في الحديث، وكلُّهم عَلَمٌ من الأعلام في دنيا البيان الديني لامراءَ، وكلّهم كتب فأقنع، وصوّر فأمتع، وجادل فأفحم، ولكنّهم جميعاً شيء، والرافعي شيء آخر، هؤلاء كتبوا في الأدب فديّنوه، وكتبوا في الدين فأدّبوه، ولكنهم لا يحسّون إشعاع اللفظ وإيحاءه كما يحسّها الرافعي، ولا يبدعون الصورة الكلية الممتدة كما يبدعها الرافعي، ولا يتغلغلون إلى أعمق الأعماق في الفكرة الإسلامية كما يتغلغل الرافعي، إذ كان له رحمه الله من رقة الاستشفاف في حيّز اللفظ الواحد ـ وإن تركّب من حرفين ـ ما لا تجد نظيره فيما تطالع من الدراسات، كما كان له من بُعد الغوص في المعنى الديني ودقة مرماه ما هو جدير به وحده دون سواه، وسنمثل لذلك بمثالين يدل أحدهما على رقة الاستشفاف في حَيِّز اللفظ، ويدل الثاني على بُعد الغوص في فهم الحقائق الدينيّة للموضوع الشائع المتداول الذي كتب عنه الكثيرون، وجاء الرافعي لا ليكرر بل ليضيف الجديد.

أمّا المثال الذي يدل على رقة الاستشفاف في حيّز التعبير البياني، فنأخذه من تفسير الرافعي لقول الله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] حيث قال[2]: عجباً للحبّ! هذه مَلِكةٌ تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن

---

(١) سورة يوسف: ٢٣.

(٢) وحي القلم جـ١ ص١٠٥.

بخْس، ولكنْ أين مُلكُها وسطوةُ ملكها في تصوير الآية الكريمة؟! لم تَزِد الآية على أن قالت: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي﴾ و(التي) هذه كلمة تدلّ على كلّ امرأة كائنة مَنْ كانت، فلم يبقَ على الحب مُلْكٌ ولا منزلةٌ، وزالت الملكة من الأنثى.

وأعجبُ من هذه كلمة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة، تشير إلى أنّ هذه المرأة جعلتْ تعترض يوسف بألوانٍ من أُنوثتها لونٍ بعد لونٍ، ذاهبةً إلى فنّ، راجعةً من فن؛ لأنّ الكلمة مأخوذةٌ من رَوَدَان الإبل في مشيتها، تذهبُ وتجيء في رفق. وهذا يصوّرُ حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذَ إلى غايتها، كما يصور كبرياء الأنثى إذ تحْتالُ وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي، كأنما الكبرياء شيءٌ آخر غير طبيعتها، فمهما تتهالك على من تحبّ، وجَبَ أن يكون لهذا (الشيء الأخير) مظهر امتناع، أو مظهر تحيّر، أو مظهر اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعةً ماضية مصمّمة.

ثم قال ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، ليدلّ على أنها لا تطمع فيه، ولكنْ في طبيعته البشريّة، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأنّ الآية مصرّحةً في أدب سام كل السمو، مُنَـزِّهٍ غايـة التنزيه بما معناه: (إنّ المرأة بذلتْ كل ما تستطيع في إغرائه وتصبيته، مقبلةً عليه، ومتدلّلة ومتبذّلة، ومنصبّة من كل جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشريّة، وعارضةً كل ذلك عرضَ امرأةٍ خلعت ـ أول ما خلعت ـ أمام عينيه ثوب المُلْك).

ثم قال: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولم يقل (أغلقت) وهذا يُشْعر أنّها لمّا يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسْرعت في ثورة نفسها مهتاجةً تتخيّل القُفْلَ الواحد أقفالاً عدّة، وتجري من باب إلى بابٍ، وتضطرب يدها في الإغلاق، كأنما تحاول سدّ الأبواب، لا إغلاقها فقط.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها في هذا الموقف أنّ اليأسَ قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدُوده، فانتهت إلى حالةٍ من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعُدْ لا ملكة ولا امرأة، بل أنوثةً حيوانية صِرْفة، متكشّفة مصرِّحةً كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها.

هذه ثلاثة أطوار يترقَّى بعضها من بعض، وفيها طبيعةُ الأنثى نازلةً من أعلاها إلى أسفلها، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها، ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه، بدأت من ثَمَّ عظمةُ الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهةَ الظلم، ولكنّ هذا التّنبيه المترادفَ ثلاث مرات لم يَكْسِرْ من نزوتها، ولم يَفْثأْ تلك الحدّة، فإن حبّها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعتْ بكل أسبابها في زمنٍ في مكان في رجل، فهي فكرة محتبسة كأن الأبواب كانتْ مغلّقة عليها أيضاً؛ ولذا بقيت

المرأة ثائرةً ثورةَ نفسها، وهنا يعودُ الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾».

ثم يمضي في تفسير الآية الّلاحقة على نحو رائع روعة تفسيره للآية السابقة.

فليت شعري أينكر ناقد على الرافعي أن الألفاظ لديه أناسيّ تتحرك لها ملامحها النفسيّة، وانفعالاتها الوجدانية، وقسماتها الجسميّة، هذا وكلّ لفظ على حدته له مدلوله الخاص، فإذا انْدرج في السياق تآلف مدلول ومدلول فجاء مدلول ثالث!! لقد كتب عبد القاهر الجرجاني تحليلاً رائعاً لقول الله ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] فبلغ غاية رائعة من أسمى غايات البيان، وهو مع هذه الروعة بعيدٌ عن جوِّ الرافعي ومستواه، لأن خبرته النفسيّة لم تظهر في بهائها الساطع كما ظهرت خبرة الرافعي دافقةً ذات أمواج.

ننتقل إلى المثال الثاني الذي يدل على بُعد الغوص في فهم الحقائق الدينية للموضوع الشائع المتداول، فنستشهد له بما كتب الرافعي عن الصلاة. والصلاة من الذيوع بحيث لا يكاد الكاتب يأتي بجديد عنها، لا أقصد كاتب الفقه الذي يتحدث عن الأركان والسنن والمبطلات، بل كاتب التحليل الفنِّي الذي يسجل خواطره الذاتية من أمثال ما كتب أبو حامد الغزالي والحارث المحاسبي

---

(١) سورة هود: ٤٤.

وياقوت المكي. فهؤلاء وأمثالهم قد أفاضوا إفاضة تامة فيما تبعثهُ الصلاة من الخشوع، وما تؤدي إليه من التقرّب إلى فاطر السموات والأرض، وما تنهى به عن الفحشاء والمنكر إذا التزم المصلّى بما يقول. ولكن الرافعي قد ترك ذلك كله ليأتي بما لا يكاد يطرق على بال، سوى باله الطائر الوثاب، ومصيبةُ الدارس مع الرافعي أنه لا يستطيعُ أن يلخص ما قال، لأنّ أسلوبه الفني من التماسك والترابط والالتحام بحيث يتعذر أن تأخذ شيئاً وتدع شيئاً دون أن تطفىء كثيراً من البريق المشع في التعبير والتفكير والتصوير جميعاً!! ويكون معنى ذلك أن يضطر الكاتب إلى أن ينقل الموضوع بحذافيره، وهذا مما يتعذّر، أو يشير إليه دون استشهاد، وهذا عرض للقضيّة دون حيثيات!! وأقربُ شيء أن نقتطع من كلٍّ بعض ما يدل عليه، فنكون كمن يوجز الشرح الضافي في متن موجز، وقد مضى زمان المتن والشرح، وأصبحنا نسلك نهجاً جديداً في التدوين.

قال الرافعي[١]: «بالانصراف إلى الصلاة، وجمع النية عليها، يستشعر المسلم أنه قد حطّم الحدود الأرضيّة المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحد فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السّامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنّه كائن منتصب مع الكائنات يسبّح بحمده.

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص١٣.

وبالتولّي شطر القبلة في سَمْتها الذي لا يتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة، فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقلقها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يُشْعر المسلم نفسَه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلِّم على نبيّه وملائكته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة، يُقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالا جديداً، من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظات في الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا، لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس؛ فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع.

هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات يفرغ فيها القلب مما امتلأ به من الدنيا، فما أدق وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «جُعلت قرة عيني في الصلاة»».

وسأعود إلى هذا النص مرّة أخرى عند الكلام عن شعائر الإسلام لدى الرافعي لأن مناسبته هناك أقوى وأتم. إنّ مما انفرد به الرافعي انفراداً تاماً عن سواه في جميع عصور النثر العربي، هو

تغلغله في الحياة الداخلية للمعاني، فالمعنى الشائع المتداول لدى الناس ليس أمام الرافعي سوى باب موصد، يتطلب المفتاح لينفرج مصراعاه عن بهو فسيح، مزيّن بفاخر الأثاث، ومُحلّى بأرقى الصور الفنيّة، ومضاء بأبهى الثريات!! هذا البهو لا يوجد إلا في تصوير الرافعي المنبعث عن خيال حيّ وثاب!! وقد ألف الدارسون أن يختاروا نماذجهم التحليلية من الشعر، وقلّ ما يتجهون وجهة النثر، وأنا أقول لهم إن نثر الرافعي الفني شعر كلّه، وهو لا يزال مدخراً للباحث المنتظر، حيث تهيّبه المحلّلون!! فلعلهم يتسلحون بالعزم القوي، والدراية الواعية، والاستشفاف النافذ ليبلغوا منه بعض ما يريدون.

* * *

مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كنت أتمنّى أن يُفرد الرافعي كتاباً خاصاً بسيرة النبي الأعظم، لأنه لو فعل ذلك لأتى بمعان لا تخطر لغيره على بال. فإذا كان الدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ محمد فريد وجدي وغيرهم من كبار الأدباء قد كتبوا صفحات مشرقة في سيرة رسول الله ﷺ، فبلغوا مبلغاً رائعاً من التوفيقَ، فإنّ الرافعي صاحب الحميّة الإسلامية المشتعلة إذا تهيّأ له أن يكتب هذا الكتاب فإنه سيأتي بما لا يخطر على بال هؤلاء جميعاً. ومن حظ العربيّة أن يكتب بعض الفصول الخاصة بالنبي الكريم في مناسبات دينيّة تطلَّبتْ أن يكتب، فتكون هذه الفصول تأكيداً قوياً لما أُعلنه من أن الرافعي يأتي بما لم يأت به سواه، أو بما لا يستطيع أن يأتي به سواه، وقد كنتُ أقرأ المقال الواحد فيغمر شعاب نفسي، فلا أستطيع أن أخلص من تأثيره دون جهد جاهد، بل كنتُ أقطع قراءة الفصل الواحد لأهدىء خواطري، وأجمع شتات فكري الحائر، ثم أستعين الله على مواصلة القراءة، لأنّ طوفان الأحاسيس الذي يشتجر في نفسي من تأثير ما أقرأ يظل في داخلي يجيش ويمور ويصطخب، فإن المعاني التي يكتبها

الكاتب النابغة، تُولّد معانٍ أخرى في نفس القارىء، فهو بحاجة إلى أن يرصد المعاني الجديدة التي تولدتْ في خاطره، فلا بد أن يقطع القراءة مرات ومرات، حتى إذا سكن ساكنه بدأ يستأنف ليعود الطوفان من جديد.

وقبل أن أشير إلى بعض ما تحدث به الرافعي عن رسول الله ﷺ أُشير إلى بعض ما تحدث به عن النبوة العامة لكل الأنبياء ـ ورسول الله خاتمهم ـ، فإنّه يرى النبي شمساً سماوية كهذه الشمس الكونية وأَوْجُه الشبه بين الشمس النبوية والشمس الكونية يُبدع الرافعي في تحديدها حين يقول[1]:

«كما تطلُع الشمس بأنوارها فتفجّر ينبوع الضوء المسمّى بالنهار، يُولد النبي، فيوجِد في الإنسانية ينبوع النور المسمّى بالدين، وليس النهارُ إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليسَ الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها.

والشمس خلقها الله حاملةً طابَعَه الإلَهي، في عملها للمادة تُحوّل به وتُغيّر، والنبي يرسله الله حاملاً مثل ذلك الطابع في عمله تترقى فيه [المادة] وتسمو.

ورعشاتُ الضوء من الشمس هي قصّة الهداية للكون في كلام النور، وأشعّة الوحي في النبي هي قصّة الهداية لإنسان الكون في نورٍ من الكلام.

---

(١) وحي القلم ج٢ ص٥.

والعامُل الإلَهي يعمل في نظام النفس والأرض بأداتيْن متشابهتيْن، أجرامِ النور من الشمس والكواكب، وأجرامِ العقل من الرسل والأنبياء، فليس النبي إنساناً من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشّك، ثم يُدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة؛ ولكنّه إنسان نجْميٌّ يُقرأ بمثل التلسكوب في الدّقة، معه العلم ومع العلم الإيمان، ثم يُدرَس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحْدها».

هذا الحديث الدقيق عن مبعث الشمس في الحياة ومبعث النبي في الوجود، أَيستطيع القارىء أن يتلوه تلاوة سريعة، كما يقرأُ كتب السيرة لدى المحدثين والقدماء أمْ أنّه إذا أراد الفائدة التي يكسبها من اطلاعِه مضطّر إلى التؤدة في القراءة، ليربط بين المشبّه والمشبّه به بما يفتح الله عليه من وجوه الشبه، تلْك التي كتبها الكاتب لا لنقف عندها وحدها، بل لتوحي بوجوهٍ أُخرى تتوالَدُ وتتناسل، لأنّ الجو جو الشمس، ولا أوسع من أفقِه، والحديث حديث النبوة، ولا أفسح من مداه.

وقد يُضيف القارىء إلى ما تقدّم عن النبوة قول الرافعي في مقال آخر[١]: «النّبي لا يكون نبيّاً حتى يكون في إنسانهِ إنسانٌ آخر بنواميس تجعلُه أقربَ إلى الملائكة في روحانيتها، وما ينزلُ إنسانُه الظاهر من إنسانه الباطن فيه إلا منزلَة مَن يتلقّى ممن يُعطى، فذلك

(١) وحي القلم ج ٢ ص٣٣.

الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وذلكَ الظاهرُ هو لما يمكن أن يبلغَه الكمال في المثل الإنساني الأعلى، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبيّ من الأنبياء، أن يحملَ هموم أمّةٍ كاملة لا تُضنيه ولا تُغيّره ولا تعجزه، فحقيقة النبوة أنها قوةٌ من الوجود في إنسانٍ مختارٍ، جاءتْ تُصلح الوجودَ الإنسانيّ به لتقرّ في هذه الحيوانية المهذبة مَثَلَها الأعلى بدلالتها على طريقها النفسيّ، مع طَريقها الطبيعي، فيكون مع الانحطاط الرقي، ومع النقص الكمال، ومع حُكْم الغريزة التحكّم في الغريزة، ومع الظّلمة المادية الإشراق الروحاني».

هذا هو النبي - في مشموله العام - إنسانٌ مُتّع بمزايا رفيعة جعلتْـه أقربَ إلى الملائكة في روحانيتها، وله باطنُه المشرق الذي يتّصل به إلى الملأ الأعلى، فيمدّه بقوة يستطيع بهـا أن يحملَ هُموم أمة كاملة، لا هموم فرد واحد، فقوّتُه الروحانية قوةُ إنقاذ عالميّ للبشريـة المتردّية في مهاوي السقوط، بغرائزهـا الثـائرة التي يُحاول تهذيبها، ويرفعُها من ظلامِ الأنانية إلى إشراق الإيثار، وإذا كان هذا هو النبي - أي نبي - فلماذا كان محمد ﷺ سيد الأنبياء؟

لقد بُعث محمد ﷺ على فترة من الرسل، انقطع فيها تأثيرُ الأنبياء السابقين ، ومسّتِ الحاجة إلى نبيّ جديد يشرحُ قواعد الإسلام منذ عرفها آدم وظلت رسالاتُ الأنبياء تحملها رسولٌ بعد رسول، فكلهم مسلم إلى ربه، يدين بالإسلام الحق، ويرفعُ البناء

الذي جاء خاتم الأنبياء ليقيمه بعد انهياره، وهذا ما عناه الرافعي حين قال [1]:

«كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنّما وَهَن من طول الدهر عليه، يتحيّفه ويمحوه، ويتعاوره بالشّر والمنكر، فابْتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد، بدأتْ به الدنيا في تطوّرِها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسان على ذاته، كما بدأتْ من حيث يُوجد الإنسان في ذاته، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها؛ كان في آدم سرُّ وُجودِ الإنسانية، وكان في محمد سرّ كمالها».

من أظهر معاني الإنسانية النبيلة في سيرة محمد ﷺ، هو ترفّعه عن مُغريات الجاه والسلطانِ، في أحلكِ ظروف حياته، فقد كانَ في مكة في نفرٍ قليل من صحابته، أكثرُهم من المستضعفين يتعرضون لأقْسى صنوف العذاب والمقاطعة المؤدية إلى الفقر فالجوع فالموت، ومثلُ هذا المعذّب المجهد بمأساةِ أتباعه قبل أن يُجهد بمأساةِ دعوته المحاربة، لو كان رجلَ مطامعَ وأهواء لاستجابَ إلى أعظم عرض وُجه إليه من أعدائه، وهو أن يكون صاحبَ ملك وجاه وسلطان، هكذا فكر من عَرضُوا عليه الملكَ والمال كي يتقهقر عنْ رسالته فأبى واستعصَم، وبكى أسفاً على اتجاه قومه في فهم دعوته. وهذا موقفٌ تداوله الكاتبون بما شاءَ

---

(١) وحي القلم ج ٢ ص١٢.

الله أن يُبدعوا فيه. والرافعي من بينهم يقول[1]:

«لو كان رسولُ الله رجلاً ابتعَثْته نفسه لتَمحَّلَ الحيل لسياسته، ولأحدثَ طمعاً من كل مطمع، ولَركدَ مع الحوادث وهبّ، ولما استمر طوال هذه المدة لايتجه وهو فردٌ إلاّ اتجاهَ الإنسانية كلها، كأنّما هو هي.. ولو كان رجل الملك أو رجل السياسة لاستقامَ والتَوى، ولأدركَ ما يبتغي في سنوات قليلة، ولأوجدَ الحوادث يتعلق عليها، ولما أفلتَ ما كان موجوداً منه يتعلق به، ولما انتزع نفسه من محلّه في قومِه، وكان واسطةً فيهم، ولا تَرك عوامل الزمن تُبعده وهي كانت تدنيه».

ثم ختم الرافعي هذه الفقرة بقوله ﷺ بعد أن قال لأبي طالب: يا عمّاه لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم استعبر رسول الله وبكى!!

ختمها الرافعي قائلاً [2]: «يا دُموع النبوة، لقد أَثْبتِّ أنّ النفس العظيمة لن تتعزّى عن شيء منها بشيء من غيرها، كائناً ما كان، لا مِن ذهب الأرض وفضّتها، ولا من ذهب السماء وفضّتها، إذا وُضِعَتْ الشمس في يدٍ والقمر في الأخرى».

هذا موقفٌ استعبر فيه رسول الله ﷺ أمامَ عمّه، ويُشبهه موقف

---

(١) وحي القلم ج ٢ ص٢١.
(٢) وحي القلم ج ٢ ص٢٥.

آخر، لم يبك فيه رسول الله. وإنّما بكت ابنتُه فاطمة حين رأتْ بعض السفهاء يضعُ التراب على رأس والدها، وقد كَتَب عنه المؤرخون ما أقضَّ المضجع أسفاً على هذا التطاول الّذي لم يَشْف فيه أن صاحبه قد قُتِل هالِكاً يومَ بدر! بكتْ فاطمةُ بكاءً علَّله الرافعي أجمل تعليل حين قال[1]:

«كانت تبكي إذ لا تعلم أنّ هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذُ الحياة الأرضيّة الدنيئة في مقابلةِ إنسانها الشاذ المنفرد، هذه القبضةُ من التراب الأرضيّ قبضةٌ سفيهة تُحاول رَدّ الممالك الإسلامية العظيمة أنْ تَنشأ نشأتَها وتعمل عملها في التاريخ [انظر إلى وثبة الخيال لدى الرافعي] فهي في مقدارِها وسخافتِها ومحاولتِها، كعقل قريش حينئذٍ في مقداره وسخافته ومحاولته.

أما النبيُّ ﷺ فقال لابنته: «يا بنيّة لا تبكي، فإنّ الله مانعٌ أباك»! حسبتْ ذلك هواناً وضَيْعة، فأعلمها أن قبضةً من التراب لا تطمر النجم، وأنّ هذه الحَثْوة الترابية لا تُسمّى معركةً أثارتها الخيلُ فجاءتْ بنتيجة، وأنّ ساعةً من الحزن في يوم، لا يُحكَم بها على الزمن كله، وأن هذه النزوة التي تحركت الآن هي حمقُ الغباوة: قوّتُها نهايتها.

«يا بنيّة لا تبكي، فإن الله مانع أباك»! أي ليس للنبي كبرياءٌ ينالها الناس، أو يغضون عنها، فيأتي الدمع مترجماً عن المعنى

---

(١) وحي القلم ج٢ ص٢٥.

الإنساني الناقص، مثبتاً أنه ناقص، إنما هي النبوة: قانونُها غير ما اعتادت النفس من أفراح وأحزان، وهي النبوة تجعل المختار لها غير محدودٍ بجسده الضعيف، بلْ حدودُه الحقائق التي فيها قوتها، فهو في منعة الواقع الذي لابد أن يقع، فلو أمكن أن يُحذف يومٌ من الزمن أو يؤخّر عن وقته، أمكن أن يؤخّر النبي أو يحذف.

«يا بنيّة لا تبكي إن الله مانع أباك»! لا والله ما يقولُ هذه الكلمة إلاّ نبيّ وسع التاريخَ في نفسه الكبيرة، قبل أن يُوجد هذا التاريخ في الدنيا، فكلمتُه هي الإيمان، والثقة إذ يتكلم عن موجود».

الثقةُ هي مفتاح الموقف كله، وقد خَتَم بها الرافعي حديثه. وأولى أن يبدأَ بها، لأنّ سرّ ترفع الرسول على سخافات أعدائه هي ثقته بربّه. ولم يبك أمامَ عمّه أبي طالب لِفقدِ هذه الثقة، لأنّها كانت مصدر قوته حين قال: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، وقد نشأت الثقة عن يقين ثابت بمعونة ربّه مهما تكدّست الأهوال، لأنّ الثقة قد تكونُ في غير محلّها كما ترى عند أغرار يُحاولون اقتحام العقبات دُون رصيد ماديّ، أو إيمانٍ نفسي. وإنّما هو نَزَقٌ تطاول واتّسع حتى صار جنوناً، وهذه الثقة هي التي قادتْ رؤساء الكُفر إلى حتفهم يوم بدر، فهي ثقةٌ طائشةٌ تُضحك وتُسلّي، أما الذي يقع على رأسه الترابُ من عدوّه، فيرى ذلك هيّناً في جَنْب الله الذي اختصه بأثمنِ شيء في الوجود، وهو الرسالة التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، هذا الواثقُ الصابر الآمل هو

صاحبُ النجاح الحقيقي في نهاية المطاف لأن العبرة بالخواتيم لا بالمبادىء، وكم من ضاحكٍ أوّلاً بكى أخيراً!

هذا موقفٌ يستدعي موقفاً آخر لم يفت الرافعي أن يجلوه في معناه البعيد أفصح جلاء، موقفاً مشابهاً لهذا الموقف يوم الطائف، حين أغرى السفلة من ثقيف سفاءَهم وعبيدَهم برسول الله يَسبونه ويصيحون به، حتى ألجؤوه إلى الاحتماء بحائطٍ لأناسٍ من قريش، وهنا هتفت روحه بدعاءٍ رباني لا يزالُ صداه يتردّد في نفس كل من قرأ سيرة رسول الله!! دعاء الواثق المتألم لما يلقى، فيُناجي ربه في ضراعة الخاشع المطمئن: «اللّهم إليك أشكو ضعفَ قوتي، وقلة حيلتي، وهَوَاني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنتَ رب المستضعفين، وأنتَ ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني، أو إلى عدوٍّ ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، مِن أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

أيّ مؤمن يقرأُ هذا الدعاء، ويعلمُ مناسبته، ولا يتفطر أسىً على ما أوقعه هؤلاء السفهاء، بأكرمِ من عرفت الإنسانية من رجال. وأي صبرٍ بالغٍ اعتصم به من يعرف أنّه رسول من عند ربه، ثم يفاجأ بمن يجرون وراءه متربّصين!! لقد ذكرَ هذا الموقف الرافعي، ووقفَ أمامه موقفَ المحلّل الكاشف لأطواءٍ مستترة، عرفها بإلهامه الصادق، ونظره الثابت، ولم يفسح المجال لتصوير

مشاعره الحزينة إزاءَ هذا التهجم البذيء، بل سلّط مجهره التحليلي على أبعاد الحادث لينتهي إلى قوله [1]:

«صغائر الحياة قد أحاطتْ بمجد الحياة، لَتُثبتَ الصغائرُ أنها الصغائر، وليُثبت المجدُ أنه المجد، كان الفريقان هما الفكرتَيْن المتعاديتيْن أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لتأكل وتستمتع وإن أهلكت، والأخرى عِشْ لتعمل وتنفع الناس وإن هلكت.

كانت الأقدار تُبادِي هذا الروح الواسع بذلك الروح الضيق، لينطلق الواسعُ من مكانه، ويستقبل الدنيا التي عليه أن يُنشئها، فأولئك الأشرافُ والسفهاء والعبيدُ إنْ هُم إلا الضّيقُ والركود وذلّ العيش حول السعة الروحية والسمو وطهارة الحياة.

وقف المعنى السماويّ بين معاني الأرض، ولكنّ نور الشمس ينبسط على التراب، فلا يُعفّره التراب، وما هو بنورٍ يضيء أكثر مما هو قوة تعملُ بالعناصر التي من طبيعتها أن تُحوّل، في العناصر التي من شأنها أن تَتَحوّل».

ويلي هذا الحديث في كتاب وحي القلم حديث الرافعي عن الإسراء، وهو حادثٌ نادر في موضوعه، لأنّ الذين كتبوا عن الإسراء من قبل الرافعي قد ذكروا ما روى التاريخ، أما الرافعي فقد فسَّر ما روى التاريخ تفسير الملهم ذي القلب الصافي، لا تفسير صاحب العقل الذي يجولُ بين عبارات الكتب ونُقُول

---

(١) وحي القلم ج٢ ص٢٧.

الإخباريين، لقد افتتح حديثه عن الإسراء بنشيد ملهم فيه روحُ الشعر، ولكنّه أكبر مما يُعطي الشعر، لأنّ به صرخةً مدوية تجلجل في الآذان فلا تتركها حتى تستفزّ القلوب حفيظة وغيظاً على الواقع الإسلامي المعاصر، صرخةً تندكّ معها القمم الشامخة في رؤوس الجبال لو كانت ذات شعور وإحساس.

يقول الرافعي عن حادث الإسراء:

كيف يستوطىء المسلمون العجز، وفي أول دينهم تسخير الطبيعة؟

كيف يَستمهدون الراحة، وفي صدْر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى؟

كيف يركنون إلى الجهل، وأولُ أمرهم آخرُ غايات العلم؟

كيف لا يحملون النور للعالم، ونبيّهم هو الكائن النورانيّ الأعظم؟

ثم مضى في تفسير الآيات من سورة النجم، تفسيراً سأذكره في موضعه [١]، وانتقل إلى حديث الجسم الإنساني حين يصفو ويرق حتى يصير روحانياً يعرج إلى السماء فقال [٢]:

«النبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانِه إنسانٌ آخر بنواميس تجعلُه أقرب إلى الملائكة في روحانيتها، وما ينزلُ إنسانُه الظاهر

---

(١) باب الاستشفاف من القرآن والحديث، وسيلي هذا الفصل.

(٢) وحي القلم ج ٢ ص٣٣.

من الإنسانِ الباطن فيه إلاّ منزلة من يتلقى ممن يُعطي، فذاك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبيّ من الأنبياء، أن يحمل هموم أمّةٍ كاملة لا تضنيه ولا تغيّره ولا تُعجزه.

والقصّةُ ـ قصة الإسراء ـ تُثبتُ أنّ هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلّما سما الإنسان بروحه، ويغلظ ويتكاثف ويتحجّب كلمّا نزل بها، وهي من ناحية النبي ﷺ، قصّةٌ تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة، كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله، ومِنْ ناحية كل مسلم من أتباعه هي كالدرس فيِ أن يكون لقلب المؤمن معراج سماويّ فوق هذه الدنيا، ليشهدَ ببصيرته أنوار الحق، وجمال الخير، وتجسّد الأعمال الإنسانية في صُورها الخالدة، فيكونَ بتدبّره القصّة، كأنمّا يصعد إلى السماء وينزل، فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة، فيدفعُ عن نفسه بذلك تعقّد الأخيلة الذي هو أساس البلاء على الروح».

ولا أختم هذا البحث دونَ أن أشير إلى مغزىً رائع، التفت إليه الرافعي في ذِكْر اسمِ رسول الله ﷺ في الأذان خمس مرات كلّ يوم، هذا الذّكر المتردّد مع شيوعه، قد غفلنا عن مغزاه النفسي حتى ألهم الله كاتب الإسلام الكبير فقال عنه [١]:

(١) وحي القلم ج ٢ ص١١.

«وعجيبٌ أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم، يُنادَى باسمه الشريف ملء الجوّ، ثم حكمة ذكره في كلّ صلاة من الفريضة والسنة والنّافلة، يهمسُ باسمه الكريم ملء النفس!! وهل الحكمة من ذلك إلاّ الفرض عليهم ألا ينقطعُوا من نبيّهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، فيمتدّ الزمن مهما امتد والإسلام كأنّه على أوّله، وكأنّه في يومه لا في دهرٍ بعيد، والمسلمُ كأنّه مع نبيه بين يديه، تبعثه روح الرسالة، ويسطعُ في نفسه إشراق النبوة، فيكونُ دائماً في أمره كالمسلم الأوّل الذي غَيَّر وجه الأرض، ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسانِ هذه البقعة، لا كما نرى اليوم، فإنّ كل أرضٍ إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانُها التاريخي بِجهلِه وخرافاتِه، وما ورث من القدم، فهنا المسلم الفرعونيّ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثني، وفي بلدٍ المسلم المجوسي، وفي جهةٍ المسلم المعطّل... وما يُريد الإسلامُ إلا نفس المسلم الإنساني!! أيها المسلم، لا تنقطعْ عن نبيّك العظيم، وعِشْ فيه أبداً، واجْعلْه مثلكَ الأعلى، وحين تذكره في كل وقت، فكنْ كأنك بيْن يديْه، كنْ دائماً كالمسلم الأوّل، كنْ دائماً ابن المعجزة».

كم تمنيتُ أن يعيش الرافعي زمناً فوق زمنه ليكتب سيرة رسول الله جميعها، كما فَعَل أعيانُ الأدب ممّن يعدّون أنفسهم في دَرجته، يكتبُ السيرة النبوية بهذه الروح العالية التي تسْتشفّ من كل خلجةٍ معانيَ دقيقةً من سبحات صاحب الرسالة الأعظم التي

دُوّنت عنه، فيُظهر لنا الرافعي من روائع مواقفه واعظاً وهادياً، ومجاهداً ومناضلاً، ومشرعاً وموجهاً ما لا يُمكن أن يأتي به في هذا الأوج الأعلى غيرُ صاحب وحي القلم، كم تمنّيتُ لو تم هذا، ولكن لله حكمة يجهلها الإنسان، ويعرفها خالق الإنسان.

* * *

تَاريخُ الأَدَبِ العَرَبي

أرّخ الأستاذ الرافعي للأدب العربي في ثلاثة أجزاء ظهرت تحت عنوان (تاريخ آداب العرب)، وكان المنتظر أن يكثر الحديث عنها بين الدارسين لأنها رائدة في مجالها العلمي، فلم يسبقها كتاب تخصص في هذا الموضوع، لأن كتاب المؤرخ الكبير الأستاذ جورجي زيدان قد صدر قبل كتاب الرافعي بشهر واحد. وكانت ظروف المطبعة التي لا يملكها الرافعي كما يملك صاحب الهلال مطبعته المستعدة، هي التي أخَّرت ظهور الكتاب مسافة ثلاثة أشهر، فكلا المؤرخيْن الشهيريْن لم يعرفْ عن كتاب صاحبه شيئاً، ولم يقفْ حظُّ كتاب الرافعي عند الإهمال فحسب، بل تجاوزه إلى نقدٍ ظالم لا مبرّر له، فكثيرٌ من الذين يضيقون بالرافعي لاتّجاهه المحافظ يحاولُون الغضّ من كتابه الرائع فيما يفترونَ عليه من التخرصات، وهم يقيسونَ كتابه بما ظهر من الكتب في تاريخ الأدب لغيره بعد خمسين عاماً فأكثر. وهذا هو الغبْن بعينه، لأن الكاتب الكبير قد غرس البذرة الأولى في حقل التاريخ الأدبي، فلهُ فضلُ الريادة التي مهّدت الطريق، وأزاحتْ عنه كثيراً من العقبات، بل بدّدت ظلمات لا يقْدر على إزاحتها غير

كاتبٍ باحث من طرازه، فإذا جاء بعدهُ من اهتدى بنوره وواصلَ السير على هداه، فَظُلْمٌ أيّ ظُلْم حينَ يقارنُ السابق باللّاحق، لقد كان جُهد الرافعي في تأريخ الأدب العربي كجهدِ محمود سامي البارودي في بَعْث الشعر المعاصر، إذ أنْقذَهُ من هوّة الركاكة والسطحية، وتلفيق المحسِّنات، وارتفع به إلى مستوى الشعر العباسي حيث عارض الفحول من السابقين، ولم يكدْ يتخلّفُ عنهم في إبداعه الرائع، وكلّ مَن جاء بعده من الشعراء مِن أمثال حافظ وشوقي وأحمد محرم والكاظمي والكاشف قد انتفع به انتفاعاً، اعترفُوا به عن غبطةٍ وأجْلَسوهُ مجلسه القياديّ في ريادة الشعر المعاصر، فإذا جاء ناقدٌ اليوم ليوازنَ بين قصيدةٍ للبارودي وقصيدة للأستاذ عباس محمود العقاد مثلاً، وأخذ ينعَى على البارودي إهماله للوحدة العضوية، أو التصوير الدقيق للتجربة الشعرية، فقد ظلم البارودي أفدح الظلم، كذلك من يجيءُ اليوم ليقول إنّ الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) قد خرج عن حُدود هذا التاريخ إلى بحوثٍ أخرى، ثم يقرنُه بباحثٍ أتى بعده بستين عاماً فهذا هو الغبنُ الجائر، بل هو الغبن المتعمد المقصود؛ لأنّ المسألة من الوضوح بحيث لا تتحمل اللجاج.

وإذا عدم الرافعي من ينصفه في هذا الجيل، فإنّ الذين قرؤوا كتابه حين ظهر للناس من قادة الفكر قد أحلّوهُ المحلّ الأرفع، فالأستاذ أحمد لطفي السيد رئيس تحرير «الجريدة» ومدير الجامعة فيما بعد، قد تحدّث عن الكتاب حديثَ المعجب المحبّذ، وعدّهُ فتحاً جديداً في بابه، والرافعيّ حينئذ كاتبٌ ناشىءٌ لم يتردّد صداه

على النّحو الذي عُرف فيما بعد، فهو إذن لم يندفعْ إلى مجاملةٍ ما حين اعترف بالحق لصاحبه. وأحمد زكي شيخ العروبة أشاد بالكتاب في مجلس علميّ بإدارة الجامعة المصرية، وقال إنّه فتح جديد. أما الأمير شكيب أرسلان فقد أفْرَد له مقالاً رنّاناً بالمؤيد فيه: (إنه لو جاز أن يُعكف على كتابٍ في نواشىء الأسحار بعدَ كتاب الله لكان كتاب تاريخ الأدب للرافعي). وهؤلاء الثلاثة الكبارُ يعرفون مقدار الحاجة الماسة لهذا الكتاب حينَ أُلِّف، ويروْنه ابتكاراً غير مسبوق، وشهاداتهم الخالصة فوق الاتهام.

على أن الذين يضيقون بالكتاب الآن، يضيقونَ به لأسلوبه البياني، فالرافعي في كتابته جاحظيٌّ في أسلوبه، يهتم بالديباجة العربية اهتماماً يرتفع بقارئه، ولا يُحاول أن يهبط إلى مستوى الأسلوب الصحافي العام، وقد يكونُ الرافعي قد أوْغَل في هذا الاتجاه إيغالاً جعل بعض الصفحات تحتاجُ إلى اتئادٍ في المراجعة. كما كَتَب له مقدمةً يضيق بها مَن لم يألفْ كُتب التراث، ويقرأْ آثارَ الجاحظ وابن المقفع وأبي حيان من أئمةِ البيان، فهو يقول مثلاً:

«إن هذا التاريخ علم قد كثرت عليه الأيدي، واضطربتْ فيه الأقلام، واستبقتْ إليه العزائم حتى عثرتْ بها عجلةُ الرأي ولجاجةُ الأقدام، وقد أخصب في الأوهام حتى نفشت في واديه كلّ جرباء، وامتزج أمره بالأحلام، فلم يُمسِ كُتّابه عُلماء، حتى أصبح قراؤه أدباء، على أنهم تجاذبوه انتهاباً، فجاء واهياً في وثيقته، وتناكروه اهتياباً فخرج ضعيف الشّبه بين ظاهره وحقيقته،

وما منهم إلا من يحسب أنّه أمال بالقلم يده، فمضى مُرخى العنان مُخلّى له عن طريق السبق إلى الرهان، وإنّ للقلم لو أطلقوه لَنفْرةً أيسر خطبها الجماح، ولكنّه مذلّل، والطائر أهون ما يَطْرِد إذا كان مهيض الجناح»[1].

فأسلوب الرافعي في مقدمات الفصول ينحُو هذا النحو، وهو منحىً يألفُه ذوو الأذواق الأدبيّة من نابهي العصر، ولكنّ الذين يكتبون كما يتحدثون، يضيقون بأسلوب الرافعي، كما يضيقون بأساليب البلغاء من أمثال ابن المقفع وأبي حيان!! وقد ظل الرافعي على مذهبه البياني في سائر ما كتب، ولكنه تخفّف قليلاً حين اجتذبتْه الصحافة الأدبيّة إلى ميدانها، فلم يتركْ جمال الصياغة، وروعة التحليق الفكري. ولكنّه حاول أن يقرّب معانيه قدر المستطاع، ولا يزالُ للكاتب الكبير عشّاقُه الأُصلاءُ ممن يعرفونَ روعة البيان الأدبي، بل فيهم مَنْ يرى الرافعي فَرْداً لا نظير له في ارتقائه الأدبي، وأنا مع هؤلاء صريحاً دون أن أجمجم، وأذكُر أنّ الشاعر الكبير خليل مطران قد استَنكر دَعْوى مَن يلُومون الشاعر الكبير محمد عبد المطلب على جزالته البيانية فقال في الرد عليهم[2]:

ربّ مَمْرورٍ من الجهل نعى	صحة القول عليه فنَعَبْ
خَال إغراباً وما الإغراب في	ذلك اللفظ الأصيل المنتخب

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ١ ص١٢ ط٤.

(٢) ديوان خليل مطران جـ ٤ ص١٠١.

إنمـا الإغـراب فيـه أنـه عـربـي بيـن أهليـه اغتـرب
أخـذ الـورق مـن منجمـه هـل عليـه حَـرَجْ يـا للعجـب
ذلك البعث هو الفَتْح الذي ليـس يعْـدوه لـذي لـبّ أرب

والكتابُ بعدُ مرجعٌ وافٍ من أهم المراجع العربية المعاصرة، ولتأليفه قصةٌ دعت إلى كتابته، حيث لم يكن في خُطَّة الرافعي أن يؤلف كتاباً في تاريخ الأدب العربي، ولكن دافعاً حثيثاً قد جَذَبه إلى هذا الميدان، فألّف سفره الكبير.

فحين أُنشئت الجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٠٧ أخَذ الرافعي الأديب الشاب يتطلَع إلى ما يُدرس بها من قضايا الأدب العربي، ولكنّه في مَدى سنتين لم يجدْ غير اتجاهيْن، اتجاهٌ استشراقي يُعنى بمسائل العلوم عند العرب كتاريخ الفلك والطبّ والكيمياء، ويقومُ بتدريسه نفرٌ من المستشرقين أُوتُوا الإحاطة بتاريخ هذه العلوم، إذ قرؤوا من المطبوعات والمخطوطات ما أهّلهم للحديث في هذه المسائل. واتجاهٌ آخر يقوم به أساتذةٌ من المصريين يحومُ حول الأدب ولا يقربُه، فهم يتحدّثون عن القبائل العربيـة ولهجاتهـا، ويتحـدّثون عن النحت والإعـلال والإتباع، فإذا تحدثوا عن أديبٍ أو شاعرٍ فحديثٌ لا يُشبع غلة، وإنما هو مجردُ جمع لا يرتبطُ بخطة. وللرافعي طُموحٌ أن يكون بين أساتذة الجامعة، ولكنّ السبيل لا تُهيىء لشاب مثله أن يكون عالماً يخوضُ لجج البحوث الجامعيّة، وإذا كان شاعراً ينظم القصائد، وكاتباً يتحدّث عن فقراتٍ قليلة خاصّة بالشعر المعاصر فذلك كله لا يجعله أستاذاً جامعياً. ولكنّه لنْ يسكت عن آمالٍ

تشتجرُ في نفسه، فكتب مقالاً بالجريدة يتساءل عن موقفِ الجامعة من الأدب العربي، وكيف أهملتْ تدريسه على الوجه المنشود، وأوضح أنّه لم يرَ في الاتجاهيْن اللّذين أشرتُ إليهما ما يُؤدي رسالةً ما نحو الأدب العربي وتاريخه، ثم إنّ دروس هذا الأدب تُلْقى في الجامعة تحت عنوان (آداب اللّغة العربية) فما المراد بها؟ يقول الرافعي في مقاله [1]:

«لا أعلمُ ماذا يُراد بقولهم (آداب اللّغة العربية) إلا أن يكون ذلك إحاطةَ الأديب بفُصَحِ اللّغة وتمكنه من استعمالها في تنزيل الكلام، ومعرفة الإعراب والأبنية والتصاريف، وبُعد النظر في معاني البلاغة وأساليب الفصاحة والاقتدار عليهما نظماً ونثراً، ثم معرفة الرّجال ومراتبهم وطبقات كلامهم وآثارهم، واختلاف العصور بهم، مع البصر بالنقد ومواضع المؤاخذة، إلى الطبع السمح، والفطنة المواتية. . . ثمّ الإحاطة بذلك كلّه إحاطةً تاريخية فلسفية، وتدبّره على اختلاف وجوهه وأسبابه. . وبالجملة يُنسب كل ذي علمٍ إلى علمه، إلاّ الأديب فلا عِلْم له إلا مجموعُ تلك العلوم وإحسانُ المشاركة فيها جميعاً».

وواضحٌ أن لتاريخ الأدب العربي بالجامعة معنىً خاصاً في ذهن الرافعي، جعل يفتقدُه فيما يقرأُ ويسمع فلا يجده. فكتب مقاله الّذي اقتطفنا بعض عبارته ليُنبِّه القائمين على الجامعة إلى أنّ

---

(١) تحت راية القرآن للرافعي ص٧٢ ط٤.

الأدب العربي بها في حاجة إلى منهج، وإلى كتابٍ يُطبّق هذا المنهج، وإلى أستاذٍ يشرح الكتاب. وكان لكلمة الرافعي صداها القويّ لدى الجامعة فقد أعْلنتْ عن جائزة ماليّة قدرُها مئة جنيه تُمنح لمنْ يؤلف كتاباً في تاريخ الأدب العربي، وحَدّدَتْ مدّةً لإنجاز التأليف قدرُها سبعة أشهر، وما قرأ الرافعي الإعلان حتى أحسّ أنّه مطالبٌ بالتنفيذ الفوري، ولكنّه كتب مقالاً يعترضُ على قيمة الجائزة وعلى مُدّة التأليف، وما كانت قيمةُ الجائزة مما يشغُل الرافعي بالدرجة الأولى، بل وما كانت المدة القصيرة أيضاً هي مما يشغل بال الرافعي في الدرجة الأولى، إنّما الذي كان يشغله كل الشغل، هو ما عرضه في مقال تالٍ لمقاله الأول قال فيه[1]: «إنّهم على الأغلب سيعهدُون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه، فيكونُ الحاضر لديهم كالغائب عنهم، ولا فضل لدارهم إلا أنّها تصدر التلقين. فإذا طُبع الكتاب صارت كُلّ مكتبةٍ في حكمِ الجامعة، لأنّ العلم هو الكتاب لا الذي يلقيه، وإلاّ فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سَيَعْهدون إليه بالتدريس؟ وهل يقتصرونَ على أنّ من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه، دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته، حتى لا يزيد على أن يكون هُو بين تلامذته التلميذ الكبير. . . ؟».

هذا الهجوم من الرافعي على الأساتذة، وفيهم ذَوُو القدر الجهير من أمثال حفني ناصف ومحمد المهدي وأحمد زكي لم

---

(١) تحت راية القرآن للرافعي ص٧٩ ط٤.

يكن يدري مغبّته حين كتب نقده المهاجم. ولعّل ذلك ما حدا به أن يتقهْقر عن تقديم الكتاب بعد طبْعه إلى الجامعة مع شيءٍ آخر هو أن كتاب الأستاذ جورجي زيدان قد ظهر، وستنعقد موازنةٌ بين الكتابيْن لا يرى الرافعي أن تكون، وكانت الجامعة قد استجابتْ لكلمته فجعلتْ مدةَ التأليف سنتيْن كاملتيْن ورفعت الجائزة إلى مئتين، ومع ذلك فقد آثر الرافعي أن ينسحب، وقد قيل في تعليل ذلك، إنه قد رَفض أن يجعل نتاجه العلمي بين يدي قومٍ لا يراهم أفضل منه، وهمْ أصحاب الرأي في الحكم على أثَره، وهذا ما أستبعدُه، لأنّ الرافعي كان يعلمُ منذ بدأَ يخطّ الحرف الأوّل من كتابه أنّه سيُعرض على لجنةٍ من الأساتذة الجامعيين، وقد كتب مؤلَّفهُ مُتسابقاً يتحفز للجائزة، وهُو في مستقبل حياته، وبعد أن صار عَلَماً من أعلام الأدب لم يأْنَفْ أن يدخل في جوائز أدبيّة في الشعر والمقال الاجتماعي والقصة وغيرها، وذلك مدوّنٌ في تاريخ حياته، فكيفَ يُجيز لنفسه أستاذاً كبيراً ما يأْنَفُ منهُ شاباً يتطلّع إلى المجد؟

لقد خرجَ الكتاب إلى حيّز الوجود، ولاقى نصيبه من الترحيب والنقد معاً، وقد جاءَ التمهيدُ الأول في فَصْلين يتحدث الفصل الأوّل عن الأدب وتاريخ إطلاق هذا اللفظ عليه. وعن المؤدّبين والمعلمين وعن علوم الأدب وكتُبه، ويتحدث الفصل الثاني عن العرب وأقسام العربية، والشعوب السامية وطبقات العرب من بائدةٍ وقحطانيةٍ وإسماعيليّة وأَصْل كلمة العرب، ولا اعتراض على هذا التمهيد، لأنّه لازمٌ لما سيجيء بعده، وقد رأينا من ألّفوا في

تاريخ الأدب من بعده كالأستاذ أحمد السكندري وأحمد حسن الزيات والأستاذ محمد هاشم عطيّة يلمّون بما قال على نحو مقارب، أما ما بعد التمهيد وهو البابُ الأول فقد امتدّ به الحديث إلى فقهِ اللّغة لا إلى الأدب مما يدلّ على أن مفهوم الكاتب لهذا المصطلح لم يتحدّد على الوجه الدقيق، وأقول امتدّ لأنّه شمل ما بين صفحة ٥٥ إلى ص ٢٦٩ من الطبعة الرابعة ذات الحرف الدقيق، بمعنى أنّه كان من الممكن أن يستقلّ هذا الباب بكتابٍ خاص في فقه اللّغة دون أن يُقحم إقحاماً على قضايا الأدب الخالص، وإلاّ فما دخلُ أصول اللّغات السامية، وحديث النبط والتدمريّين والآراميّين، ومناطق الحروف، ومواضع الإمالة، والنحت والقلب والإبدال، وما يُعرف بالكشكشة والشّنشنة والعنعنة والتلتلة وما لا ينتهي من هذه الأسماء الخاصة بالفقه اللغوي!! ثم ما حديث الوضع والارتجال والاشتقاق والمجاز والترادف والمشترك والمشجّر والمسلسل والدخيل والأضداد، وأسرار النظام اللغوي، ونظام الألفاظ في معانيها، وشيوع اللّغة العامية وفساد العربية ولهجات العامية في الأندلس والجزائر وغيرها، ما دَخلُ ذلك كلّه في تاريخ الأدب؟!

يُخيل إليَّ أنّ الأستاذ الرافعي قد اطّلع على مذكرات الأستاذ حفني ناصف الخاصة بدرُوسه في الجامعة فرآها تَنُمّ عن أمثال هذه البحوث، ولكنّ حفني ناصيف لم يكنْ يُدرّس تاريخَ الأدب، بل كانتْ دروسُه تشملُ كلّ نواحي اللّغة العربية، وقد يكونُ له عذرهُ إذا يتبسّط في مباحث اللّغة الخاصة بفقهها، وقد عاب الرافعي

على أساتذة الجامعة أنّهم لا يهدفُون إلى الصميم فيما يقولون؟ فماذا دفعه إلى هذا الاتجاه؟ قد أَظْلِمُ الرافعي إذا عَددتُ ذلك شذوذاً بالنسبة لعصره، فأمر الأدب لا يزالُ مختلطاً، ولكنّي أقرأ كتاب جورجي زيدان الذي زَامَنَهُ في التأليف. فأجدهُ بمنأًى عن هذه البحوث حيثُ اطّردت عناوين الجزء الأول كما يلي: (١) آداب اللغة العربية قبل الإسلام (٢) مميزات اللغة العربية (٣) الشعر في العصر الجاهلي (٤) نهضة الشعر في هذا العصر وأسبابها (٥) خصائص الشعر الجاهلي (٦) أشهر شعراء الجاهلية (٧) الشعراء الأمراء (٨) الشعراء الفرسان (٩) الشعراء الحكماء (١٠) الشعراء العشاق (١١) الشعراء الصعاليك (١٢) النساء الشواعر (١٣) الشعراء الوصافون للخيل. ثم ألمّ بمعارف العرب الجاهليّين في الطب والبيطرة والفلك وما وراء الطبيعة، وفي باب مميّزات اللّغة العربية تطرّق للقول عن النثر والسجع والأمثال ودقة التعبير، وتكلّم عن الترادف والتضاد في نصف صفحة. لا أقولُ إنّ كتاب جورجي زيدان كان مثالاً يحتذى، ولكن أقولُ إنّ معنى فقه اللغة قد اختلط بمدلول الأدب في ذهن الرافعي الشاب.

أما الأبوابُ التالية فهي في صميم تاريخ الأدب العربي، وبها نال الكتاب تقديره الحافل إذ تحدّث عن الرواية والرواة بادئاً بتوسع العرب في الحفظ مُقارنين باليونان. ومسجّلاً تفوّق الجاهليين في الرواية الشعرية، إذ كان الشاعر لسانَ قومه ومدوّن مفاخرهم فهم أحرصُ الناس على ترديد ما يقول، أما ما كتبه الرافعي عن الرواية بعد الإسلام فمن أنفس ما كُتب عن الرواية في القديم

والحديث، وأكثرُ من جاء بعده ممن خاضوا في تاريخ الرواية الشعرية عيالٌ على ما كتب. وقد كان تاريخ الحديث في تدوينه المتسلسل كالمجهول، لأنّ الكتب القديمة تجمعُ عدة روايات تتناقضُ في كثير منها، وتحتاجُ إلى فاحصٍ متمرس، ففتح الله على الرافعي بما كان مدداً لمن تلاه. وإذا كان الإسنادُ في الحديث مما اشتهر، فإن الإسناد في الأدب كان يتطلب معالجةً كاشفة بدأها المؤلف بالفرق الواضح ما بين الإسناد في رواية الحديث والإسناد في رواية الأدب. وعالج مشكلة التصحيف علاجاً دقيقاً قبل أن تُنشر الكُتب الخاصة به فيما بعد.

وجاءتْ فصولُ الكتاب القيّمة تَتسلْسَل في نَسقها المنطقيّ متناولةً الحديث الموفق عن إسناد الكتب والحفظ في الإسلام. ووظائف الحفاظ في اللّغة، وطُرق الأخذ والتحمّل ملمّة بما يجب أن يعرف عن السماع والإجازة والمُكاتبة والوجادة ثم عن الرحلة إلى البادية، وفصحاء الأعراب والوضع والصنعة في الرواية، وشعر الشواهد، والاتساع في الرواية ونماذج من جهود الرواة، واختلاف الروايات والقُصّاص، وطبقات الرواة والنسّابين والإخباريين، ورُواة الشعر واللّغة، وأئمة الرواة في الكوفة والبصرة، وكل ما ذكره الأستاذ جديدٌ من ناحية الجمع والتنسيق أولاً، ومِنْ ناحية ما اهتدى إليه من الآراء الخصبة التي أيّدها أشد معارضيه ضراوةً ونقلوها عنه في كُتبهم بالتصريح تارة، وبالتلويح تارات.

وأظهر ما اهتدى إليه الرافعي في حديث الرواية موقفُه من الشعر المنتحل، أو ما عُرف فيما بعدُ بقضية الانتحال، حيث

تحدّث عن الوضع في الشعر حديث المحلِّل المعلّل، وأَيَّدَ ابن سلام الجمحي في ما ذكرهُ عن الانتحال ودواعيه، وزادَ عليه بما قدّم من أسباب، وقد جاء الدكتور طه حسين فيما بعد فاتّسَعَ في دَعْوى الانتحال اتِّساعاً لم يُسعفه البرهان على اتّساعها، ولو اقتصر على ما ألمّ به الرافعي لوجد المؤيّد المحبّذ، ولكنّه كاد يجعل الشعر الجاهلي كلَّه منحولاً، إلاّ في قلةٍ قليلة لا ندري لماذا أبقى عليها مع أنّ أقوى أدلته في الانتحال المتسع لو صحّتْ لقضت على هذه البقيّة، وقد تحدّث الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي عن جُهد الرافعي في تحقيق الوضع في الشعر والقصة فقال [١]:

«وهذا الفنّ الأدبي تناول الحياة العربية والإسلامية كلّها من ناحية خياليّة لم يقدِّرْها الذين درسوا تاريخ الآداب العربية قدرَها، لا أكاد أستثْني منهم إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، فهو قد فَطِن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في نحْل الشعر وإضافته للقدماء، كما فطن لأشياءٍ أخرى قيّمة وأحاط بها إحاطة حسنةً في الجزء الأول من كتابه (تاريخ آداب العرب)».

وقد عقّب الأستاذ الرافعي على حديث الدكتور طه بقوله: «نشكرُ له ما تفضّل به من الثناء علينا في كتابه واستثناءه إيّانا في بعض المعاني من كلّ مَن درسوا تاريخ الآداب العربية، ونحنُ دون هذا في نفسنا، ودونَ ما أبلغَنا إياه مع بعض أصدقائنا، وإن كنّا نعرف من صيغ الأستاذ الفاضل أنّه لا يُنصفنا مرّة إلا بعد أن يظلمنا

---

(١) الأدب الجاهلي ص ١٤٨ ط١٠.

مراراً، وأنه اتخذ الوقيعة فينا مذهباً عُرف به وغلب عليه، حتى لا يكاد يقول أنصار القديم أو يكتب أنصار القديم أو يذمّ أنصار القديم إلا توجّه ذلك عنده إلينا خالصاً من دون المؤمنين. . .»[1].

ومن أسبق ما جاء به الرافعي في تاريخ الأدب أنّه أنكر ما عُرف من التاريخ الأدبي وفق العصور السياسية، وهو اتجاهٌ نقله الأستاذ حسن توفيق العدل عن مستشرقي الألمان. ووضع على أساسه مذكرتَه في تاريخ الأدب التي قرّرها على تلاميذ مدرسة دار العلوم حين كان أستاذاً بها. ولم يمْهلْه القدر حتى يتمّ رسالته التي يرشحه لها نبوغه المعترف به ففارقَ دنياه في سنّ باكرة، هذه المذكرة التي قسّمت الأدب إلى عصور تلتئم ارتفاعاً وهبوطاً مع العصور السياسية، قد ساعدت على الإلمام العام بأظهر وُجوه الأدب العربي، وأشهر رجاله، وقدّمتْ أمثلةً صالحة من الشواهد، وإذا كان نفعها مشكوكاً فيه في الدراسات بالكليات الجامعية والمدارس العالية لِتَطَلُّع الطلاب إلى أفق أوسع فإن نفعها قد تحقّق في مناهج المدرسة الثانوية، حيث استطاع الشُّداةُ من الطلاب أن يُلموا بشذور من آثار السابقين. وقد ظلّ كتاب الوسيط يُطبع خمسة وعشرين عاماً ليُقدِّم لطلاب المدارس الأدب العربي مقسماً على عصوره. فعرف الناشىء شعراء العرب وخطباءهم وكتّابهم على وجهٍ يدفع الطالب المتطلع إلى المزيد. أمّا الدراسة العليا فتقسيم الأدب على نسق العصور بها هو ما كان موضع اعتراض الأستاذ

---

(١) تحت راية القرآن ص ١٣١ ط رابعة.

الرافعي حيث قال[1]: «إن تلك العصور إذا صلحتْ أن تكون أجزاءً للحضارة العربية التي هي مجموعة الصُّوَر الزمنية لضروب الاجتماع وأشكاله؛ فلا تصلح أن تكون أبواباً لتاريخ آداب اللغة التي بلغتْ بالقرآن الكريم مبلغ الإعجاز على الدهر، ولم تكدْ تطوي عصرها الأول حتى كان ـ القرآن ـ أولُ سطر كَتَبَ لها في صفحة العصر الثاني شهادة الخلود وما بعد أسباب الخلود من كمال».

ثم قال الرافعي[2]: «فتاريخُ الآداب في كلّ أمةٍ ينبغي أن يكون مفصّلاً على حوادثِها الأدبية، لأنها مفاصلُ عصوره المعنوية. والشأنُ في هذه الحوادث التي يُقسّم عليها التاريخ أن يكون مما يُحدث تغييراً معقولاً في شكله وأن تُلحق بمادته تنوّعاً خاصاً بنوع كل حادثة منها؛ فإنْ لم تكنْ كذلك لم يكنْ التاريخ مُتجدّداً إلا باعتباره الزّمني فقط، وهذا ليس بشيء».

والحقّ أن نظرية الرافعي في خطأ التقسيم وفق العصور تُعتبر نَظرةً سابقةً لزمنها، فقد أَثْبَتَ الذين كتبوا التاريخ الأدبيّ على حسب الوجهة الرافعية أنّهم أحسنُوا التحليل والتشريح في ضَوْء التماسك الفكري الذي ينتظم النظريّة الأدبية انتظاماً يشهد تسلسُلها المنطقي وفق توالي العصور، ولكنّ ذلك لا يَمْنعُ أنْ نقول: إن بعض الذين كتبوا عن عصرٍ واحد في كتابٍ مستقل قَدْ أصابوا

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ١ ص١٨.
(٢) تاريخ آداب العرب جـ١ ص١٩.

كثيراً من التوفيق؛ لأنّهم اتّسعوا بالتحليل الأدبي إلى أقصى مداه، وهذا هو الفارق بين وجود كتابٍ مُسْتَقِلٍّ في عصر واحد، وبين تَكَدّس العصور في كتاب واحد، والمسألة في صميمها ترجعُ إلى قدرة الباحث ومعدنه الفكري، فقد يكونُ الباحث متواضع التفكير، ويدفع نفسه إلى السبح في بحرٍ لا يُجيد العوم فيه، فيلاقي الغرق المحتوم سواءٌ كتب التاريخ وفق العصور أو وِفْق الموضوع الواحد المتنقّل في كل عصر. . والأمثلة لدينا واضحةٌ في حركة التأليف المعاصر، ولا نُريد أن نخصَّ أحداً بالنقد الجريء.

أمّا ما نخالف فيه الرافعي مخالفةً صريحة فهو اتجاهه إلى عدم التقيّد بذكر المصادر التي رجع إليها في بحثه المستفيض، وكأنّه أحسّ اعتراضاً من القراء على هذا الإهمال فقال[1]: «اصطلح بعض المتأخرين على أن يذكروا في مؤلفاتهم أسماء الكتب التي ينقلون عنها، ويُعيّنون مواضع النقل ليخرجوا من تَبِعَةِ ما ينقلون إذا كان خطأً، فيلقون ذلك على الكتاب زيادةً في حسنات مؤلفه. . . ! وكنّا نستهجن أن نثبتَ شيئاً لا نمحّص الرأي فيه ولا نثق بصحّته بعد تقدّم النظر دُون أن ننبّه عليه إذا مسّت الضرورة إلى إثباته، فقدْ أهملنا ذكر الكُتب لأن ذلك تطويلٌ من غير طائل، ولأنّنا نبسط كلّ معنى نأخذُ فيه، ولم نُعيّن مواضع ما ننقله لأنّ علينا تبعته».

وهذا كلامٌ يوضّح سلامة نية الرافعي لأنّه يعتقد أنّ كل باحث

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ١ ص٢٧ حاشية «١».

سيبسط المعنى بسطاً شافياً بحيثُ يكون الأصل المقتبس يسراً، كما أنَّه يتحمل تبعة الرواية، فلا داعي إلى ذكر مصدرها، ولكنَّ الصواب بعد هذا كلّه أن نشير إلى المرجع، ليعلم القارىء الدارس منزلة هذا المرجع ومنزلة مؤلفه أمانةً أو خيانةً، وليرجع إليه متعقباً نقل المؤلف فقد يكونُ مُغْفلاً لعباراتٍ يترتّب على إثباتها قلبُ المعنى، دون أن يكون هذا الإغفال مقصوداً، وكلّ ذلك مما يحتُم عليه أن يهدي القارىء إلى مصدره. وليس الرافعي بواحدٍ في هذا الاتجاه. فلدينا من الباحثين من نهج نهجه، فالعقادُ في العبقريات لا يكادُ يشير إلى أي مرجع، وهذا خطرٌ في ذاته، لأنّه يعتمد على رواية من عدّة روايات ويُقيم عليها حكمه التاريخي، ويغفلُ ما يُعارضها من الروايات الأخرى، وذكر المرجع هُنا مهمّ جداً ليرجع الدارس إلى هذه الرواية المختارة، وطبيعيٌّ أن يجد ما يخالفها مما أهمله العقاد. فيكون له حكمٌ آخر، ولستُ أنتقصُ منحى العقاد وأرْميه بالغرض، ولكنّي أقول إن اعتزازه بفكره الذي يراه صادقاً كلّ الصدق قد دفعه إلى هذا الإهمال. وكذلك صنع الدكتور طه حسين في كتاب (الفتنة الكبرى) حيثُ أغفل رواياتٍ كان ذكرها ممّا يعين على صحة الحكم، ولم يذكرْ المصادر في كلّ ما رجع إليه بل في بحوثٍ دون بحوث، أمّا الدكتور أحمد أمين فقد التزم ذكر المراجع الهامة في (ضحى الإسلام) و(فجر الإسلام)، ثم تحلّل من ذلك في كتاب (ظهر الإسلام)[١] وقال في

---

(١) ظهر الإسلام، ج٢، المقدمة، الطبعة الثالثة.

مقدمة الجزء الثاني من الظهر: «ولعلّ القارىء يأخذُ علينا أنّنا لم نستخدم النصوص كما استخدمناها في فجر الإسلام وفي ضحاه. فقد اعتدْنا أن ننقل النصّ بحروفه، ثم نستنتج منه ما أمكننا الاستنتاج، أمّا في هذا الجزء فقد هضمنا ما قرأناه، ثم حكينا ما خلص لنا من غير ذكر نص، إلاّ في القليل النادر، واكتفينا بذكر المراجع عقب كل باب». وموضعُ الخطر أنّ ذكر المراجع بصورةٍ عامة عقب كل باب، يُضلّ ولا يهدي، فالقارىء إذا شكّ في قضيةٍ لايجد موضعها الصريح في الهامش، بلْ يعمد إلى المراجع ليراجعها صفحة صفحة، ليهتدي إلى التأكد مما يريد، وهذا متعسّر، إنْ لم يكن متعذراً، وقد يرجعُ إلى ما ذكر من المراجع ثم لا يجد شيئاً!! وإذنْ فالحرصُ على تسجيل المراجع في موضعها الهامشيّ من البحث واجبٌ مفروضٌ لا سبيل إلى التخلّي عنه إذا أراد الباحث أن يسلك سبيل التدقيق.

فإذا تركنا الجزء الأول من تاريخ الآداب إلى الجزء الثاني فإننا نجدُه خاصّاً بإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، إذ أفاض الرافعي في تحليل البيان القرآني والإبداع النبوي بما فتح الله عليه به من الإلهام المؤمن، وصنيعُه هذا يؤكّد اهتمامه بالنص العربي الأول للبيان الرفيع في المكتبة العربية، لأن أكثر مؤرخي الأدب من قَبله ومن بعده يُجملون الحديث عن القرآن والحديث في صفحاتٍ مبتورة، وكأنهما ليسا أكبر نتاج حافل من العربية. وقد يجيء الحديث عن شاعرٍ كجرير والأخطل في حيّزٍ متّسع أكثر مما ظفر به هذان الأثران الجهيران، فأراد الرافعي بإفرادهما في جزءٍ مستقل

أن يُتنبّه على خطرهما القوي في الفكر الإسلامي بعامة، وفي البيان العربي بخاصة، وقد نشر الجزء الثاني أولاً تحت عنوان (تاريخ آداب العرب) ثم بدا له بعد سبعة عشر عاماً من ظهور الجزء الثاني، أن يُفرد الحديث عن القرآن والسنة في كتاب مستقل تحت عنوان (إعجاز القرآن والبلاغة العربية) فلاقى الكتاب في عنوانه الجديد تجاوباً بعيداً من القراء حيث تعدّدت طبعاته، وقال عنه الزعيم المشهور سعد زغلول: «إنّه تنزيلٌ من التنزيل أو قبسٌ من الذكر الحكيم»، وإذا كان كتاب الإعجاز بهذه الأهمية القصوى فسأفرد له فصلاً خاصاً يليق بموضوعه الجليل.

بقي أن أتحدث عن الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، وهو جزءٌ مظلوم لا ندري كيف نحكم عليه، لأن الرافعي رحمه الله وضَع خُطته في الجزء الأول، ثم انتقل إلى رحمة الله دون أن يظهر إلى حيّز الوجود، وبحث تلميذه الوفيّ الأستاذ محمد سعيد العريان في مكتبة الرافعي بعد وفاته فوجد ملفاً كبيراً كتبَ عليه (الجزء الثالث)، ولكنّه حين تصفحه لم يجدْ منه غيرَ عدة فصول لا تكمل المنهج الّذي حدّده الرافعي في مقدمة الجزء الأوّل؟ فأين ذهب ما بقي؟ هل كتبَه الرافعي وضاع؟ هذا احتمالٌ بعيد، لأنّ الذي جمع فصول الكتاب في حيّز واحد لا يجمعُ فصولاً ويتركُ فصولاً!! إنّما المعقول أن يجمع كلّ ما كتب ما دام هو الذي جمع وأغلق الملفّ على وضعه المستقر، ولكنَّ النقص جاء من طريقة التأليف، حيثُ لا يلتزم الباحث أن يكتب الموضوعات وفق تسلسلها الثابت في ذهنه، بل يكتب فيها ما تتوافر مراجعه لديه.

وأذكر أن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في كتابه (حياة قلم) قد أشار إلى طريقته في التأليف، فقال ما ملخّصه إنّه يبدأ فيحدّد غرض الكتاب، ويكتبُ فهرساً خاصاً بالأبواب، ويحضِّرُ ملفّاتٍ بعدد الفهارس، ثم يكتب ما يتاحُ الحديث عنه لتوفر مصادره سواءٌ كان على اطّراد الفهارس أو على غير اطّراده، فإذا انتهى من موضوع انتقل إلى سواه مما يتهيّأ مصادره، تاركاً ما بعدت مصادره حتى يجيء وقتها فيفرغ للبحث عنها، ويكتبها؛ هذا ما ذكره الأستاذ العقاد، وما أظنّ الأستاذ الرافعي قد خالف هذا الاتجاه، لأنّه الأمر الفطري الذي يندفعُ إليه المؤلف تلقائياً، حيث يبدأ بالأسهل فالسهل فالصعب فالأصعب، وقد جرّبت ذلك في بعض ما ألّفت.

وإذنْ فالأبواب الناقصة لم تُكتب، ثم لم يجد الرافعي فرصة من أعمالِه الأدبية الأخرى كي يعكِف على إتمامها، لأنّه كان مشغولاً بالكتابة الوجدانية في سلسلته المعروفة، أو بالمقالة الصحفية نقداً، وهجوماً ودفاعاً، أو بالقصة الدينية التي احتلت أكرم مكان من نتاجه الرفيع، وقد رجعت إلى مقدمة الجزء الأول فوجدته حدد موضوعات الجزء الثالث كمايلي: (١) تاريخ الخطابة والأمثال جاهلية وإسلاماً (٢) تاريخ الشعر العربي ومذاهبه والفنون المستحدثة (٣) في حقيقة القصائد والمعلّقات، ودرس شعرائها (٤) في أطوار الأدب العربي وتقلُّب العصور به وتاريخ أدب الأندلس إلى سقوطها ومصرع العربية بها (٦) تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب (٧) حركة العقل العربي وتاريخ

العلوم وأصناف الآداب جاهلية وإسلاما (٨) في التأليف وتاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية (٩) في الصناعات اللفظية التي أُولع بها المتأخرون في النظم والنثر، وتاريخ أنواعها (١٠) في الطبقات وشيء من الموازنات.

هذا ما حَدّده المؤلف في مقدمة الجزء الأول خاصّاً بالجزء الثالث، وبمراجعة ما عثر عليه الأستاذ محمد سعيد العريان وقدَّمه للطبع فِعْلاً نَجد أنّه لم يتحدث عن تاريخ الخطابة والأمثال جاهلية وإسلاماً، ولا أدري كيف أغفله الرافعي لأنّ مراجعه ميسورةٌ، ولا يحتاج إلى جهد كبير، كَمّاً أو كيفاً، وقد كتب الكاتبون في هذا الموضوع بعد الرافعي فَوَفَّوا المقام في صفحات لا تعدو في حجمها العددي باباً من الأبواب التي كتبها الرافعي في الجزء الثالث. كذلك لم يتحدَّث عن تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب وما يجري هذا المجرى، وأنا أكاد أجزم بأن الرافعي لم يكْتب هذا الباب، لأنه يحتاج إلى مجلد ذي أجزاء، فتاريخ الكتابة أمويّة وعباسيّةً وأندلسيّةً وفاطمية ومملوكيةً حتى هذا العصر لا يمكن أن يجيء في فصل واحد، وكأن الرافعي لَحَظ ذلك فتركه حتى يتهيأ الوقتُ لأدائه على وجهه الصحيح. وكذلك نقول فيما تركه الرافعي من الحديث عن حركة العقل العربي وتاريخ العلوم وأصناف الآداب جاهلية وإسلاماً، لأنّ حركة العقل العربي وتاريخ العلوم من شرعيّة ولسانية وتجريبيّة وتاريخية وفلسفية واجتماعية إلى آخر ما يندرجُ تحت مادة العلوم لا يقوم به فصلٌ من كتاب مهما توخّى صاحبه الإيجاز، حتى ولو سلك

مسلك كُتب المدارس الثانوية في اختصارها الشديد، وما هكذا الرافعي ذو القول الزاخر كالعباب. أما باب الطبقات وشيء من الموازنات فيمكن أن يضغطه فصلٌ من فصول الرافعي، ذات اللمح والإيماء أو ذات التشريح والتحليل.

وإذا كنتُ قدِ أشرت إلى الفصول التي دَوَّنَها الرافعي في الجزء الثالث فلا يفوتني أن أشير إلى سبقه الظافر فيما كتب عن أولية الشعر وعن السبب في قلة الشاعرات، وعن الموشح بالذات لأنه أوّلُ من فصّل القول فيه من المُحْدَثين، إذ توالى القول فيه على هديه مع إيجازه السريع، وقد وقفتُ طويلاً عند باب حقيقة القصائد المعلّقات ودَرْسِ شعرائها، حيثُ لم يتعرّض لغير ثلاثةٍ من السبعة المشهورين، إذ قَصَر حديثه على امرىء القيس وطرفة بن العبد وزهير، مع أنه تحدث في المقدمة عن السبع الطوال، فهل اكتفى بهؤلاء الثلاثة وترك أمثال عنترة ولبيد وابن كلثوم والحارث!! وهم منْدرجون تحت الباب؛ أكبرُ الظنّ أنه تحدث عنهم، وضاع ما كتب، وإلاّ فكان من الواجب أن يُبيّن لماذا ترك الحديث عنهم مع اكتفائه بسواهم، فيكون القارىء على علمٍ بما يدع ويأخذ، دونَ عبرة في التعليل.

وما قلتُه عَنْ سبق الرافعي في وصف الموشح أقوله عما كتبه عن الأدب الأندلسي، فقد كان أسبق المعاصرين جميعاً في الحديث عنه بهذا التدفق المستطاب، وقد ختم الجزء الثالث بفصلين جيديْن عن كُتب الشعر والمختارات وعن الصناعات اللّفظية التي أولع بها المتأخرون، وكأن هذا الفصل الأخير في

كُتُب البلاغة لا في كتب الأدب لأنّه يبحث عن شؤونٍ من علم البديع، وهي شؤونٌ قليلة الجدوى كما أزعم.

هذه إلمامة بكتاب تاريخ آداب العرب أرجو أن أكون قد بلغتُ بها بعض ما أريد..

* * *

إعجاز القرآن

كان الرافعي رحمه الله أول من خصّ الإعجاز القرآني بكتاب مستقل في العصر الحديث. فمنذ أن كتب السيوطي مؤلفاته عن كتاب الله. والمكان فارغ ينتظر من يقوم بالحديث عن هذا الإعجاز حديثاً شاملاً مستوعباً، يضيف إلى ما كتبه السابقون ما نفح به العصر الراهن من قضايا فكرية تساعد على امتداد الحديث على نحو يرضي القارىء المتطلع، وقد قام الرافعي بأول جهد عصري في هذا المضمار. ولكنّه رحمه الله لم يترك طريقته في الإفصاح البياني، فسطر كتابه على نحوٍ أسلوبيٍّ يرهق القارىء المتخصص، بله غير المتخصّص، ولو أُتيح له أن يُيسّر هذا الأسلوب بعض الشيء، كما فعل في مقالاته التي جمعت في وحي القلم لأثمر الكتاب ثمراً عامّاً، وعادَ بالنفع على الجمهور العريض، ولكنّ الرافعي كان يُملي كتابه وهو يعتقد أن الحديث حديث الإعجاز فلابدّ أن يرتقي الأسلوب ارتقاء يُتيح له أن يقتبس ما يستطيع من أنوار الكتاب المعجز. هذا ما وَقَر لدى الرافعي لأننا بمراجعة ما كتبه في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب مُقارناً بما انتهجه في حديث الإعجاز نرى فارقاً كبيراً بين أسلوب وأسلوب.

نعمْ إنّ الرافعي هو الرافعي في سُمُوِّه البياني، وكل كلمة خَطَّها منذ أَلِفَ القلم تُشير إلى هذا السمو الرائع، ولكنّ الكتاب كتابٌ علميٌّ بالدرجة الأولى ومِن شأن البحوث العلمية أن تُقرّب الحقائق في أسهل متناول. فإذا سلك الرافعي مسلكه، فقد أرضى طبيعته الخاصة، ورضي معه الذين يألفون أسلوبه، ويعدّون له أقوى العدّة من الصبر والاحتمال. لا سيّما أن الموضوع حبيب إلى النفوس، عالق بالقلوب، ومن هنا عكف الخاصة على اكتناه أسراره، وصبروا على الولوج في أدغاله، ثم خرجوا بنفع جزيل، وزاد دسم سمِين.

قُوبل الكتاب بما يستحق من التقدير، ومع أنّ زعيم الأمة المحامي المِدْره والخطيب البليغ سعد زغلول رحمه الله لم يكنْ من عادته أن يتحدّث عن الكتب الأدبيّة تحريريّاً، فقد بهرهُ كتاب الرافعي، وعبّر عن شعوره الصادق في خطاب رائع قال فيه[1]:

«تحدّى القرآنُ أهل البيان في عبارات قارعة محرجة، ولهجةٍ واخزة مرغمة، أنْ يأتوا بمثله، أو سورة منه؛ فما فعلوا. ولوقدروا ما تأخروا، لشدةِ حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكلّ ما ملكت أيمانهم واتّسع له إمكانُهم، وهذا العجزُ الوضيع بعدَ ذاك التحدّي الصارخ، هو أثرُ تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ، هو أثرُ ذلك الكلام العزيز. ولكن أقواماً

---

(١) فاتحة (إعجاز القرآن) ص٤ الطبعة السادسة.

أنكروا هذه البداهة وحاولوا سترها، فجاء كتابكُم (إعجاز القرآن) مصدّقاً لآياتها مُكذّباً لإنكارهم، فأيّد بلاغة القرآن وإعجازها بأدلّة مشتقّة من أسرارها، في بيانٍ مستمدّ من روحها، كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم. فلكم على الاجتهاد في وضْعه والعناية بطبعه، شكر المؤمنين وأجر العاملين والاحترام الفائق».

وهذه الكلماتُ القليلة بمضمونها الكبير تُغني عن أيّ تقريظ يقال، وتدفعني إلى أن ألج في صميم الموضوع دون توطئة، فأقول: إن التّوقيت الزمني لظهور الكتاب قد ساعد على أداء رسالته، لأنّ الرافعي الكبير قد لمس تيار الانتقاص من الّلغة العربية يشتد هجوماً واندفاعاً، وقد تصّدى لهذا التيار في مقالات شافية يعرفها تلاميذه ومريدوه، ثم رأى أن الذين ينتقصون الأسلوب البياني يريدون من وراء ستار أن يَنْتقصوا الأسلوب القرآني، فنهَض لإظهار روعة الإعجاز، وخصّص الجزء الثاني بأجمعه لدراسة الإعجاز القرآني مع صفحاتٍ خاصة بالإبداع النبوي. وقد أشار إلى هذا المناخ المظلم السيد محمد رشيد رضا في مقدمة الكتاب [١]، إذ ألمعَ إلى أن نابتةً في مصر من الملحدين في آيات الله، الصادِّين عن دين الله، قد سلكوا عدة طرائق في الإغواء، من دعوةٍ إلى هجر أساليب الفصحاء من الأولين، ومن

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٥.

دعوة إلى استبدال العامية المصرية بلغة القرآن؛ ليكون ذلك في جَوْهَرِه صَدّاً عن هداية الإسلام، وعن الإيمان بالإعجاز، فجاء كتاب الرافعي سَدّاً منيعاً في وجوه هؤلاء، وجاء في هذا المقام بما تجلّت به مباينُ الإعجاز وملامحهُ، وعلى قرّاء العربية وطلّاب العلم، على الأخص أن يقرؤوا هذا الكتاب بغية الاستعانة على النبوغ في بلاغة لغتهم بما لا يجدونه في كتاب سواه.

هذا عن الزمن المناسب لظهور هذا الكتاب. وقد افتتحهُ الرافعي بكلمة رائعة تمثّل أوفى ما وصل إليه الأسلوب البياني في أرْقى عصوره، ولنْ أطيل في الاقتباس منها فكلّها مطرب معجب. وفيها يقول[١] عن كتاب الله:

«ألفاظٌ إذا اشْتدت فأمواجُ البحار الزاخرة، وإذا هي لانتْ فأنفاس الحياة الآخرة، تذكر الدنيا فمِنها عمادُها ونظامها، وتَصِف الآخرة فمنها جنّتُها وضرامها، وهي متى وَعَدتْ من كرمِ الله جعلتِ الثغور تضحك في وجوه الغيوب، وإن أوعدتْ بعذاب الله جعلتِ الألسنة ترتعد من حمّى القلوب».

وكي ننصف القارىء والمؤلّف معاً نذكر أنّ الكتاب لم يقتصر على حديث الإعجاز فحسب، بل مهّد لهذا الحديث بفصول تخصّ تاريخ القرآن جمعاً وتدويناً، وقراءةً وأداءً مع الإفاضة الشافية في حديث القراءات السبع، والقراءات الشاذة، وشروط

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٦.

القراءة الصحيحة، والخلاف في رسم المصحف الشريف، ولغة القرآن، والمراد من الأحرف السبعة، ومفردات القرآن، وتأثير القرآن في اللّغة. وهذه الأبوابُ كَثُرَ التأليف فيها الآن، ولكن الرافعي في أوائل العقد الثاني من هذا القرن كان أوّل مَن كتب في هذا المجال، ففَتح البابَ ممتداً فسيحاً لمن تلاه، ولم يكتفِ بالمدوّن في أمثال الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي، بل جَعَل زُبدة هذا المدوّن المدّخر في لفائف الكتب جليّاً واضحاً مشمولاً بالتحليل والتعليل، مع اتساعِ المجال للمناقشة الهادفة، وهذا كله توطئةٌ لا بدّ منها للحديث عنَ الإعجاز.

ومن أنفس ما جاء في الكتاب ما سطره الرافعي تحت عنوان (آداب القرآن)، إذ جَعَل الأخلاق القرآنية والمسائل التشريعية والتربية السلوكية إحدى وجوه هذا الإعجاز. مع أنّ أكثر السابقين ممّن خصوا الإعجاز القرآني بمؤلفات مستقلّة مثل الباقلاني والقاضي عبد الجبار وعبد القاهر قد جعلوا مدار الإعجاز حول الأسلوب البياني والتركيب اللّغوي، فصارت كتُبهم بلاغيةً أكثر منها توجيهية، فجاء البابُ الحافل عن آداب القرآن مبيناً هذا الوجه الرائع من وجوه الإعجاز، فالآداب الإنسانية هي الشرائع الأصيلة، ومن هنا كانتْ آداب القرآن ترمي إلى تأسيس الخُلق الإنساني المحصَّن، الذي لا يضعف معه الضعيف دون ما يجب له، ولا يَقْوى معه القوي فوق ما يجب له، والذي يجعلُ الأدب عقيدةً وفكراً إذ تبعثُ عليه البواعثُ من جانب الروح، ويجعلُ وازع كل امرىء في داخله فيكونُ هو الحاكم والمحكوم، ويرى عين الله

لا تنفكّ ناظرةً إليه من ضميره.

وقد قصّرتْ علومُ الأخلاق والاجتماع والتربية في ما قبل القرآن عن بلوغ مرقاه، قصّرتْ تقصيراً واضحاً عن استبطان حقائق الفطرة الإنسانية، والكشف عن دخائلها، واستثارة دفائنها، وتمثّلِ مذاهبها النفسيّة على الوجوه التي تذهب إليها، حتى أصبحتْ تلك الآداب قضايا مُتداخِلاً بعضها في بعض، فصارت كالشيء المختلف الذي لا ينفك يخذُل بعضُه بعضاً. فجاء البيان القرآني ليتلافى هذا التقصير، وأخذ الكاتب يتحدث عن هذه الآداب في مستواها الخلقي المنقذ حتى اهتدى إلى نتيجة أدبيّة قال عنها: «وما فرَّط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلاّ منذ فرّطوا في لغته، فأصبحُوا لا يفهمون كَلِمَهُ، ولا يدركون حكمه، وصاروا إلى ما هم عليه من عربيّة كانتْ شرّاً من العجمة الخالصة، فلا يقرؤون هذا الكتاب إلا أَحْرفاً، ولا ينطقون إلا أصواتاً».. ويلي ذلك الباب حديثٌ عن العلوم الكونية التي اهتدى إليها القرآن. وهو حديثٌ كثر النقاش حوله، ولكل فريق أدلته ومنحاه.

فإذا انتهى الباحث من هذا كله في نحو مائة وخمسين من الصفحات، اتّجــه إلى الحديث عن إعجاز القرآن، فذكرَ أن السابقين كتبوا في هذا المجال ليعارض بعضهم بعضاً، فيرتفع رأيٌ عن رأي، والرأيُ المرتفع لا يدلُّ على صوابِ اتجاهه، بلْ يدل على هُبوط معارضِه عن مستواه، فيظلّ الحديث عن الإعجاز ناقصاً لم يتضحْ به وجه الدليل، وقد حمل على المتكلمين حَملاتٍ ترمي آراءهم بالسخف، وهذا ما لا نوافق الرافعي عليه لأنّ لكل عصرٍ

شُبهه التي تتجاوبُ بين رجاله، فإذا كانت هذه الشّبه الآن لا تجدُ لها مَحَلاًّ عند المعاصرين، فليس معنى ذلك أنها كانت لجاجاً، وإنّما معناه أنّها أدّتْ غَرضاً كان من الواجب أداؤه في عصرها.

وقد رفض القول بالصِّرْفَةِ في الإعجاز القرآني بمعنى أن الله عز وجل صَرَفَ البلغاء عن معارضة القرآن، فكان هذا الصَّرْفُ معجزةً للكتاب، وهو رأيٌ واهٍ باطل، ولكننا ننظر فنجد أعلاماً من كبار المتكلمين البلغاء قالوا بالإعجاز بالصِّرْفَةِ، فهل يكون أمثال النظَّام والمرتضى وابن حزم وابن سنان قد قالوا بالصرفة على هذا المعنى الذي لا يقرّه عقل. إنهم أكبرُ من أن يتجهوا هذا الاتجاه، وقد بحثتُ كثيراً في هذا الموضوع حتى رأيتُ القاضي عبد الجبار يقول بالصّرفة لا على أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن وفي مقدرتهم أن يُعارضوا، بل على معنى أنهم حين وجدوا القرآن قد فاق الحدّ المعقول من بلاغتهم خافوا الفشل في المعارضة، فانصرفوا من تلقاء أنفسهم، وهذا هو المعقول عن منحى القائلين بالصّرفة. على أنّ النظَّام لم يسجّل قوله في كتابٍ وإنما نُقل عنه، وفُسِّرَ هذا التفسير الذي لا يعقل أن يتجه إليه عاقلٌ، ولو كان لدينا كلامٌ مدوّن من تأليفه لحُسم النزاع، فهو رأس القائلين بهذا المذهب، ومن قال بالصرفة فقد احتذاه، وهذا التفسير الذي دوّنْتُه لم يلمّ به الرافعي بل اكتفى بترداد التفسير الشائع عن الصرفة، فانبرى لهدمه، وهو رأيٌ يتحمّل أن يهدِمَه طفلٌ صغير، فكيف بالرافعي؟

وقد أصاب الرافعي شاكلة الصواب، حين تحدّث عن

الإعجازالقرآني من ناحية الأسلوب، فذكر[1] أن العرب حين ورد عليهم أسلوب القرآن، رأوْا أن ألفاظه هي الألفاظ التي يتداولونها، ولكنّ طريقة نظم هذه الألفاظ ووجوه تركيبها، ونسق حروفها في كلماتها، ونسق الكلمات في الجمل كلّها جديدةٌ في بابها، حتى أحسّوا بضعفهم عن احتذائها، ورأى بلغاؤهم أنّ الأسلوب القرآني جنسٌ من الكلام غير ماهم فيه، وأنّ هذا التركيب هو روحُ الفطرة اللّغوية لديهم، ولا سبيل إلى أن تنصرف عنه النفوس، إذ هو وَجْهُ الكمال اللغوي الذي تشرئب إليه أرواحهم، ويَسْعَوْن إلى الارتقاء إليه دون جدوى، فاستيأَسوا من المعارضة، وتأكدوا أنها غير ممكنة.

أما التكرار في البيان القرآني فاهتدى الرافعي في حكمته إلى رأي جديد لم يُسبق به، إذ ذكر أنّ التكرار مألوفٌ في أسلوب العرب، ولكنّه في القرآن الكريم غير مألوف لديهم لأن المعنى[2] الواحد يتردّد في أسلوبه بصورتيْن أو صورٍ كلٌّ منها غير الأخرى، وجها أو عبارة، وهمْ عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرّون على هذا العجز لا يطيقون ولا ينطقون، فهذا لعمرك أبلغ في الإعجاز وأشد عليهم في التحدي. . يريدُ الرافعي أن يقول لهؤلاء إن القرآن يأتي بالمعنى ويتحدّاهم أن يأتوا بمثله في صورة أخرى، فيأتي هو ثانيةً بالمعنى نفسه في صورة ثانية، ثم في صورةٍ ثالثةٍ، ثم في صورة رابعة، ويسمع الفصحاء من العرب هذا التكرار فييْأَسون من محاذاته، مع

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢١٤.
(٢) إعجاز القرآن ص ٢٢٠.

أن أمثلة المعنى الواحد قد تكررَتْ في عدة أساليب. وقد خفي هذا المرادُ من التكرار على بعض الملاحدة وأشباههم ومَن لا نفاذَ لهم في أسرار العربيّة ومقاصِد الخطاب، فزعموا به المزاعم السخيفة، وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعفٌ وضيقٌ من قوّة وسعة، وهُو ـ أخزاهم الله ـ كانَ أروعَ وأبلغَ وأسْرَى عند الفصحاء، من أهل اللّغة والمتصرفين فيها، ولو عجزوا أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً.

وقد ذكر العلماء انفراد القرآن وبطابعه الأسلوبي، بين ما عُرف من الأساليب من قبل ومن بعد، ومن قبل هذه كانت معجزته عند نزوله لأنّ سامعيه لم يشهدوا هذا النمط من السياق التركيبي وهم أهل البيان، ومن بعدُ لأنّ من جاء بعدهم فيما تلا عصر النبوة لم يقدروا على إيجاد نمطٍ من القول يرتفع إلى مستواه، مع أنّه قدم له بنصه الشّريف المثال الذي يجب أن يحتذى، يقول الرافعي [1]:

«وليس من شيء في أسلوب القرآن ويغضُّ من موضعه أو يذهب بطريقته، أو يُدخله في شَبَهٍ من كلام الناس، أو يردّه إلى طبع معروف من طباع البلغاء، وما مِنْ عالم أو بليغ إلاّ وهو يعرفُ ذلك، ويعدّ خروج القرآن من أساليب الناس كافةً دليلاً على إعجازه، وعلى أنّه ليسَ من كلام إنسانٍ، بَيْد أنّنا لم نرَ أحداً كشف عن سر هذا المعنى ولا ألمّ بحقيقته، ولا أوضحَ الوجهَ الذي من

---

(١) إعجاز القرآن ص٢٢٩.

أجله خالف أسلوبُ القرآن كُلَّ ما عُرف من أساليب الناس، ولم يُشبه واحداً منها، ونحن نوجز القول فيه لأنّه أصل من أصول الكلام في أساليب الإنشاء».

وحين بَسَطَ القول - لا أَوْجَزَ - في تحليل الأسلوب البياني للكتاب العزيز، لخّصَ عناصره في قوله [1]: «فأنت تعلم أن سرَّ الإعجاز هُو في النظم، وأنّ لهذا النظم ما بعده، وقد علمت أن جهات النظم ثلاثٌ: في الحروف والكلمات والجمل».

ومضى يخصّ كل جهة بفصلٍ خاص مشبع بالتمثيل، فللحروف فصلٌ، وللكلمات فصْل، وللجمل فصْل، وقراءةُ ما كتب الرافعي في هذه الفصول الثلاثة تُتيح لذّة عقلية للدارس، لأنّ الله قد فتح على الرافعي في بيان أسرار الحروف والكلمات والجمل مالم يفتح به على أحد فيمن قرأنا لديهم، وأذكر أنّ الرافعي قد تباهى ببحثه فذكر أنّه اهتدى إلى مالم يهتد إليه أحد في هذا المجال، وردَّ عليه بعضُ الفضلاء بأنّ مسألة النظم القرآني قد فرغ منها عبد القاهر في دلائل الإعجاز، وجاء بما لا مزيد عليه، وكذلك ما تميّزت به الحروف والجمل والكلمات مما ذكرهُ الرافعي، لا يعدمُ نظيره في كتب السّابقين، وفي طليعتهم عبد القاهر الجرجاني والزمخشري. وأنّا أحكم في هذه القضية على قدر معرفتي فأقول: إن البلغاء من القدماء قد تحدثوا عن النظم، وعن الحروف والجمل والكلمات، ولكنّهم - باستثناء

---

(١) إعجاز القرآن ص٢٤٠.

عبد القاهر ـ لم يتّسعوا في التحليل اتساع الرافعي، ولم يلتفتوا إلى أمثلة جديدة وقع عليها الرافعي في كتاب الله، وجعلها موضع تحليله، ونحن قرّاءُ هذا العلم قد وَرِثْنا ما كتبه القدماء ثم وَرِثْنا ما قاله الرافعي، فامتد التراثُ لدينا إلى مدىً فسيح، وبمقارنة ما لدينا من هذا التراث نحفظ لكل عالم مكانه، ونذكر عبد القاهر في طليعة القدماء ومصطفىٰ صادق الرافعي في طليعة المُحْدَثين.

على أن القارىء لكتاب إعجاز القرآن يدهش دهشاً رائعاً لأفكار قويّة يفترعُها الكاتب الكبير افتراعاً،ويجعلها من أسباب الإعجاز القرآني لدى التأمل الفاحص، كأن يقول[1]:

«وكلّ من يبحثُ في تاريخ العرب وآدابهم، وينفذُ إلى ذلك من حيث تنفذُ به الفطنة وتتأتّىٰ حكمة الأشياء، فإنه يرى كلّ ما سبق على القرآن ـ من أمرِ الكلام العربي وتاريخه ـ إنما كان توطيداً له، وتهيئةً لظهوره، وتناهياً إليه، ودُرْبَةً لإصلاحهم به، وليس في الأرض أمّةٌ كانت تربِيَتُها لغويةً غير أهل هذه الجزيرة، فما كان فيهم كالبيان آنق منظراً، وأبدعُ مظهراً، وأَمَدُّ سبباً إلى النفس وأردّ عليها بالعافية، ولا كان لهم كذلك البيان أزكى في أرضهم فرعاً، وأقوم في سمائهم شرعـاً، وأوفرَ في أنفسهم ريعاً، وأكثر في سوقهم شراء وبيعاً، وهذا موضعٌ عجيب للتأمل، ما ينفدُ عجبه على طرح النظر وإبعاده، وإطالة الفكر وترداده، وأي شيء في

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٥٨.

تاريخ الأمم أعجبُ من نشأةٍ لغوية تنتهي بمعجزة لغوية، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائرُ مقومات هذه الأمة مما تنطوي عليه هذه المعجزة، وتأتي به على أكمل وجوهه وأحسنها، وتخرج به للدهر أمةٌ كان عملها في الأمم صورةً من تلك المعجزة».

وهذا الوجه من النشأة اللّغوية للأمة العربية قبل مبعث رسول الله ﷺ يراهُ الرافعي إعجازاً للقرآن، إذْ نزل في أمة هذه نشأتها اللّغوية لتكون قادرةً على فهمه، وهي في الوقتِ نفسه عاجزةٌ عن الإتيان بمثله، وأنا أرى أن هذه النشأة ليستْ إعجازاً كما قال الرافعي، ولكنّها إرهاصٌ بالإعجاز. وقد عدَّ الرافعي نهضة الأمة العربية بعد ضياعها في العصر الجاهلي وامتداد فتوحها شرقاً وغرباً مظهراً من مظاهر الإعجاز القرآني في تربيته للنفوس، والإعجازُ بهذا المعنى لا ينتسب إلى الجاهليين من أهل مكة، لأنّهم لم يروا ما جدّ من الفتوح حتى يكون الفتحُ معجزاً، ولكنّه قد يكونُ شهادةً لدوام الإعجاز لدى الخَلَف بعد انقضاء عهد السلف.

هذا وقد جاء من المؤلفين في البيان القرآني من ظهر في نتاجهم العلمي أثرُ إعجاز القرآن للرافعي ظهوراً واضحاً صريحاً لدى بعضهم، ومستتراً يستَشفّه الدارسُ لدى بعض آخر، وقد ازدهرت المكتبة القرآنية واختصّ الإعجاز بنصيب من ثمارها، فكان الرافعي قائد كتيبةٍ علميّة تقدمت إلى الميدان فأحرزتْ فَخَار النصر، وعادت بالغنائم والأسلاب.

* * *

البَلاغَةُ النَّبَوِيَّة[1]

بدأ الرافعي حديثه بفصل عن فصاحة محمد ﷺ، فوازن بينه وبين فصحاء العرب إذ كانوا يهذبون الكلام، ويبالغون في تجويده عن نظر متقدم وروية مقصودة، وعن تكلف يستعان له بأسلوب الإجادة التي لا تسلم حيناً من عيوب الاستكراه والزلل ومن كلمةٍ غيرها أليف ومعنىً غيره أراد. أما رسول الله فقد كان لا يتكلف ولا يقصد إلى ترتيبه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه، ولا تستزله الفجأة وما يبده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع وعن النمط الغريب وطريقته المحكمة بحيث لا يجد النظر طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً. ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام، وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد والمجيء

---

(١) اقتبست هذا الفصل من كتابي (البيان النبوي) لأهميته في هذا المجال، ولم أحاول صياغته بألفاظ أخرى تؤدي معناه.

في كل ذلك من وراء الغايـة [1].

وقد انتفع الرافعي في حديثه عن الفصاحة بما قاله الجاحظ وأربَى عليه بقوة التخريج وتعدد ضروب الافتنان، لأن الجاحظ على تحدره وانصبابه لم ينبسط انبساط الرافعي في القول بل طوى الكثير. أما الرافعي فقد تحدث عن مولد محمد في بني هاشم، وخؤولته من بني زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومنشئه في قريش ومهاجرته إلى الأنصار مما يمد له من أسباب الفصاحة والإبداع، ثم أفاض الرافعي فيما أفاض فيه الجاحظ من أن العربي لَسِنٌ مقاول، ولو علموا عن الرسول شيئاً من العجز البياني لنددوا به وذهبت في ذلك خطبهم وقصائدهم كل مذهب، لا سيما وقد سفَّه أحلامهم وعاب آلهتهم، والمولعون بالنقد الأدبي يجدون فيما تشابه من كلام الرافعي والجاحظ مجالاً للموازنة البارعة بين السابق واللاحق مما لا نطمع فيه الآن.

كما أسهب الأستاذ الرافعي في الحديث عن صفات محمد الجسمية وحلاوة منطقه وبلاغة صوته، ووشى ذلك بطابعه الأدبي المعهود إذ يقول عن محمد:

«وانظر كيف يكون الإنسان الذي تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها، ويجمع الإنسانيةَ بمعانيها وأسمائها، فهو في صلته بالسماء كأنه مَلَكٌ من الأملاك، وفي صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك، وما خُصَّ بتلك الصفات إلا ليملأ بها الكون ويعمَّه،

(١) إعجاز القرآن ص٣١٤.

ولا كان فرداً في أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة.

وإذا رجعت النظر في تلك الصفات الكريمة واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الذي تُبنى عليه فراسة الكمال في نوع الإنسان من دلالة الظاهر على الباطن، وتحصيل الحقيقة الإنسانية التي هي بطبيعتها روح الإنسان في أعماله أو أثر هذا الروح أو بقية هذا الأثر، فإذا تأملتها منسقة، وتمثلتها قائمة في جملة النفس، وأنعمت على تأمل صورها الكلامية التي تبعث الكلام وتزِنه وتنظمه وتعطيه الأسلوبَ وتجمِّله بالرأي وتزيِّنه بالمعنى فإنك ستجد في ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبية في هذه اللغة وأشدها وأحكمها، مما يضطرب به الضعف ولا تزايله الحكمة ولاتخذله الروية، ولا يباينه الصواب؛ بل يخرج رصيناً غير متهافت، ومتَّسقاً غير متفاوت، لا يغلب على النفس التي خرج منها بل تغلب عليه، ولا تسترسل به المخيلة، بل يضبطه العقل، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة اندماج وتوثيق. وهذا هو الأسلوب العصبي الممتلىء الذي قلَّما يتفق منه إلا القليل لأبلغ الناس وأفصحهم، وقلَّما يكون أبلغهم وأفصحهم في كل دهر إلا عصبياً على تفاوت في نوع المزاج وحالته؛ فإنّ من الأمزجة العصبي البحت، والمنحرفَ إلى مزاج آخر، ولكل من النوعين حالة قائمة بالكلام، وصفة خاصة بالأسلوب»[1]

---

(١) إعجاز القرآن ص٣٢٤.

لقد أسرفت بعض الشيء في الاقتباس من كلام الرافعي لأُعْطي القارىء صورة أمينة من أسلوبه العلمي، وليرى معي كيف دق في بعض المواضيع دقة لم تسفر بجلاء عن كل ما يريد ـ ولو لمثلي ـ ممن لا يفهمون غير المطرد الصريح ولكلٍّ وجهة هو موليها.

أما ما ذكره الرافعي ـ ابتداء من صفحة ٣٢٧ ـ عن إحكام منطقه ﷺ فقد جاء بديعاً صائباً.

إذ علَّل صمت الرسول وتجمعه قبل الحديث تعليلاً نفسياً رائعاً، فأبان كيف يمر منطقه ﷺ بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم، وأظهر أن العقل فيه من وراء اللسان، فهو غالب عليه مصرف له، حتى لا يعتريه لبس، ولا يتخونه نقص، وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة، وعذوبة المنطق، وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ عنده أسبابها الطبيعية، لم يتكلف لها عملاً ولا ارتاض من أجلها رياضة، بل خلق مستكمل الأداة فيها ونشأ موفر الأسباب عليها كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية [١].

ثم عاود رحمه الله الكرة إلى الفرق بين فصاحة محمد وفصاحة سواه من جهة إحكام المنطق وامتلائه، فإن أحدهم يكون مهيئاً لذلك من أصل الخلقة وبطبيعة النشأة، بيد أن طباعه لا تتوافى إليه في كل منطق وفي كل عبارة، بل ربما غلبت خصلة على أختها، وربما تخاذلت طبيعة من طباعه، وربما ترك لفظه لبعض الضعف

---

(١) إعجاز القرآن ص٣٢٩.

في معناه فخرج من عادته في النطق به، وهذه كلها عيوب تلحق الفصحاء من جهة النفس في ضعفها واضطرابها وغفلتها، ولكنها لن تكون لقويِّ النفس معتدلِها متيقظِها كالأنبياء وفي طليعتهم محمد.

وفي حديث الرافعي عن جوامع الكلم أبدع الكاتب ما شاء في التعليل والتحليل، وضرب الأمثلة واستعان بالجاحظ وسواه. ثم تطرق إلى حديث مسهب عن نفي الشعر عنه ﷺ فأتى بأكثر المتعارف، وأذكر أنني ناقشته نقاشاً جوهرياً في ذهابه إلى تصديق ما يُروى خطأً عن كسر النبي بعض الأبيات الشعرية في نطقه، وذلك في الفصل الذي تحدثت فيه عن موقفه ﷺ من الشعر والشعراء، وقد ذهب الكثيرون قديماً وحديثاً إلى ما ذهب إليه الرافعي في ذلك، وما قلته في مناقشة الرافعي يقال لهم أيضاً ما دامت القضية واحدة لم تتغير، وما أحب أن أعيد هنا الحديث.

ثم تحدث الأستاذ عن تأثير محمد في اللغة، فنص على ألفاظ وجمل وضعها الرسول وضعاً كالمَخِيلة مراداً بها سبل الإزار، وكقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «حمي الوطيس» «وبعثت في نفس الساعة»، ثم تابع القول فيما روى من الغريب في بعض رسائله ﷺ إلى النازحين من الأعراب. وقد أسلفنا القول في ذلك، ولم يكن الرافعي أبا عُذْرة هذا الموضوع فقد تابع سابقيه، وهو ما لابد منه في مجال التأريخ للبيان النبوي إذ كل لاحق من الكتَّاب يضع لبنات فوق لبنات وليس في طوق كاتب معاصر أن ينشىء الصرح المرتفع إنشاء دون أن يستعين.

أما ما ذكره الرافعي عن سمات الأسلوب النبوي من الخلوص والقصد والاستيفاء، فقد وفق فيه أكبر توفيق إذ أصاب الوصف الأدبي إصابة شافية مستوفاة، وقد علل اطراد السمة الأولى في بيانه ﷺ بأنه لم يكن في العرب من ينفذ في اللغة وأسرارها وضعاً وتركيباً، ويستبعد اللفظ الحر ويحيط بالعتيق من الكلام ويبلغ من ذلك إلى الصميم ما يبلغه رسول الله ﷺ، إذ تهيأ له الأسلوب العصبي الجامع المجتمع على توفق السرد وكمال الملاءمة، وما من فصيح إلا وهو في إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون في الأخرى على ما يلحقه من النقص فيهما جميعاً[1].

وأما القصد والإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه ومن طبيعة الألفاظ في معانيها، ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهتيه اللفظية والمعنوية، فذلك ما امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركة النفس، وكانت الجملة تخلق من منطقه ﷺ خلقاً سوياً، أو هي تنتزع من نفسه انتزاعاً وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب[2].

وأما الاستيفاء فقد جاء به كلام محمد ﷺ على حذف فضوله وإحكامه ووجازته مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج، ولا إحالة ولا اضطراب، حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت

---

(١) إعجاز القرآن ص٣٧٤.
(٢) إعجاز القرآن ص٣٧٤.

تركيباً على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه، وطبيعته في النفس، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارىء تمثَّلُ المعنى وأتمَّه في نفسه حسب ذلك التركيب فوقع إليه تاماً مبسوط الأجزاء، وأصاب هو من الكلام معنىً جموحاً، لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية، كأنما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساساً لنظر معنوي [(١)].

قال الأستاذ الرافعي:

«ولاجتماع تلك الثلاثة في كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض، سَلِمَ هذا الكلام العظيم من التعقيد والعِيِّ والخطل والانتشار، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة: كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعمال الخيالية، وضروب الإحالة، وفساد الوضع المعنوي، وفنون الصنعة، وما إليها مما هو فاشٍ في كلام البلغاء، يعين جفاء البداوة على بعضه، ورِقَّة الحضارة على بعضه، وهو في الجهتين باب واحد» [(٢)].

لقد صور الرافعي بلاغة الرسول كما تراءت له، فأجاد التصوير على النحو الذي كان يُنتظر منه، وعلى الطريقة التي رضيها لقلمه وارتضته. وإذا كان سعد زغلول قد قال عن كتابه (إعجاز القرآن):

---

(١) إعجاز القرآن ص٣٧٤.

(٢) إعجاز القرآن ص٣٧٥.

«إنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم» فما أحرى الزعيم الكبير أن يضيف إلى قوله: أو شعاع من بيان النبوة أسفره به يَراع مبين.

* * *

الاستِشفافُ الذَّوْقي
في فَهْمِ القُرْآن وَالحَدِيث

تفسير القرآن وشرح الحديث مما تداوله الباحثون بحيثُ مَلأت كتبُه المكتبة الإسلامية، وقارىءُ كلّ نص من النصوص إذا كان على جانب من الدراية الواعية، والذوق البصير، لا يكتفي بما يقرأ في كتب التراث إذ يُعمل فكره الدائب في فهم مستقل. لا بمعنى أنّه يخرج عن المراد الواضح من النّص، بل بمعنَى أنّه يضيف إلى المتعارف المقرّر معاني جديدة، سطعتْ له في تأمله المستشف.

وللرافعي ذوقه النافذُ إلى أسرار البيان العربي شعراً ونثراً، وقد حلّلَ بعض النصوص الشعرية تحليلاً يتسم بالجدّة والطرافة في كثير من نواحيه لأنّ موهبة الناقد المتذوق ترفده بإلهامات فنيّة كانتْ غائبةً عمّن تصدروا لشرح هذا الشّعر من قبلُ، وأصبحت بجهد الرافعي رصيداً أدبيّاً يعتز به الدارسون. هذا في البيان العام شعراً ونثراً، أما أرقى أنواع البيان العربي في كتاب الله والمأثور الصحيح من أحاديث رسول الله ﷺ، فقد كانت لمصطفى صادق الرافعي إلهاماتٌ كاشفة، جعلتْ من شرح النّص معنىً جديداً، وأحبُّ أن أقول إن الاستشفاف الذوقي خاص بصاحبه وحده،

فللقارىء أن يعارضه بأدلته إذا لم يسترح إليه، كما أحب أن أقول: إن الرافعي يعيشُ في جوّ النّص فيترامى به إلى آفاق بعيدة قد لا تكون لَصيقةً بالتفسير الصريح. ولكنها تعيش في أفقِه، ويُظهرها الرافعي على أنّها انطباعات ذوقية، ارتسمتْ في نفسه، ولا يفرضها فرضاً على القارىء، وهي نوعٌ من التحليل البياني الرائع، الذي يكشفُ عن أسرار عظيمة في الكلمة المفردة، وفي الجملة المشتملة على الكلمات، وفي السياق الذي يشمل الكلمة والجملة، ويمتدّ إلى المعنى المنبسط في السورة الكريمة.

وهذا الاستشفاف قد وُجِد على نحوٍ مقارب فيما كتبه الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، حيث فتح الله عليه بمعان جيدة فيما خَلْف التفسير القرآني من إشارات وإيحاءات، وجاء الرافعي لا ليحاكي عبد القاهر الجرجاني، بل ليكون نظيره في ولوج هذا الضرب من التحليل البياني. فوفِّق إلى خير كثير، ولو أنّ الرافعي اهتم بتفسيرِ جزءٍ متصل من كتاب الله على النحو البياني الّذي اهتدى إليه فيما كتب من تفسير بعض الآيات لأورث العربيّة كنزاً بيانياً رفيعاً، ولكنّ الرجل كان يحارب في عدة جبهات، ويرى نفسه الذائد الأول عن حُرمات التراث. بلْ عن العربية في شتّى علومها، والإسلامية في كلّ اتجاهاتها، وكاتبٌ عملاق تتسع أمامه الميادين هذا الاتساع، لا يتاحُ له أن يتخصّصَ في تفسيرٍ حيّ لأفصح كتابٍ في العربيّة، وحسبه أن يُلقي بعض الإشارات.

جاء ذكر حادث الإسراء والمعراج في سورتيْن كريمتيْن من

سور القرآن هما سورةُ الإسراء، وسورة النجم، وقد وقف الرافعي أمام ما جاء في السورتيْن، ليربط بينهما برباط وثيق، فيعقد المناسبة بين كلمة الليل في سورة الإسراء، وكلمة النجم في السورة الثانية، ويرى من وجوه الاتصال ما كان غائباً عن المفسّر قبلَ أن يهتدي إليه الرافعي، ثم يقف وقفةً بصيرة أمام بناء الفعل للمجهول في قوله تعالى: ﴿لنُريَه﴾ من آياتنا فيأتي بالقول النادر الصحيح، نجد ذلك على تمامه في قول الرافعي[1]:

«حارَ المفسّرون في حكمة ذكر (الليل) في آية الإسراء من قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، فإن السُّرى في لغة العرب لا يكون إلاّ ليلاً؛ والحكمة هي الإشارة إلى أن القصّة قصة النجَم الإنساني العظيم الذي تحوّل من إنسانيته إلى نوره السماويّ في هذه المعجزة، ويتمّم هذه العجيبة أنّ آيات المعراج لم تجيء إلاّ في سورة النجم. وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارةٌ إلى قصّة النجم، تكونُ الآية بُرْهانَ نفسها، وتكونُ في نسقها قد جاءتْ معجزةً من المعجزات البيانية؛ فإذا قيل إن نجماً دار في السماء أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تُعجز الحساب، فهل ذلك من عجيب؟ وهل فيه شكٌّ أو نظر أو تردّد، وهل هو إلا من بعضِ ما يُسبِّحُ الله بذكره؟ وهل يكون إلاّ آيةً اتصلت بالآيات التي نَراها في اتصال الوجود بعضه ببعض؟

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٣١.

وأنا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ مع أنّ الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يُخيّل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها السّر الأكبر، فإنّها بهذه العبارة نصٌّ على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس، مما مرجعه إلى قُدرة الله لا قدرة نفسه. بخلاف ما لو كانت العبارة (ليرى من آياتنا) فإنّ هذا يجعله لنفسه في حُدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام، ويتطرّق إليه الاعتراض، ولا تكون ثَمَّ معجزة.

وتحويلُ فعل الرؤية من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل، فتبارك الله مُنزل هذا الكلام!!

وإذا كان ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلن يأتي هذا إلاّ من غلبة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قُواه النفسية مهيّأة في الدنيا لمثْل حالتها في الأخرى، فهو في هذه المعجزة أشبهُ بالهواء المتحرك، فقل الآن: أيُعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفعْ في طيّارة؟».

هذا مثلٌ من الاستشفاف الذوقي الرائع، عند الرافعي، وهو ذوقٌ يصحبه الخيال المتيقظ الواعي، الذي يجيء به الناقد ليقرّب الحقيقة لا ليبعدها، وفي غير هذا الفصل تحدثتُ عن شرح الرافعي الرائع لقول الله عز وجل في سورة يوسف: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٤] وهو شرحٌ ذوقيّ بلاغي يحملُ من الاستشفاف الروحي ما لا يجيء لغير الرافعي في سبحاته الرفيعة، ونتركُه إلى مثلٍ آخر يتجلّى في قول الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حيث يقول الرافعي ببعض الاختصار الذي لا بد منه[١]:

«﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ هذه الكلمةُ هي حثٌّ وإطماع وجدال وحجّة، وهي في الآية تُصرِّح أن خشوع القلب الذي تلك صفته، هو كمال للإيمان، وأنّ وقت هذا الخشوع هو كمالُ العمر، وكيف يعرفُ المؤمن أنّه (سيأنىٰ) له أن يعيش ساعة أو ما دونها؟ إذنْ فالكلمةُ صارخة تقول: الآن الآن قبل ألا يكون آن، أي البدارَ البدارَ ما دمت في نَفَس من العمر، فإنّ لحظةً بعد (الآن) لا يضمنها الحي، وإذا فني وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقي الأبد كلّه على ما هو؛ ومعنى هذا أنّ الأبد للمؤمن هو هذه اللحظة الراهنة.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأنّ غير هؤلاء لا تخشعُ قلوبهم لذكر الله ولا للحق... وجَعل الخشوع للقلوب خاصة، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكونُ خشوعاً، بل ذُلّاً أو ضَعَةً أو رياء أو نفاقاً، أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مُخلَصاً محض الإرادة.

---

(١) وحي القلم ج١ ص٢٤٠.

وخشوع القلب لله وللحقّ، معناه السمو فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونيْن لا قانون واحد؛ ومتى خشع القلب لله وللحق، عَظُمتْ فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرة كبيرة وإنْ عمي الناس عنها، ويراها وهي بعيدة منه بمثل عين العقاب: يكونُ في لوْح الجوّ ولا يغيب عن عينه ما في الثّرى. وقد تخشع القلوبُ لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة، فتقيُّد خشوع القلب (بذكر الله) هو في نفسه نفيٌ لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها.

وقال: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، كأنّه يقول: إن هذا الحقّ لا يكونُ بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضياً، فإذا هو ارتفع من الأرض، وقرّرهُ الناس بعضهم على بعض، لم يتجاوزْ في ارتفاعه رأس الإنسان، وأفسدتْه العقول، إذْ كان الإنسان ظالماً متمرداً بالطبيعة، لا تحكُمه من أول تاريخه إلاّ السماء ومعانيها، وما كان شبيهاً بذلك مما يجيئُه من أعلى، أيْ بالسلطانِ والقوة، فيكونُ حقاً نازلاً، مُتَدَفِّعاً كما يَتَصَوَّب الثُّقْلُ من عالٍ ليس بينه وبين أن يَنْفُذ شيء.

هذه بعض خطرات الرافعي عن الآية الكريمة لا كلّها، وقد يستغرب القارىء هذا العمقَ الغائر في تحليل الكلمات، ولكنّها طريقة الرافعي التي قال عنها في هامش الوحي [1] عند تفسير هذه

---

(١) وحي القلم جـ١ ص٢٤٠ هامش (١).

الآية: «طريقتُنا في اكتناه إعجاز القرآن أنّ الكلمة الواحدة من كلماته لها جهاتٌ عدّة؛ فالبحثُ في فهم القرآن يجبُ أن يكون في اللفظة ووجهِ اختيارها وسياق تركيبها، وما تدل عليه في كل ذلك، وما يدل كل ذلك بها».

ومما أُلهمه الرافعي ممتازاً في تفسير الكلمة الواحدة من النص القرآني ما جاء من شرحه للنص الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ حيث وقف أمام كلمة ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ موقف دحض فريةً ظالمة ترددتْ في نفوس ذوي الإحن ممن يتحدثون عن تعدد زوجاته ﷺ حديثاً مريباً، فقال[1]: «وكثير من أهل الزيغ والإلحاد وطائفة من قصار النظر في التحقيق يزعمون أن محمداً ﷺ إنما استكثر من النساء لأهواء نفسية محضة وشهوات كالشهوات. ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غبي جاهل. فلو كان الأمر على ذلك أو قريب منه، أو نحوٍ من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريد نسائه جميعاً منها، وتصحيح النيّة بينه وبينهن على حياةٍ لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جوٍّ لا يكون أبداً جوّ الزهر. . . فالقصة نفسها ردّ على زعم الشهوات؛ إذ ليستْ هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها، ولا أسلوب غضبها

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٦٠.

ورضاها، وما ههنا تمليقٌ ولا إطراء ولا نعومة، ولا حرص على لذة، ولا تعبيرٌ بلغة الحاسّة، والقصّةُ بَعْد مكشوفةٌ صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب، ولا أثَر ولا بقية أثر من ميل النفس، ولا حرفٌ ولا صوت حرف من لغة الدم، وهي على منطق آخرغير المنطق الذي تُستمالُ به المرأة؛ فلم تقتصرْ على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهن، بل نفت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر، وأماتت معناه في نفوسهن، بقصر الإرادة منهنّ على هذه الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرسول في شدائده ومكابدته، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها؛ فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها».

كم قرأنا هذه الآية ففهمنا المضمون العام دون أن نقف كثيراً أو قليلاً عند كلمة (الزينة) هذه التي فتحت فتحاً مبيناً في الرد على أصحاب الأهواء من ذوي الغرض الهادف إلى الإساءة لنبي الإسلام، والرافعي لم يتكلّف في التفسير حتى يُقال إنه بصدد تفسير عقلي متعدد الوجوه. ولكنّه فطن إلى رُوح الكلمة، وما تترامى به معانيها من أغراض عليها قام بيت النبوة في المدينة. وفي مكة أيضاً، لأنّ خديجة رضي الله عنها لم تكنْ صاحبة زينة وزخرف على غناها المفرط، وقدرتها على التحلّي بالذهب والحرير، ولكنّها ذاتُ رسالة مؤمنة في خدمة صاحب الرسالة العظمى رضي الله عنها وصلى الله وسلم عليه.

والحاسّة الملهمة في فهم اللفظ الواحد على أقصى درجات القوّة في تفسير الرافعي، لأنّ إحاطته الدقيقة بطبيعة اللفظ العربي

وموقعه من الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث وما وراء ذلك كله من اختلاف الصّيغ في اللفظ الواحد، هذه الإحاطة الدقيقة بطبيعة اللفظ العربي، تُضيء له طريق الاستشفاف الدقيق في الحرف الواحد والكلمة المفردة والجملة المتماسكة. ومن أمثلة ذلك ما فسّر به الرافعي كلمة النذر [1] في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]، حيث ذهب إلى أن الضمَّة في ﴿النُّذُر﴾ ثقيلةٌ لتواليها على النون والذّال معاً، فضْلاً عن جسأة هذا الحرف، ونبوّه في اللسان، وخاصّةً إذا جاء فاصلةً للكلام، فكل ذلك يكشف عنه، ويُفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنّه جاء في القرآن على العكس، وانْتفى عن طبيعته في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فتأمل هذا التركيب، وأنعمْ ثم أنعمْ على تأمّله، وتذوّقْ مواقع الحروف وأَجرِ حركتَها في حسّ السمع، وتأملْ مواضع القلقلة في دالِ ﴿لَقَدْ﴾، وفي الطّاء من ﴿بَطْشَتَنَا﴾، وفي الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو ﴿تماروا﴾، مع الفصل بالمّد، كأنّها تثقيل لخفّة التتابع في الفتحات إذا جَرتْ على اللسان ليكون ثقل الضمّة مستخفاً بعد، ولتكون هذه الضمّة قد أصابت موضعها، كما تكونُ الأحماض في الأطعمة، ثم ردّد نظرك في الراء من ﴿تماروا﴾ فإنَّها ما جاءت إلاّ مساندةً لراء ﴿النذر﴾ حتى إذا انتهى الإنسانُ إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجفُّ عليه ولا تغلظ، ولا تنبو، ثم اعجبْ لهذه

---

(١) إعجاز القرآن ص٢٥٨.

الغُنّة التي سبقت الطاء في نون ﴿أنْذرهم﴾ وفي ميمها. وللغنَّة الأخرى التي سبقت الذال في النّذر. فما مِن حرف أو حركةٍ في الآية إلا وأنتْ مصيبٌ من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ما تشّك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة. . . ».

هذا تحليلٌ لغويّ خاصٌّ بالرافعي وحده، لأنّ للحروف أرْواحاً عنده، يفهمُها حقّ الفهم، بل لأشكال الحروف من ضم وفتح وكسر وسكون هذه أرواحٌ أيضاً، وبعضُ الذين لا يفهمون الأسلوب العربي في جزالته الرصينة، يقول إنّ المراد يتحقق بأقلّ من هذا التفسير المتغلغل، ونُحن نقول له، يتحقَّق لديك حين تقرأ القراءة العابرة، أما القراءةُ الفاحصة الدارسة فلا يتحقق مرادها بغير هذا التشريح.

والقلم الذي استشف إيحاءات الأسلوب القرآني على نحو ما قدّمنا في هذا الفصل، هو القلم الذي استشفّ إيحاءات البيان النبوي، فأسلوبُ الحديث المحمّدي يحتاجُ إلى مَن يَهِدِّي إلى روائعه من ذوي الإلهام البليغ. وقد قدّمتُ في باب سابق ما أبدعُه الرافعي في حديثه عن البلاغة النبوية، وأريدُ الآن أَنْ أضربَ بعض الأمثلة للتحليل الكاشف الّذي فَتَح به الرافعي مجالاً يجب على عُشّاق الحديث أن يتأثروه، لأنّ المكتبة الدينيّة لا تزال تتطلبُ مؤلفات أدبيّة عن الحديث المحمّدي، تحليلاً وتفسيراً واستشفافاً، ولعلّ الرافعي قد ضرب المثال المنشود حين كتب ما كتب في هذا النطاق، وأستشهد هنا بمثلين بارعين من ثمار الرافعي البيانية في

حقل الإبداع النّبوي.

يقول الرافعي [١] «وقفت عند قوله ﷺ: «إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنع فيه ما شئت!! فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإنْ تركوه هلك وهلكوا».

فكان لهذا الحديث في نفسي كلامٌ طويل عن هؤلاء الذين يخوضونَ معنا البحر، ويسمّونَ أنفسهم بالمجددين، وينتحلون ضروباً من الأوصاف، كحرية الفكر والغيرة والإصلاح، ولا يزالُ أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه، أي بقلمه... زاعماً أنّه في موضعه من الحياة الاجتماعية يصنعُ فيه ما يشاء، ويتولاه كيف أراد، موجّهاً لحماقته وُجُوهاً من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة، جاهلاً أن القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دُون غيرها، فالحكمُ لا يكونُ على العمل بعد وُقوعه، كما يحكمُ على الأعمال الأُخرى، بل قبْل وقوعه؛ والعقابُ لا يكون على الجرم يقترفُه المجرم كما يُعاقب اللّص والقاتل وغيرهما، بل على الشروع فيه، بلْ على توجّه النيّة إليه؛ فلا حريّة هنا في عملٍ يُفسد خَشَب السفينة، أو يمسّه من قرب أو بعد، ما دامت مُلَجِّجةً في بحرها، سائرةً إلى غايتها، إذ كلمة

---

(١) وحي القلم جـ٣ ص٧.

(الخَرْق) لا تحملُ في السفينة معناها الأرضيّ، وهناك لفظة (أصغر خَرْق) ليس لها إلاّ معنى واحد وهو (أوسع قبر)...

وهكذا يجب تأمّل الجمال الفنّي في كلامه ﷺ، فهو كلامٌ كلّما زدته فكراً زادك معنىً، وتفسيره قريبٌ، قريبٌ كالروح في جسمها البشريّ، ولكنه بعيدٌ كالروح في سرّها الإلّهي، فهو معك على قدر ما أنتَ مَعهُ؛ إنْ وقفت على حدّ وقفَ، وإن مددتَ مدَّ، وما أدّيت به تأدّى».

وفي هامش الصفحة أراد الرافعي مع هذا السبح الروحي ذي الاستشفاف الملهم أن يَمْشي مع البلاغيين فيما يقربُ من تحليلهم البياني، فقال[1]: «روى البخاري هذا الحديث على وجهٍ آخر وفيه زيادةٌ من الجمال الفنيّ قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرَقْنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ من فوقنا! فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَوا ونجَوا جميعاً» فهذا تمثيلٌ لحالةِ طائفة في الأسفل تعملُ لرحمةِ مَن هُمْ في الأعلى. عَاطِفةٌ [كأنّها] شريفةٌ ولكنّها سافلة، وحميةٌ ملتهبةٌ ولكنها باردةٌ، ورحمةٌ خالصةٌ ولكنها مهلكةٌ، ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية، لأناسٍ هم عند أنفسهم أمثلةُ الجدّ

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٧.

والعمل والحكمة، فكأنّ النبي ﷺ يقولُ لهؤلاء من ألفٍ وثلاثمئة سنة: أنتُم المصلحون إصلاحاً مخروقاً!».

أمّا المثال الثاني: فتجده في تحليل الرافعي لقوله ﷺ: «سوداءُ ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد» حيث قال[1]: «إنه ﷺ لا يريد السوداء بخصوصها، ولكنه كنَّى بها عما تحت السواد، وما فوق السواد، وما هو إلى السواد، من الصفات التي يتقبحها الرجال في خلقة النساء وصورهن، فألطَف التعبير ورقّ به، رفعاً لشأن النساء أن يَصف امرأةً منهن بالقبح والدمامة، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم، وتنزيهاً للسانه النبوي؛ كأنّه ﷺ يقول: إنّ ذكر قُبْح المرأة هو في نفسه قبيحٌ في الأدب، فإنّ المرأة أمٌّ أو في سبيل الأَمومة، والجنةُ تحت أقدام الأمهات، فكيف تكونُ الجنة التي هي أحسن ما يتخيّل في الحسن تحت قدمي امرأة؛ ثم يجوزُ أدباً أوعقلاً أن تُوصف هذه المرأة بالقبح. أما إن الحديثَ كالنّص على أنّ من كمال أدب الرجل -إذا كان رجلاً- ألا يصفَ امرأةً بقبح في الصورة البتّة، وألا يجري في لسانه لفظ القُبح وما في معناه موصوفاً به هذا الجنس الذي منه أمُّه: أيودّ أحدكم أن يمزّق وجه أمّه بهذه الكلمة الجارحة؟».

ومقالات الرافعي الإسلامية تحفل بالكثير من هذه الإلهامات، إذ تأتي الآية أو الحديث لمناسبة ما، فيأتلق بها من المعاني ما

---

(١) وحي القلم جـ١ ص١٥٤.

لايتراءى لغير هذه العين الفاحصة، عين الرافعي، وذلك نمط من أرقى أنماط الأدب كله، لا أقول الأدب الإسلامي فحسب، بل أقول الأدب الإنساني المحيط.

* * *

فِي حَوْمَةِ الدِّفَاعِ

وأقول الدفاع عن قصد، لأن مصطفى صادق الرافعي كان مدافعاً لا مهاجماً، وقد ظَلَمه من وصفه بالاندفاع المتهجم، فالرجلُ المؤمن لم يتربصْ بأحد بدءاً، ولكنّه نظر فوجد المغرورين يسيئون للإسلام والعربيّة، ولهم ذيول تردّد ما يقولون، وهيئات منظمة تفسح الندوات لتأييد هجومهم الظالم، ورؤوسٌ من الاستعمار تنزلُهم أحسن المنازل في مناصب الدولة وأمهات الصحف والجرائد، وكلّما ازداد صيتهم عنفوا في مهاجمة اللّغة العربيّة باعتبارها وعاء الإسلام الحافظ، وحصنه الواقي. لم يكن الرافعي مهاجماً بادىء ذي بدء، ولكنّه التزم الفريضة في دفع المنكر، والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرضُ عين لا فرض كفاية، إذ لا يستطيعُ أنْ يقوم مقامه أحد، فهو أصدقُ يقيناً، وأشدّ نفاذاً، وأبلغُ حجة. والرجلُ في منعةٍ من ربّه وحده، فقد كان موظفاً متواضعاً بإحدى المحاكم، يرأسه من لم يبلغْ الدرجة الرابعة حينئذٍ!! ولكنّه كان يعارض أكبر وزير إذا شهد منه انحرافاً في الرأي، ويتصدّى لأصحاب الأمر والنهي بسيفٍ لا يُفَلّ، ويصدعُ بكلمة الله جهيرة رنانة، حين ينكمشُ الوصوليون

في جُحورهم لا يهتمّون بغير أنفسهم، وما يرسمُون لمستقبلهم في الحياة!! أيكون البطل الباسل في حومةِ الدفاع مُهاجماً!؟ بل يكونُ في رأي خصومه متعصّباً وهو يذودُ عن حُرماتٍ، ويدفع أباطيل، إنّ الذين يهاجمون شريعة الله، وهُمْ مسلمون، وينتقصون اللّغة العربية، وهم عرب ويَدعون إلى التبرّج والخلاعة والانهيار وهمْ شرقيون!! كلُّ هؤلاء غيرُ متعصبيّن!؟ بلْ مجدّدون تقدّميّون!؟ أما الذي يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهو المتعصّب، وهو الرجعّي!؟ وهو أشد أعداء ما يسمّى بالتنوير!؟ وهكذا تنقلب الأوضاع!!.

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[1]: «إن الرابطة الدينيّة وقاحةٌ، فإننا أبْناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا، وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا نحن المصريين عن الإسلام في الصين تحت عنوان أخبار العالم الإسلامي».

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[2]: «إنّني كلما زادتْ معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنّه غريب عني، وكلما زادتْ معرفتي

(١) اليوم والغد ص٢٣٩.
(٢) اليوم والغد ص٧.

بأوربا زاد حبّي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنّها مني وأني منها. . أريدُ من التعليم أن يكون تعليماً أوربياً لا سلطان للدّين عليه ولا دخول له فيه، وأنّ يتولى تعليم اللّغة رجالٌ متمدّنون يفهمون على الأقل نظرية التطور، وأريد أدباً مصرياً أبطالُه فتيان مصر وفتياتها لا رجالَ الدولة العباسية، ولا رجال الفتوحات العربيّة».

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «لقد أدرك مصطفى كمال الذي لم تنجب بعدُ نهضتنا رجلاً مثله ولا نصفه ولا ربعه، ما للقبعة من القيمة بالإعلان في الانسلاخ من آسيا والانضمام إلى أوربا، ولم تمتنع من استعمال السيف في سبيل ذلك، وسنبقى في نظر أنفسنا وفي نظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق» (١).

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «إن اللّغة العربية لغة بدوية لا تكاد تكفلُ الأداء إذا تعرضتْ لحالةٍ مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها إلى الآن. . . وهي لغةٌ شاقة تكدّ الذهن في حفظ قواعدها التي لا تنتهي كأنه ليس في العالم شيء جديرٌ بالبحث غير قواعدها. وكلّ من اختبرها يعرف أن قاسم أمين ولطفي السيد كانا على حقٍّ حين نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلاً منها» (٢).

---

(١) اليوم والغد ص٢٥٤.

(٢) اليوم والغد ص٢٣٧.

هذا قليل ممّا قاله الأستاذ سلامة موسى، ونشره في أمهات الصحف ثم جمعه في كتاب (اليوم والغد). وقد عارضه الأستاذ الرافعي بمقالاتٍ رنّانة لم يُجمَع أكثرها، فقام الوصوليون عليه يرمونه بالتعصّب، وأنّه يهاجم الكاتب لمسيحيته، ونحنُ نسألُ: مَن المتعصب؟ الذي يُهاجم دين الأمة ويرى الارتباط بالجامعة الدينية وقاحة؟ أم الذي قام يرد على هذا الهجوم!! إن الرافعي لم يهاجمْ هذا الكاتب وحده، ولكنه هاجم مصطفى كمال أتاتورك وطه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمود عزمي وكلّ من هاجم العربيّة والقرآن والشرق وهمْ مسلمون!! وإذنْ فالرجل لا يفرق بين شخص وشخص، بل يحارب الاتجاه الإلحادي أيّاً كان مصدره، فعلى الذين يعترفون بالحق أن يعرفوا أن المسألة مسألة اتجاه. وقد كان الرافعي صديقاً للدكتور يعقوب صَرُّوف، ولخليل مطران، وأميل زيدان، ولم ير عليهم غميزةً يأخذهم بها، لأنهم مسالمون. وهو لا يهاجُم غير المعتدين من أيّ فريق، فهل نَتْرُكُ رمْيَ الرجل بالتعصّب والجمود وننظرُ إلى ميدان نضاله فنعرف اتجاهه الصحيح!؟

لقد كان مصطفى كمال ذا أبواق عالية الصدى رنانة الزئير في مصر، وقد صدرت كُتُبٌ مصرية بأقلام مصريّين مسلمين تؤيد هجومهُ على الإسلام وازدراءه للّغة العربية، وجَعْلَ العطلة الأسبوعية يومَ الأحد لا يوم الجمعة، وتحريم الطربوش وضرورة لُبسِ القبعة، وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف أو متنزهات!! صَدرتْ كتبٌ في مصر تؤيّد اتجاهه الإلحاديّ، ومُروقه

عن دينه، فإذا قام الرافعي زائداً عن دينه في وَجْه هذا الطاغية أفيكون متعصّباً!! لقد مرّت الأيام ولم يَعِشْ الرافعي رحمه الله ليرى كما رأيْنا انتصار الإسلام في تركيا، واندحار آراء الطاغية، لأنّ الله لا يُغلب، وأنّ للباطل نهاية ينقلب بعدها خاسئاً وهو حسير.

قال الرافعي عن أتاتورك: «يرى هذا الطاغية أنّ الدين الإسلامي خرافة وشعوذة، وأنّ محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق، وأنّ الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتلّ هذه الدنيا، فلا يطردُه من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذي توقّح على الله حين قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

أظهر الطاغية أنّ الله يؤيد به الإسلام ليتألّف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكيد، دنيء الحيلة، يهوديّ المكر، وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية هي بعينها ربَا اللّفافة اليهودية في مخه، تُصلح بإقراضِ مائةٍ، وفي نيّتها الخرابُ بالستّين في المائة، فما كاد يتمكن من الناس، ويعرف إقبالهم عليه، وثقتهم به، حتى طلبت اللفافة اليهودية رأس المال والربا، فأمرهُمْ بهدم المدارس وإخرابها، وأبطل صلاة العيدين، وصلاة الجمعة، وقتل الفقهاء وقتل معهم فقيهيه وأستاذيه.

إن هذا الطاغية ملكٌ حاكم يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخرابها، ولو شاء لاستطاع أن يشنق من المسلمين كلّ ذي عمامة في عمامته، ويبلغُ من كفره أن يتبجّح، ويرى هذا قوّة، ولا يعلمُ

أنّه لهوانه عند الله، قد جعله الله كالذبابة التي تُصيب الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل بالحمّى، والقملة التي تضرب بالطاعون، فلو فَخَرتْ ذبابة، أو تبجّحت قملة، أو استطالت بعوضة، لجاز له أن يطنّ طنينه في العالم. ثم بلغ الرافعي مقطع الرأي حين قال:

«إنه يحاولُ هدم الإسلام، لأنّه دين العِفّة، ودينُ صون المرأة، يلزمها حجاب عفتها وإيمانها، ويمنعُها الابتذال والخلاعة، ويعينُها أن تتخلّص ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم، إنه يمقتُ هذا الدين القويّ كما يمقت اللصّ القانون، فهو دين يثقل على غريزته الفاسقة، ولكل غريزةٍ في الإسلام شعورٌ لا مهنأ لها إلاّ أن يكون حراً في التوهم، وما زالَ رأْي الفساق في كل زمنٍ أنّ الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تَقييد اللذة إفسادٌ للّذة»[1].

وإذا كانت لهجة الرافعي حادّةً مع جبار تركيا، فإنّ جرائره الأليمة قد سبّبتْ هذه اللهجة، إذ كانَ الفارس الأول لبذْرة الإلحاد في بلاد الإسلام، وقد حاولَ مقلّدون كثيرون أن ينهجوا نهجه في إيران وأفغانستان فلم يُكتبْ لهم النجاح، لغلبة الوعي الإسلامي،

---

(١) هذه النقول عن أتاتورك مقتبسة من مقال الرافعي (تاريخ يتكلم) بالجزء الثاني من وحي القلم (ص٢٠٩) وما بعدها وقد جعل حديثه الظاهري عن الحاكم بأمر الله كيلا يدخل دائرة المسؤولية حين يعترض الأذناب، أما مقاله الصريح عنه فهو ما جاء بعد هذا المقال تحت عنوان (كفر الذبابة) ص٢٢١ وما بعدها..

أما البلاد العربية وفي مقدمتها مصر، فقد وُجد فيها من ألّف الكتب، وملأ الصحف، تغنّياً باسمه، بل وُجد فيها من يتحرق اليوم أسفاً على انهيار آماله في مستقبل الشعب التركي بعد أن ظهرتْ بوادر الصحوة المؤمنة تُشرق في أفقه، وكأن كابوساً مُرهقاً كان يأخذ بالأنفاس فغادر تركيا على غير انتظار. أما نقاشُ الأستاذ الرافعي للأستاذ أحمد لطفي السيد، فلم يَعْرف هذا السخط المشْتعل، لأنّ الأستاذ أحمد لطفي السيد أدْلى برأيه في صلاحية اللّغة العامية كي تُختارَ ألفاظها المستعملة، لتزاحم اللغة العربيّة، أبدى رأيه كما اعتقد، ثم مضت الأيام وبدا له خطأ ما رآه، فانتهى إلى الحق، وكان أثناء رئاسته لمجمع اللّغة العربية بالقاهرة من أشد المتحمسين لنصرة الفصحى دُون تهاون بشأنها، وهو برجوعه إلى رأي الرافعي أظهر بجلاءٍ أنّه يجب أن يسير مع الحق متى وضح له طريقه الصحيح، وليس كمن يخوضُ في الباطل حتى إذا وُوجه بالصواب جابَه وعارض وأنكر. وأحبُّ أن أشير إلى ما كان من رأي الأستاذ لطفي السيد حين أعلنه في (الجريدة)، ثم ما كان من معارضة الرافعي إياه، حين كتب مقاله الرنّان في تفنيد ما ذهب إليه دون نكوص.

لقد ذهب الأستاذ أحمد لطفي السيد إلى ضرورة أخذ أسماء المستحدثات من اللّغة اليومية (العاميّة) وإمرارها على الأوزان العربيّة بقدر الإمكان، لأن في استعمال مفردات العامية وتركيبها إحياءً للغة الكلام، وإلباسَها لباس الفصاحة، فيكونُ من ذلك رفع العامية إلى الاستعمال الكتابي، والنزول بالضروري من اللغة

المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل، فالطريقة الوحيدة لإحياء اللّغة هي إحياءُ لغة الرأي العام من ناحية، وإرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى، فإذا أردْنا أن نُصلح بين اللغتيْن فأقربُ الطرق لهذا الصلح أن نتذرّع إلى إحياء العربيّة باستعمال العامية، ومتى استعملناها في الكتابة اضطررْنا إلى تخليصها من الضعف، وجعلنا العامة يتابعون الكُتّاب في كتاباتهم.

والذي أعرفه أن الأستاذ أحمد لطفي السيد في رأيه هذا، لم ينْوِ شراً بالفصحى ولكنه أخطأ التفكير، فقد حفظ القرآن في قريته قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية، وحين أشارت عليه الآنسة ميّ أن يَدلَّها على كتابٍ عربي يقيم أسلوبها الأدبي قال في وضوح لا يُوجد أعزّ ولا أجدى من القرآن!! وكانت المخترعات الحديثة أثناء كتابة رأيه تملأ الصحف بأسمائها الأجنبية والعامةُ يتداولونها، فرأى هذا الرأي غافلاً عن عقباه التي أوضحها الأستاذ الرافعي في ردّه، كما أنّه أباح استعمال العامية في الأسلوب الدارج إذا أدّتْ إلى المعنى المراد، فالمسألة ليستْ مسألة أسماء المستحدثات فقط، ولكنّ معها ما سمّاه (بالتمصير) أيْ إضافة الكلمات الذائعة في العاميــة في مصر متى احتاج إليها الكـاتب. وهـذا الشّططُ المتسرّع دعا الرافعي إلى معارضته بأسلوب هادىء، لأنّ الكاتب كان هادئاً في مقاله، ولم يشمّ الرافعي منه ضغينةً مستترة على

لغة القرآن فقال: ببعض التلخيص [1].

«إننا إذا تابعناه فإننا نلتمس كلّ ما أشار إليه من العامية المصريّة وحدها، ولعلّ هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا نحن المصريين، ويطمئنّ في كل أمة لها عربيّة، فتأخذ مأخذنا في عاميتها، وتنزعُ إلى ما نزعنا إليه. فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم، كان لعمري أسرع في فناء العربية ومحوها، وعاد عليها شؤمُ هذا الرأي بما لا يعودُ به تألّب الأعداء عليها، ويوشك أن يجيء يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى في كتابها الكريم، ضرباً من اللغات الأثرية.. ثم إنا إذا حاولنا مذهب الإصلاح بالعامية فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها، وإذا جاز للعامّة أن يتابعوا الكتَّاب فيما يخلطون به العامية بالعربية، أيتابعونهم على العامي الذي يفهمونه وحده، أو تكون المتابعة على العامي والفصيح معاً، ولماذا والحال كذلك لا نأتي بالأسلوب العربي المأنوس فيفهمه العامة ولا داعي لغيره.

ثم قال الكاتب الناقد: نحن لا نُماري في وجوب الإصلاح اللغوي، ووجوب أن يكون للّغة في هذه النهضة مجمعٌ يحوطها، ويضع لها الألفاظ والمصطلحات، ولا نقولُ إن هذه العربية كاملةٌ في مفرداتها، ولا أنّه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها، فإنّ من يذهب إلى ذلك لا يعدُو باللّغة وسيلةً من وسائل العيش، وإذن

---

(1) تحت راية القرآن ص٥٣ وما بعدها.

فالدعوةُ إلى إنشاء مجمع لغوي يضع المصطلحات العلمية والألفاظ الدالة على المستحدثات مما يخدمُ اللّغة ويجعلها ذات اقتدار. . . ثم إنّ الأمر في اللّغة ليس أمر المفردات فقط ولكنّه أمر الأوضاع والتراكيب، لأن اللغات الراقية هي التي تتميز بوجوه تركيبها، ونسق هذه الوجوه فيها، والعاميّةُ لا تصلح في تراكيبها وصيغها للكتابة مالم تُفصَّح على وجه من الوجوه. وهي بعد لا وزن لها في كل ما ابتعدت به عن الفصيح إلاّ في كلماتٍ قليلة، فإذا هي نافرتِ الفصيح لفظاً أو نسقاً فلست واجداً إلا أطلالاً من كلمات عربيّة يأباها من يعرفها صحيحة ماثلةً، وكيفما أدَرتَها لا تعرف لها إلا رِقّة الشأن وسقوط المنزلة بإزاءِ أصلها الفصيح الذي خرجت منه».

هذا قليل من كثير توسَّع فيه الرافعي إذ كتبه في ثلاث عشرة صفحة، جمعَها في كتاب (تحت راية القرآن) وكان قد نشرها في مجلة البيان سنة ١٩١٢ حين جهر الأستاذ لطفي السيد برأيه، وبانقضاء أكثر من ثمانين عاماً على هذا الجدل استقرّ الوضع على نحو ما ابتغاه الرافعي، فأنشىء مجمع اللّغة وصارت الفصحى حافلةً بما يرجوه المتحدث والمترجم من أدوات التعبير.

وإذا كان الرافعي سيد بلغاء هذا العصر في نسقه الأسلوبي الممتد بجذوره إلى أعرق أساليب الفصاحة في عهدها الزاهر، فإنّ بعض الناقدين قد أخذ عليه اهتمامه بما سماه (الجملة القرآنية والحديث الشريف) وما درى هذا الناقد أنه أثار ثائرة الكاتب المؤمن بما أخذَ عليه، فكتب مقالاً ضافياً تحت عنوان (الجملة

القرآنية) نشرهُ بمجلة الزهراء، وجمعه في كتاب (تحت راية القرآن)[1] وقد تعرّضتُ للإشادة بهذا المقال في كتابي (في ميزان الإسلام) إذ كشفتُ الضوء عن ظلام اكتنف مبعث هذا النقد، وقلت فيما قلت[2]:

«وإذا كان نابغة البيان المعاصر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله من أبرز البلغاء فصاحة وجزالة، وللكلمة القرآنية في بيانه وهج والتماع، إذ يستشهدُ بها في كل مجال، فإنّ بعضهم قد حاول أن يغمز بيانه من ناحية إبداعه، وهو هوىً مغرض يجعل الزيْن شيناً، والنهار ليلاً، فقال قائلهم: لو ترك الرافعي التزامه بالجملة القرآنية لكان ذلك أجدى وأنفع، وطار القولُ إلى الرافعي فنهض للرد عليه بما اشتُهر به من إقناع، وقال فيما قال: «لقد ظهر لي من نور الجملة القرآنية مالم أكنْ أراه من قبل، حتّى لكأنها مكروسكوب يفصح عما يُخفي من صغار الجراثيم، مما يكونُ دقيقاً فيستعظم، وخفياً فيستغلق». وبلغ موضع النفاذ المصيب، حين قال: وإذا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الكلمة وإرهاف المنطق، وصقل الذوق، مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه، وصِلتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هي

---

(١) تحت راية القرآن ص٢٤.

(٢) في ميزان الإسلام جـ٢ للدكتور محمد رجب البيومي ص٦٧.

عند التلاوة تدور في أفواهنا، وسلائقهم فينا تقيمنا على أوزانها!!
إذا فعلتُ ذلك ورضيتُه أفتراني أتّبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيليّة، وأُعين بنفسي على لغتي وقومي، وأكتبُ كتابةً تُميت أجدادي في الإسلام ميتةً جديدة، وتنقلبُ كلماتي على تاريخهم كالدّود يخرج من الميت، ولا يأكل إلاّ الميت، وأُنشىء على سنتي المريضة نشأةً من الناس يكونُ أبغضُ الأشياء عندها هو الصحيح الّذي يجب أن يكونَ أحب الأشياء إليها».

ومن حديث اللّغة العربية نذكر أنه جاء على مصر حين من الدهر، كان بعض ساستها ومن يَلُونَ المناصب الكبرى بها، يتباهون بكلمات إفرنجية يَسُوقونها في محادثاتهم، حين لا يدعو الحديث إلى هذه الرطانة المسفّة، وهُمْ يشعرون أنهم يتعالون على من يحدثونهم حين يرطنون بألفاظ يسألهم السائل عن معناها حين يتكلّمون، فينطقون بمرادفها في العربيّة بعد أن يصطنعوا التفكير، وكأنّهم عن العربيّة بمنأى إذْ هي في نظرهم لغة العامة لا الخاصة، وقد يروْن أن الحديث بها لَدَى من يلُون الأمر من الإنجليز زُلْفى للتقرب إليهم واعترافٌ بأن لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة الأمّة. في هذه الفترة الحَالكة كتب الرافعي مقاله (اللّسان المرقّع) ليكشف دخيلة هؤلاء، ويريهم أنّهم محتقرون عند أبناء وطنهم حين يتخذون لغةً غير لغتهم، ومحتقرون عند المحتلّ حين يراهم يلتمسون وسائل الخضوع والزلْفى باتخاذ لغةٍ لا يجيدونها حق الإجادة، بل يتظاهرون بمعرفتها، وأكثرهُم منها بموضع شاسع. وللرافعيّ طريقته البارعة

في التهكم الساخر بهؤلاء، فهو لا يقرّر الحقيقة وحدها بل يلبسها الصورة المضحكة التي تميل بالقارىء إلى الاستهزاء بمن يظنّون أنفسهم كباراً وهم زعانف وذيول، يقول الرافعي[(١)]:

«وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباشا بالعربيّة التي تَلْعَنُها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطّاً، نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً عالياً، فكان يرتضخ لُكنةً أعجمية، بَيْنا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ يطنّ، إذا هي في لفظٍ آخر صوتُ مريض يئن، إذا هي في كلمةٍ ثالثة نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ، ورأيته يتكلَّف نسيان بعض الجمل العربية، ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرّفاً ولا تملحاً، ولا إظهاراً لقدرة أو علم، ولكن استجابةً لشعور الأجنبيّ الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنيةُ عقله تأبى إلا أن تكذّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه، فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٍّ لهذا وأمثال هذا، أفٍّ لهم ولما يصنعون، إنّ هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة)، ولأشرف منه والله رجلٌ قرويٌّ ساذج [ينطق بلغته]. . . إن عمله أن يُعلن برطانته الأجنبية أنّ لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرّد من الروح السياسي للغة قومه، إذْ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلاّ في الحرص عليها وتقديمها على سواها».

وقريب من اتخاذ الرطانة الأجنبيّة في الحديث لبس القبعة على

---

(١) وحي القلم ج٢ ص٢٩٦.

الرأس تقليداً لتركيا حين هجرت الطربوش وأصرّت بوحي زعيمها أن تلبس القبعة الأوربية، والرافعي يقول في ذلك على لسان من سمّاه (صاحب السرّ) [1]: «لقد نجمت في مصر حركةٌ بعِقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق لشيء هناك قاعدة، إلا القاعدةُ الواحدة التي تقرّرها المشانق، فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه، ومن قال «لا» انقلبت «لا» هذه مشنقة فعُلّق فيها. وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزعاتٍ من مثلها كما يجيء الحذاء آخر ما يلبس اللابس، فلم يشكّ أحد أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية رأس المسلم تربيةً جديدة، ليس فيها ركعة ولا سجدة، وإلاّ فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجيّ والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه، ولا زعم أحد أنَّها أكْملت العقل الناقص، أو ردّتِ العقل الذاهب».

هذا رأي الرافعي في القبعة، وقد أرادتْ مجلة الهلال [سنة ١٩٢٧] أن تُنبّه الأذهان إلى غطاء الرأس الذي بدأ ينتشر تقليداً لتركيا التي قلدت بدورها أوروبا فأتاحت الفرصة لكاتبيْن أن يُبْديا رأيهما في القبعة، وهما الدكتور محمود عزمي والأستاذ مصطفى صادق الرافعي. أما عزمي فقد بَاهى وافتخر بارتدائه القبعة، وقال: إن من رآوه يلبسها لأوّلِ مرة قالوا له: بدأَ الشرقيون يفكّرون

---

(١) وحي القلم ج٢ ص٣٠١.

بـرؤوسهـم، وأنّ القبعـة التـي بـدأت تنتشـر فـي الـوسـط الآخـذ بالمذاهب الحديثة تُمثّل لوناً خاصاً! وزاد فقال: إنّي أنا مِنَ الذين يريدونَ أن يأخذوا من المدنيَّة العصرية وهي الحضارة الغالبة، وأنّ الخير كل الخير في شُخوصِ الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطىء البحر المتوسط الشمالية الغربيّة، وبأنّ كل نظرةٍ إلى رمال التيه والبادية إنما تكونُ نُكُوصاً على الأعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيراً هائل السرعة إلى الأمام».

هذا بعض ما قاله الأستاذ محمود عزمي بشأن القبعة. أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقد عارضه بمقال فخم نشر بمجلة الهلال المشّار إليها، ولا أدري لماذا لم يجمع بين مقالات وحي القلم لجدارته بالذيوع، قال الرافعي[(١)]: «القبّعة على رأس المصري منفرداً بها دون قومه، بائناً من جملتهم، إنما هي مظهرٌ من مظاهر التحلّل الاجتماعي، وارتكاسٌ في منطق الجملـة المصرية، ونفيٌ لهذا الرقم من عبارة مجموعه، وهي في الرجال مشتقّةٌ من المصدر الذي يخرج منه التهتكُ في النساء، وكلاهما ضدٌّ من صفةٍ اجتماعية تقومُ بها فضيلةٌ شرقية عامة، ولا يهولنّك ما أقرّر لك من أن القبعة على رأس المصري تهتكٌ أخلاقي أو تهتّك سياسي، أو تهتكٌ ديني، أو من هذه كلها معاً، فإنك تعلم

(١) مجلة الهلال: مجلد سنة ١٩٢٧، وقد أعيد نشر المقال في العدد الخاص من الهلال بمناسبة مرور ٧٥ سنة على إنشاء المجلة مع مقال الدكتور عزمي ليظهر الرأيان المتعارضان.

أنّ الذين لبسوها لم يلبسوها إلاّ منذُ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة، وتحلّلت أكثرُ عُقدها، وقاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلطُ الحدود اللغوية، فحريّة المنفعة تجعلُ الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقالُ إلاّ أنّه وجَد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب، ومتى أُزيلت الحدودُ بين المعاني كان طبيعيّاً أن يلتبس شيءٌ بشيء، وأن يحلّ معنى في موضع معنى، وأصبح الباطل باطلاً بسبب، وحقاً بسبب آخر. والمقالُ جيّد متّصل التحليل، حارّ النَّفَس، وفيه كفاء أي كفاء لمن يبتغي مقطع الصواب.

هذا بعض ما قدَّمه الرافعي في حومة الدفاع عن الأعراف والمثل والتقاليد.. وأعراف الرافعي ومثله وتقاليده هي أعراف الإسلام والعروبة والشرق المتطلّع إلى الحرية والاستقلال.. فهي صوت الشرق الأصيل..

* * *

عَن الشَّعائِرِ الدِّينيَّة

نقرأُ كتب الفقه، وأبواب العبادات منها، فنجدها تكاد تكون متشابهة في سرد التعريف والأركان والشروط والفرائض والسنن، بحيث أصبحت هذه الكتب في حاجة إلى إضفاء روح ديني يجذب القارىء لاستيعابها، ولكنّ كُتب الفقه في العصور المتأخرة هي التي سيطرت بأسلوبها على التأليف المعاصر، ومن العجيب أن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي يتضمنّ أبواب العبادات هذه، ويتخذُ في تحريرها مذهباً يقرّبها من روح القارىء حين تمتزج الأحكام بالموعظة والنّصح في أسلوب سلس، وهذا الكتاب لم ينظر إليه باعتباره كتاب فقه وتشريع، بل نظر إلى بحوثه الأخلاقية والتربويّة كأنها كل شيء فيه، حتى تقرر أن الحديث عن مثل الصلاة والصوم والاعتكاف والأذان هو حديثُ أحكامٍ فحسب!!

أمّا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقد درس كتب الفقه في مصادرها المعتمدة، وجعل من بعض أبوابها مادّةً لحديثه الديني، فارتقى بهذه الفصول إلى مستوى الأدب العالي الرفيع، وأخذ القارىء ينبهر حقّاً، حين يجدُه يتحدث عن الصلاة على غير ما يعهد، وقد ظنّ أن مثل الحديث عن الصلاة والأذان والصوم

وخطبة الجمعة سيكونُ مكرّراً مُعاداً لا شيء من ورائه، فجاء صاحبُ وحي القلم بالرائع الممتاز حين تحدث عن هذه الشعائر، وأصبح ما كتبه من أرْقى نماذج الأدب الإسلامي في شتى عصوره، ولا أسوقُ القول جزافاً دون استشهاد. فلديّ الأمثلة المستوفاة عنهذا المنحى الطريف، ولستُ أغضّ من شأن ما انتقل إلينا من كتب التراث المشار إليها، فقد أدّتْ رسالتها في عصرها، ولولا ذلك ما تتابع التأليف على طريقتها، ولكنّي أطلب أن تكون مصدر إلهام فكريّ لمن يستطيع أن يتغلغل في مراميها، فيجعل الحديث عنها حديث ذوق وفنّ وأدب، كما هو حديث فرائض وأحكام.

إن المسلم يسمع الأذان فينهض إلى المسجد ويصلّي، ويسمع خطيب الجمعة،يفعل ذلك معتاداً فِعْلَه على مرّ الأيام، وكثيراً ما يسيرُ إلى أداء ذلك سيْراً آليّاً فلا يفكّر في ما جعلته العادةُ أمراً طبيعياً كالسّيْر والأكل والشراب والنوم واليقظة، ولكنّ الرافعي لهُ مع هذه الأربعة: الأذان والمسجد، والصلاة، وخطبة الجمعة؛ خواطر مؤمنة تنحدرُ من قلبه إلى قلمه فيْضاً من إلهامٍ تقيّ وثاب! لقد تحدّثَ عن الأذان في أروع مظاهر تأثيره إذْ سمِعَتٌ أذانَ الفجر فتاةٌ استطاعَ بعضُ العابثين أنَ يسوقها إلى الجريمة في خندس الليل، وتهيّأت لما هي بسبيله. ولكنّ (الله أكبر) يُردّدها المؤذن في الأرض لتصعد إلى السماء قد أحدثتْ في نفسها من الخشية والرهبة ما جعلها تنتفضُ صارخةً هاربةً قبل أن يدنس لها عرض، لقد أنقذها تأثيرُ الأذان كما ينقذ الأب ابنته الصغيرة، وقد لمحها

بين أطباق الموج، فنزل سريعاً بملابسه ليدركها قبل الفناء، يقول الرافعي[1]:

«الله أكبر! صوتٌ رهيب ليسَ من لُغة صاحبها ولا من صوته، ولا من خِسَّته، كأنّما تفرغُ السماءُ فيه ملء سحابة على رجس قلبها، فَتُنَقِّيَـهُ حتى ليس به ذرة من دنسه الذي ركبه الساعة، كان لصاحبها في حسٍّ أعصابها ذلك الصوت الأسود [قبل الأذان] المنطفىءُ المبهم المتلجلجُ مما فيه من قوة شهواته؛ للمؤذن صوت آخر في روحها، صوتٌ أحمر، مشتعلٌ كمعمعة الحريق، مجلجلٌ كالرعد، واضحٌ كالحقيقة فيه قوةُ الله!. سمعتْ صوت السلسلة وقعقعتها تُلْوى، وتُشَدُّ عليها، ثم سمعتْ صوتَ السلسلة بعينها يُكْسر حديدُها ويتحطّم، كانت طهارتُها تختنقُ فنفذت إليها النسماتُ، وطارت الحمامةُ حين دعاها صوتُ الجو، بعد أنْ كانت أسفَّت حين دعاها صوتُ الأرض.. طارت الحمامة لأنّ الطبيعة التفتت فيها لفتة أخرى.. ويكرّر المؤذن في ختام أذانه «الله أكبر، الله أكبر» فإذا...».

مضى الرافعي يذكر رحلته إلى المسجد وفي نفسه من معاني الأذان ما جعله نشيداً إسلامياً يحفِل بأرقى المعاني الإنسانية متجلّياً في قوله[2]:

«اللهُ أكبر، بين ساعاتٍ وساعاتٍ من اليوم تُرسلُ الحياة في هذه

---

(١) وحي القلم جـ١ ص٣١٦.

(٢) وحي القلم جـ١ ص٣١٩.

الكلمة نداءها تهتفُ: أيها المؤمن، إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهدْ للساعات التي تتلو، وإنْ كنت أخطأت فكفّر وامْحُ ساعةً بساعة؛ الزمنُ يمحو الزمن، والعمل يغير العمل، ودقيقةٌ باقية في العمر، هي أملٌ كبير في رحمة الله.. بيْن ساعاتٍ وساعات يتناولُ المؤمن ميزان نفسه حين يسمع: الله أكبر، ليعرف الصحة والمرض من نيّته، كما يضعُ الطبيب لمريضه بين ساعات وساعاتٍ ميزان الحرارة.

اليومُ الواحد في طبيعة هذه الأرض عمر طويل للشر، تكاد كلّ دقيقة بشرّها تكون يوماً مختوماً بليلٍ أسْود، فيجبُ أن تُقسِّم الإنسانية يومها بعدد قارات الدنيا الخمس، لأن يوم الأرض صورة من الأرض، عند كل قسم من الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، تصيح الإنسانية المؤمنة مُنَبهة نفسها: الله أكبر، الله أكبر..

بيْن الوقت والوقت من النهار والليل تُدوّي كلمة الروح: الله أكبر، ويُجيبها الناس: الله أكبر، ليعتاد الجماهير كيف يُقادون إلى الخير بسهولة، وكيف يُحققون في الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد، فتكونُ الاستجابة إلى كل نداءٍ اجتماعي مغروسةً في طبيعتهم بغير استكراه.

النفس أسْمى من المادة الدنيئة، أقوى من الزمن المخرّب، ولا دين لمنْ لا تشمئز نفسه من الدناءة بأنفةٍ طبيعيّة، وتحمل هموم الحياة بقوة ثابتة.. فلا تضطربوا هذا هو النظام، لا تنحرفوا هذا هو النَّهْج، لا تتراجعوا هذا هو النداء. لن يكبر عليكم

شيء ما دامت كلمتكم: الله أكبر.

هذا بعضُ حديث الأذان، أمّا حديثُ المسجد، فقد ردّده الرافعي في أكثر من مقال، وله في كل مقال خواطر مؤمنة تأتلق وتشعّ، ومن الخير أن تتردّد هذه الخواطر وفق مناسباتها في أماكن شتى، لأنها بوق التذكير، وصُورُ البعث. والإنسانية الهائمة في حاجة إلى النفخ في الصُّور في الحياة لتتيقظ من غفلتها، فتنهض إلى تدارك التوبة قبل أن يأتي نفخ الصور الأُخْرَوي فلا تملك أن تتوب! وكم كتب الكاتبون عن رسالة المسجد فتحدّثوا بمفردات معروفةٍ لا تزيد شيئاً عما يعلم الناس، أمّا حديث الرافعي عن المسجد فيعطي مالا يُعلم من المعاني في نَسق حيّ من التعبير كأن يقول [1]:

«ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة، والمسجد يجمع الناس بقلوبهم، ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته، فلا يفكر أحدٌ أنه أسمَى من أحد، ولقد يكونُ إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيسُ أو العظيم أو الغنيّ أو العالم، فتنظر إليه وإلى نفسك فتحسّ كأن خواطرك متوضّئة متطهّرة، وترى كلمة الكبرياء قد فقدتْ روحها، وكلمة التواضع قد وجدتْ روحها، وتشعُر بالنفس المجتمعة قد نَصبت الحرب للنفس المنفردة، ولَوْ خَطَر لك شيءٌ بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبيخاً لك،

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٢٤٤.

ونظرت إليه ساكتاً، وهو يتكلّم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، واستعْلنت لك روح المسجد كأنّها تهمّ بطردك منه، وخُيّل إليكَ أنّ الأرض ستلطُم وجهك إذا سجدت عليها [هذا عند من يستشعر الزهو] وأيقنت من ذات نفسك أنْ لست هناك في دُنياك، وليس صاحبُك في دنياه، وإنما أنْتُما هناك في إنسانيةٍ ميزانُها بيد الله وحده، فلا تدْري أيكما الذي يَخفّ، وأيّكما الذي يثقل».

وحديث المسجد في ساعة السحر حين يعج بالناس، وكلٌّ قائم أو راكعٌ أو ساجد، أو قارىءٌ لكتاب الله، مما أجادهُ الرافعي. وروحُ التقوى التي تظلّل الناس في وجه هذا المعبد، قد وجدتْ شاعرها الملهم فيما سَجّل الرافعي من حديث أبيه في خلوته المسجديّة في شهر رمضان. فلأُشرِ إلى ذلك ليبحث عنه من يُشَاقُ إليه، وكلّنا طَرِب مشوق، أما حديثُ الصلاة في المسجد، فقد قال الرافعي في نِطاقها مالم نسمعه من غيره. فقد حلَّل خطوات المؤمن نحو ربّه حين يهمّ بالصلاة حتى يفرغ منها تحليلاً ينفح بالشعر، مع إقناعه للفكر، وهذا التحليل الرائع لخطوات التوجه للصلاة، فالقيام نحو القبلة، فالركوع فالسجود فالجلوس فالتسليم يُضائله وينقصُ من قدره التلخيصُ بل يشوهه تشويها، فلا مناص من أن نلمّ به مذكرين.

قال الرافعي [١] رحمه الله:

«بالانصراف إلى الصلاة، وجمع النيّة عليها يستشعرُ المسلم

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص ١٣.

أنّه قد حطّم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرج منها إلى روحانية لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يُحقق المسلم لذاته معنى إفراغِ الفكر السّامي على الجسم كلّه، ليمتزج بجلالِ الكون ووقاره، كأنّه كائنٌ منتصب مع الكائنات يُسبّح بحمده.

وبالتولّي شطر القبلة في سَمْتها الذي لا يتغيّر على اختلافِ أوضاع الأرض، يعرفُ المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة، فيحملُ قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقلقها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله، يُشْعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كلّ ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة، وقراءة التحيات الطيبات يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلِّم على نبيّه وملائكته ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة، يُقْبِل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة.. هي لحظات من الحياة في كل يوم، في غير أشياء هذه الدنيا، لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمسَ مرات كلّ يوم عن النفس، فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعرُ الروح أنها تنمو وتتّسع.

هي خمسُ صلوات، وهي كذلك خمسُ مرات، يَفْرَغُ فيها

القلبِ مما امتلأ به من الدنيا، فما أدقّ وأبدع وأصدق قوله ﷺ: «جُعِلَتْ قرةُ عيني في الصلاة».

وحديث آخر عن الصلاة، جاء به الرافعي في قصة (مارية) الأسيرة المكرمة التي شهدتِ المسلمين ينهضون للصلاة حين صاح المؤذن (الله أكبر)، ولم تكن تدري عن الصلاة الإسلامية شيئاً، فسألتْ صاحبها الذي يقتادها عن حقيقة ما تشهد وتسمع فقال لها [1]:

«إن هذه الكلمة [الله أكبر] يدخل بها المسلمون في صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمن أنّهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم، وكأنّهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود، فإذا أعلنُوا انصرافهم عن الوقت، ونزاع الوقت، وشهواتِ الوقت، فذلك هو دُخولهم في الصلاة، كأنّهم يَمْحون الدنيا من النفس ساعةً أو بعض ساعة، ومحوُهَا من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها، ألا ترَيْن هذه الكلمة قد سَحرتْهم سحراً فهم لا يَلْتفتون في صلاتهم إلى شيءٍ، وقد شملتْهم السكينة، ورجعوا غير ما كانوا، وخشعوا خشوعَ أعظم الفلاسفة في تأملهم».

لقد تحدث الرافعي عن الأذان فالمسجد فالصلاة، واليومُ الذي اختاره يومُ جُمعة، فلابدّ أن يتحدث عن الخطيب ـ والخطيب لعهد الرافعي ولما بعد عهده ـ لا يُرضي السّامع المثقف فضلاً عن

---

(١) وحي القلم جـ١ ص٢٥.

إرضاء نابغةٍ كبير كالرافعي، لأنّ الخُطب المنبرية في أكثرها موْسمية، ومكررة أَلِفها السامعون وكادُوا يحفظونها، هذا بالنسبة للكثرة لا بالنسبة للقلة، إذ لدينا خطباءُ يرجّون المساجد رجا بوعظهم المعاصر الذي يُعالج قضايا الناس، لا المتخلف الذي يتحدّث عن اليوم الآخر والجنة والنار وما شئت من أبواب التخويف تاركاً ما يجب أن يفيد به السامع، ولا أنكر حديث اليوم الآخر والجنة والنار، فهو حديثٌ يجب أن يُعرف، ولكنّي أقول إنه حديث مشْتَهرٌ يعرفه السّامع قبل أن يأتي إلى بيْت الله مستعداً للإفادة من جديد يضاف إلى رصيده. ومن سوء حَظّ الخطيب الذي استمع إليه الرافعي أنّه لم يقل شيئاً يهمّ الناس، فتبرم به السامعون، حتى أن ريفياً ساذجاً جعله الرافعي يُعلن هذا التبرم فيقول: إنّ خطيب المسجد قد غشَّنا فما ينبغي أن تكون خطبةُ المسلمين إلاّ في أخص أحوال المسلمين! سَمع الرافعي هذا النقد الفطري الصريح فقال تعقيباً عليه [1]:

«نبّهني هذا الرجلُ الساذجُ إلى معنىً دقيق في حكمة هذه المنابر الإسلامية، فما يريدُ الإسلام إلاّ أنْ تكون كمحطاتِ الإذاعة، يلتقط كلُّ منبر أخبار الجهات الأخرى ويُذيعها في صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب، فتكونُ خطبةُ الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع، وبهذا لا يجيءُ الكلام على المنابر إلاّ حيّاً بحياةِ الوقت، فيصبحُ الخطيب

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٢٤٧.

ينتظره الناس في كل جمعة انتظار الشيء الجديد، ومِن ثمّ يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل».

هذا خطيبُ المسجد الذي نالَ من نقد الرافعي ما يجبُ أن يلتفت إليه الخطباء جميعاً، أما قارىءُ القرآن في المسجد فقد سمعهُ الرافعي في غير هذا اليوم؛ سمعَهُ عند صلاة الفجر في ليْلة من ليالي رمضان فأثّر في وجدانه الرقيق ومَلك عليه أقطار نفسه، إذ صادفتْ معانيه وقراءَتهُ وتراً شجيّاً من نفس الكاتب الكبير، فكتب عنه مقالاً رائعاً تحت عنوان (قرآن الفجر) جاء فيه[1]:

«كانَ صوتُه على ترتيب عجيب في نغماته، يجمع بين قوة الرقة وبين رقّة القوة، ويضطربُ اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرحُ على فجأة، يصيحُ الصيحة تترجّح في الجو وفي النفس، وتتردّد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلامُ الإلّهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيرفضّ عليها بمثل النّدى، فإذا هي ترفّ رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطّل.

وسمعنا القرآن غضّاً طرياً كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل، يدور في النفس كأنه بعضُ السر الذي يدور به في نظام العالم، وكان القلبُ وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه.. واهتزّ المكان والزمان، كأنما تجلّى الله سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقفٌ يستأذن الله

---

(١) وحي القلم جـ٣ ص٣٠.

أن يُضيء من هذا النور [ما أبدع هذا].

وكنا نسمعُ قرآن الفجر، وكأنّما مُحيت الدنيا التي في الخارج من المسجد، وبَطَل باطلها، فلم يبق على الأرض إلاّ الإنسانيةُ الطاهرة ومكان العبادة، وهذه هي معجزةُ الروح متى كان الإنسان في لذّة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية».

هذا بعض حديث الرافعي عن المسجد بصلاته وخطبته وقرآنه، أما حديثُ الرافعي عن الزكاة فلا يمكن حصره في هذا الفصل، لأن الكاتب الكبير عالج مشكلة الفقر في كتاب مستقل هو كتاب (المساكين)، علاجاً يتّخذ تشخيصه الشافي من فريضة الزكاة، كما تحدّث في أكثر الفصول الاجتماعية عن حق الله في هذه الأموال السائلة كالمطر المنهمل في أيدي الأغنياء، وأبرز عاقبة الشح والبخل والأثرة في الحياة الدنيا، فضلاً عن عقاب الآخرة لمن يجمعون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بما لو أصاخ له القارىء لتخلّى عن كل شيء عدا ما يمسك الزمن إن كان ممن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ونبض الرافعي في هذه الأبواب لا يعلوه نبضٌ جاراه في هذا المضمار، ولو وشحتْ كُتُب الزكاة بقبسات الرافعي لارتفعت بقارئها فوق مستواه، ولدفعته من القراءة إلى سرعة التنفيذ إذا كان ذا حسٍّ نبيل. . .

أما شعيرة الصوم فما أكثر ما قال فيها الكاتبون، وقد اعتدنا أن نقرأ طيلة شهر رمضان صحيفةً كاملة من كل جريدة يومية تصدر في أكثر ربوع العالم الإسلامي حافلةً بمزايا الصوم، وبالحديث

الذائع عن أثره في صحة البدن والعطف على الفقير، وتقوية الإرادة، وإخضاع النفس، ولكن هذه العناصر تساق مساق القواعد المقررة لدى من يكتبونها، وكأنّها موادّ في كتاب قانوني، وهي من الوجازة والاقتضاب بحيثُ تصلح أن تكون سؤالاً مدرسيّاً مؤداهُ: اذكرْ فوائد الصيام، فتجتمع الإجابة في هذه العناصر المبتورة، وكأنها مسألة حسابية يقال فيها ما جمع الخمسة إلى الخمسة، فتكون الإجابة عشرة وكفى!! اعتدْنا ذلك كلّه، ولكننا لم نعتدْ أن نسمع من يقول كما قال الرافعي[1]:

«الصومُ فقرٌ إجباري تفرضُه الشريعة على الناس فرضاً، ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواءٌ منهم مَن ملك المليون من الدنانير، ومَن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً، كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع.

فقرٌ إجباري يُراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقةٍ عملية واضحة كلّ الوضوح أنّ الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمّها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد، لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعدّدة.

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٦٧.

ومن قواعد النفس أنّ الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعضُ السّر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبالغ أشدّ المبالغة، ويدقق كل التدقيق في مَنْع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدّةً آخرها آخر الطّاقة؛ فهذه طريقةٌ عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث. . ومتى تحققتْ رحمةُ الجائع الغني للجائع الفقير أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانُها النافذ، فيسمع الغني في ضميره صوتَ الفقير يقول: أعطني، ثم لا يسمعُ منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفرّ من تلبيته والاستجابة لمعانيه، كما يُواسي المبتلى من كان في مثل بلائه».

ثم اتجه الرافعي إلى النص القرآني القائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، فيخالف المفسّرين في المراد من لفظه ﴿ تَتَّقُونَ ﴾ إذ يرونها من التقوى، والرافعي يراها من الاتّقاء قائلاً في تعليل ذلك[1]:

«لقد فهمها العلماء جميعاً على أنها من التقوى، أما أَنا فأوّلتُها من الاتقاء، فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعتُه معدتُه، وألاّ يُعامَل في الدنيا إلاّ بمواد هذه الشريعة، ويتّقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان، يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف، وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإن ما بين يديْه هو

---

(١) وحي القلم جـ٢ ص٧١.

الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه للحاضر، ويعمل بالحاضر للآتي».

ولكي يكون التأويل الرافعي لكلمة التقوى مستند إلى دليل، ذكر المؤلف في الهامش: إن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه أن يؤيّده بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة يس: ٤٥] ويشيرُ إلى هذا التأويل قول النبي ﷺ: «إنما الصوم جنّة، فإن كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امْرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقلْ إني صائم، وإني صائم» والجُنَّة هي الوقاية يتّقي بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه صام، ليتّقي شر حيوانيته وحواسه، فقولُه إني صائمٌ إنّي صائم أي إني غائبٌ عن الفحش والجهل والشر، إنّي في نفسي، ولست في حيوانيتي.

أتراني بعد هذه الإلهامات اللطيفة، والاستشفاف البصير في حاجة إلى أن أعلّق على تأويل الرافعي وهو في غُنْية عن كل تعليق!!

* * *

عن علماء الإسلام

حين سقطت الخلافة على أيدي المتآمرين على حكم الله، نهض قوم من علماء الأزهر يكتبون في الصحف اليومية مستنكرين ما قام به كمال أتاتورك من محاربة الشريعة في أقوى مظهر لها، وهو الخلافة الإسلاميّة، ولكن الذين في قلوبهم مرض قد شغبوا على العلماء في غير هوادة، وتجرؤوا على التاريخ الإسلامي حين حكموا بأنّ علماء الإسلام في كل العصور كانوا مطايا للظالمين، وأبواقاً للفساد السياسي، وتحولوا إلى علماء تركيا في عهد الخلافة فرموهم بالرشوة وسلب الأموال، وافتروا على الله الكذب في كل ما قالوه إذ لم يُقدّموا دليلاً واحداً على صحة هذه المفتريات، وقد ردَّ الأساتذة: علي سرور الزنكلوني وعبد الباقي نعيم سرور وعبد ربه مفتاح من علماء الأزهر، على كل ما قيل من الأراجيف، ونظر الرافعي فوجد أنّ تاريخ العلماء في عصور الإسلام لم يُكتب على وجهه الصحيح، حين ظلّ مهملاً في كتب الطبقات، دون أن يرجع إليه باحثٌ ما فيظهرُ ما كان لهؤلاء الأعلام من سطوات جبّارة في وجه الباطل، ومن ثم أخذ يكتب سلسلةً أدبيّة عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان في غير هوادة، ليقول للمنكرين إنكم لم تقرؤوا التاريخ، أو قد تكونون قرأتُموه،

وغلب عليكم شيطانُ المراء، فأبْدلتُم الحقّ باطلاً.

وقلمُ الرافعي في مضمار التصوير التاريخي لا يلحقُه مصوّرٌ مهما افتنّ في صنعته، لذلك جاءت كتاباته عن سعيد بن المسيب وأبي عامر الشعبي ومالك بن دينار وأحمد بن حنبل والحسن البصري والعز بن عبد السلام وغيرهم من أفذاذ الأبطال، أبطال الفكر النزيه، والرأي الصريح، مما أحدث التفاتةً كبرى لدى المثقفين، حيث وُلدت القصّة الإسلامية على يد الرافعي فيما صوّر من أحداث ورسم من شخصيات، وللرافعي مفهوم خاص في كتابة القصّة، لا يتقيّد فيه بما تُعورف من خطوات العمل القصصي، ولكنه يذكر الحادث في ثوب القصة، ثم يفتح باباً للتحليل الأدبي، والتفسير النفسي يكشفُ عن مدلول هذه الأحداث، ولم يقل للقارىء إنه يكتب قصةً أدبيّة حتى نُحاكمه في ضوء ما نعرفُ من مقررات التأليف القصصي، ولكنّه يخاطب القراء بما يراه مجالاً للتأثير في شعوره النفسي تاركاً لقلمه أن يجمع المقال والقصة في ثوب واحد، وقد كان لاتجاه الرافعي صدىً بعيداً عند أصحاب الفكرة الإسلامية من كبار المبدعين، فأخذوا يتأثرون باتجاهه في اختيار المواقف الهادفة، والنماذج العليا لذوي الشموخ الباذخ من كبار العلماء، وأذكر في هذا الصدد الكاتب القصصي الكبير علي أحمد باكثير، حيث اختار من شخصيات أبطاله بعض من عناهم الرافعي بالحديث مثل عبد الرحمن القس في روايته (سلامة القس)، ومثل العز بن عبد السلام في رواية (وإسلاماه)، وكذلك فعل أساتذةٌ من مؤلفي القصص مثل

محمد سعيد العريان وعبد الحميد جودة السحّار ومحمد عبد الحليم عبد الله في بعض ما اتجهوا إليه من تصوير الشخصيات الإسلامية ذات الأثر المدوّي على مدى الأعوام. فالرافعي إذن رائد القصة الإسلامية بما أبدعَ من آثار نبّهت الأذهان إلى جلال العلم وسطوة العلماء، وإن اختلف منهجه التأليفي عن هؤلاء جميعاً.

نحن نعرفُ قصة سعيد بن المسيب حين جابه أمير المؤمنين بدمشق عبد الملك بن مروان، ولم يَقْبل أن يُبايع ولَده الوليد وليّاً للعهد، لأنّه مرتبطٌ بمبايعة سابقة لا ينقُضها أمام الله إلاّ موتُ عبد العزيز بن مروان صاحب المبايعة الأولى، وقد تعرض لفنونٍ من الإغراء الماديّ فجعل ذلك كلّه تحت قدمه، كما رجع أمير المؤمنين إلى صوابه فأراد أن تكون ابنةُ سعيد زوجة لوليّ عهده، فيقول الناس إنّ سعيد بن المسيب يحبذ الخلافة ويأخذ بناصر أمير المؤمنين، وهذا ما فهمه ابن المسيب حين رفض أن يكون صِهراً لعبد الملك!! وأن تكون ابنتُه زوجَةً للخليفة المنتظر، ثم عجل بزواجها لطالبِ علمٍ فقير ليقطعَ الطريق على من يُلحّون عليه في قبول المصاهرة. هذا كلُّه مذكور مسطُور في كتب التاريخ، ولكنّ الرافعي جاء بالبِدْع البديع حين تحدّث عنه بقلمه المؤمن النافذ إلى أعماق النفوس محلّلاً صلابة المؤمن، ودهاء الحاكم، وكيد الرسول المبعوث من قبل الحاكم، حتى وقف القارئون في دهشةٍ مما اهتدى إليه الرافعي في تحليله الجاذب، وتحليقه الخالب، وهو ما عبّر عنه الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي حين وجّه

على صفحات (الرسالة) كتاباً للأستاذ الرافعي قال فيه [1]:

سيّدي: أَعِرْني هذا القلم السحريّ الذي تكتب به، لأصف لك الشعور الذي غامرني وإخوتي هاهنا حين قرأنا فصلك الأخير (قصة زواج)، فما أدْري والله كيف أصفُه لك!! وقد والله قرأناهُ مثنى وثلاث ورباع، وقد والله قَطعْنا القراءة مرّةً وثانية وثالثة، لأنّنا لم نكنْ نملك نفوسنا أن تَفْلِتَ من قيود المادة، وتنفذ بين السطور إلى عالمٍ أسمىٰ وأوسع، تطيرُ في أرجائه لتلحق بهذه البلاغة العلوية التي تسمُو بتاليها وتسمو، حتى تدنو به من حدود العالم الكامل: عالم القرآن، وتُريه حقيقةَ ما قاله فيها (سعد زغلول) بطل الشرق: «كأنّها تنزيل من التنزيل» فقد والله خرجنا منها، وكأنّنا لم نَعْرِف عبد الملك أمير المؤمنين وسعيداً سيد التابعين إلا هذه الساعة، فإذا أنت قد نقلت الملك والجلال من ذاك إلى هذا، وإذا مقالةٌ واحدة منك تغْلبُ عبد الملك على جيوشه وأمواله وملكه، ثم تجرده منها، ثم تعرضُه جسداً هزيلاً، وتمنحُ سعيداً على فقره وتواضعه أسمَى العظمة والهيبة والجلال حتى يقول: هذا أنا، فترددها ملائكة السماء، ويقول: ذاك أنا فتستحي أن تعيدها شياطين الجحيم، وأُقسم لقد سمعت هذه القصة وقرأتها وحَفِظْتها، وحدّثت بها، وانحدرتْ بين أذني ورأسي ولساني عشرين مرّة، ثم كأني لم أسمع بها إلا الآن، وكنتُ في ليل مظلم، فطلعتْ عليَّ مقالتُك شمساً ساطعة، عرفتُ معها كيف تكون

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٩ في ٢٩/ ١٠/ ١٩٣٤م.

حُصيّات الليل لآلىء النهار، فما بالك بمن لم يسمع باسم سعيد، وما بالُك بمن لم يعرفْ في الدنيا أدباً، إلاّ الأدب الذي يسقط علينا من (باريس)، أو (لندن)، أو (بُويْنِس إيْرِسْ)، ولا يدري من البلاغة إلاّ أنها تلوح بين سطورها رؤوس البنادق وأفواه المدافع، وأجنحة الطيارات.

إلى أن قال الطنطاوي: «وعندنا أنّك إذا استكثرتَ من هذا النوع، غطّيت على خيام أهل الجديد، ودُورهم المبنيّة من الطين والقشّ بقصرٍ شامخ من الصخر يثبتُ ما ثبت الدهر، وعندنا أن مئة قصّةٍ من مثل هذه القصّة تُنشىء الأدب العربي إنشاءً جديداً، وتُخْرجُ من الشيخ الهرمّ الفاني الذي ينتظر الموتَ، شاباً قوياً مهيباً، جاء يستأنف الحياة بحنكة الشيخوخة، وتجعل من الأدب العربي أدبيْن، أدب أربعة عشر قرناً، وأدب الرافعي».

لقد أبدع الأستاذ الكبير علي الطنطاوي ـ أمد الله في عمره ـ بما كتب عن قصة سعيد بن المسيب، وهو نموذجٌ متعدد الألوان فيما كتب الرافعي من القصص التاريخي في وحي القلم بأجزائه الثلاثة، وقد كفانا التعليق على هذا النمط من البيان العربي الذي يقف فيه الرافعي وحده أمام أدباء العربية في مدى أربعة عشر قرناً، ومن المؤسف أنّ هذا الباب العالي قد أُوصِد بعد الرافعي إذ لا يستطيعُ أن يلجه سواه، وكيف؟!

لقد تحدّث الرافعي عن الحسن البصري كما تحدث عن سعيد بن المسيب فصوّرهَ في وعظهِ وورعه وشدة نفوذه الروحي

بما بلغ حدّ الروعة، وكذلك فعل في جلّ من تعرَّض للحديث عنهم من علماء السلف الصالح، أما الذي اختص به الحسن البصري فهو ما وُفّق إليه الرافعي من تصوير يوم رحيله، ومشهد جنازته، فقد ترك الرافعي الدنيا ليأتي إلينا بطيوف الآخرة ذات البدع والسحر، وليجعل القلوب تثبُ من الصدور وثباً، حين ترى عالم الجنازة غير ما تعرف من جنازات الناس، وحين ترى الأرض غير الأرض، وترى السماء غير السماء!! إنّ بعض ذلك ليتجلّى في قول الرافعي على لسان من اختصّه بالحديث عن الحسن [(١)]:

«أصبحنا يوم الجمعة ففرغْنا من أمره، وحملناه بعد الصلاة، فتبعَ أهلُ البصرة كلّهم جنازته واشتغلوا به، فلم تُقم صلاة العصر بهذا المسجد، وما تُركتْ منذ كان الإسلام إلا يومئذ، ومثل الحسن لا تموتُ ساعةُ موته من عمر من شهدها، فذلك يوم عجيب قد لَفّ البصرة كلَّها في كفن أبيض، فما بقيتْ في نفس رجل ولا امرأة شهوةٌ من شهوات الدنيا، وفرغ كل إنسان من باطله كما يفرغ مَنْ أَيْقَنَ أنه ليس بينه وبين قبره إلاّ ساعة، وظهر لهم الموتُ في حقيقةٍ جديدة بالغة الروع، لا يراها الأبناء في موت آبائهم وأمهاتهم، ولا يراها الآباء والأمهات في موت من وَلَدوا، ولا المحبُّ في موت حبيبه، ولا الحميم في موت حميمه، فإنّ الجميع قد فقدوا الواحد الذي ليس غيره في الجميع، وكما يموتُ العزيز على أهل بيتٍ فيكون الموتُ واحداً، ويتعدد فيهم معانيه،

---

(١) وحي القلم ج ١ ص ٢٣٠.

كذلك كان موتُ الحسن موتاً بعدد أهل البصرة!!

ذلك يوم امتدّ فيه الموت وكبر، وانكمشت فيه الحياة وصغرت، وتحاقرت الدنيا عند أهلها، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يُلقى فيها الملوك والصعاليك، والأخلاط بين هؤلاء وأولئك؛ لا يصغر عنها الصغير، ولا يكبر عنها الكبير، لا بلْ دون ذلك، حتى رجعتِ الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعراء، تنكشف للأبصار عن شَوْهاء نجسة قد أرمّت لا تطاق على النظر، ولا على الشم، ولا على اللمس، وما تتفجَّر إلاّ عن آفة، وما تتفجَّر إلا لهوام الأرض».

هذا المشهد الحزين مما يروق الرافعي أن يسجّله لحكمة يريدها، فالناسُ عن الموت في شغل شاغل، وقد يشيِّعون الجنازة، وأمامهم النعش السّائر في طريقٍ لا تعطف أخراه على أولاه، وهم يتحدثون في شؤون المال والدرجة والملبس، فإذا صرخ الرافعي هذه الصرخة الجبارة فما أحرى النفوس النائمة أن تستيقظ!!

وإذا كان منظرُ الموت في جنازة الحسن قد أمضّ النفوس، وأسال العيون، فإنّنا ننتقل إلى مشهد آخر وضيء، ليس من مشاهد الدنيا، ولكنه من مشاهد الآخرة أيضاً، هو مشهد الوضوء الذي يسبق الصلاة.. مشهدٌ حكاه الرافعي على لسان فقيه الأمة وعالمها عامر الشعبي، إذ حاول أن يأخذ بيد إنسان منهار، ضائقٍ بيومه يائسٍ من غده، وقد أراد الانتحار خُلوصاً من حياة سوداء لا يرى

فيها برقاً يلمع، فوعظه الشعبيُّ بما جعل خفقان فؤاده يهدأ قليلاً قليلاً حتى استقر، وبدت له رحمة الله فيما فتح الشعبي عليه من نوافذ الأمل، فلم يشأ الفقيه العالم الكبير أن يترك هذه الفرصة تمرّ دون أن يُثبتها بأمتن الأوتاد في أرض نفسه، كيلا تزعزعها الأعاصير مرة أخرى. ولا تثبت هذه النفس الحائرة إلا بالإيمان، وما يثبت الإيمان إلا بالتوجه الصادق الخالص إلى الله في الصلوات الخمس، وما تُبْتدأ الصلاة إلا بالوضوء المطهر من الأدران!! والناس يتوضؤون فيهيلون الماء على أعضائهم دون أن يُدركوا من أسراره شيئاً، والشَّعْبي يعلم ذلك عن الناس، وعن هذا البائس بالذات حين ضاقت عليه الأرض بما رحبت فآثر الانتحار، لقد نصحه الإمام الشعبي بالصلاة، وأمره بالوضوء، فأخذ يشرح له كيف يتوضأ، وحكى الرافعي ذلك فيما قال على لسان الشعبي[1]:

«قم فتوضأْ فأسبغ الوضوء، وسأعلمك أمراً تنتفع به في دينك ودنياك: إذا قُمت إلى وضوئك، فأيقنْ في نفسك، واعزم في خاطرك على أنّ في هذا الماء سرّاً رُوحانياً من أسرار الغيب والحياة، وأنّه رمزٌ للسماء عندك، وأنك إنما تتطهر به من ظلماتِ نفسك التي امتدتْ على أطرافك. ثم سمِّ الله تعالى مفيضاً اسمه القادر الكريم على نفسك وعلى الماء معاً. ثم تمثّلْ أنّك غسلت يديك مما فيهما، ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا، وأنّك آخذ

---

(١) وحي القلم ج ٢ ص٩٨.

فيهما من السماء لوجهك وأعضائك، وقرِّرْ عند نفسك أنّ الوضوء ليس شيئاً إلاّ مسحةٌ سماويةٌ تسبغها على كل أطرافك، ليشعر بها جسمك وعقلك، وأنّك بهذه المسحة السماوية تستقبلُ الله في صلاتك سماويّاً لا أرضيّاً. فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادةً لك، فإن الوضوء حينئذ ينزلُ من نفسك منزلة الدواء، كلّما اغتممت أو تكرهت أوتسخّطْت، أو غشيَك حزن أو عَرض لك وسواس، فما تتوضأُ على تلك النية إلا غسلت الحياة، وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة، وترى الماء تَحْسَبُه هدوءاً ليّناً لِيْنَ الرضى، وإذا هو ينساب في شعورك وأحوالك جميعاً».

هذا بعضُ ما ذكر الرافعي عن الوضوء على لسان الشعبي، فما ضَرَّ الذين يتحدثون عن الوضوء في كتاب الطهارة أن يأخذوا معاني الرافعي فتُصاغَ في عبارات سهلة، وتُقدَّمَ للقارىء كي تتصل بروحه، بعد أن وصلت فروض الوضوء ونواقضه إلى عقله، ما ضرّ الذين يتحدثون عن الصلاة أن يأخذوا معاني الرافعي في وصف التكبير فالركوع فالسجود فالتحيّات فالتسليم فتُقدم للقارىء لتتصل بروحه، ما ضرَّهم لو فعلوا ذلك حين يتحدثون عن الصيام!! ألا يكونُ التأليف الفقهيّ في العبادات حينئذ غضّاً طرياً!! لقد أبعدتُ النجعة حيث أظنني في وادٍ وغيري في واد آخر!!

ونرجع إلى حديث الأعلام من علماء الإسلام، فأذكر أن ريشة الرافعي قد جمعتْ بين الإمام تقي الدين بن دقيق العيد، والإمام عز الدين بن عبد السلام في فصلٍ واحد، وما كان الرافعي بعاجزٍ

عن أن يكتب عن كلّ إمام منهما فصلاً مستقلاً، فنحن نعلمُ أن حديثه عن هؤلاء الأجلاء كالبحر حين يمتدّ موجه جياشاً متدفقاً لا يعرف الاستقرار حتى يأتي على آخر ما ينتهي إليه نابغةٌ وثاب. ولكنه آثر أنْ يأتي بحديث العزّ بن عبد السلام بطل الرأي الحرّ، وصاحب المواجهة المعجزة على لسان ابن دقيق العيد، ليتحدّث إمامٌ عن إمام، فيكونُ لحديث المتماثليْن صدىً جوّاب في نفس القارىء. ومن ابنُ دقيق العيد هذا؟ إنّه كما تحدث عنه الرافعي فقال في فصله العجيب الذي عقده تحت عنوان (أمراء للبيع)، وهو فصلٌ بدأ به الرافعي الكتابة الأدبية عن عز الدين بن عبد السلام في هذا العصر، فكأنّما بنى مدينةً عامرة بالقصور، لأنّ كُتاب القصة، وأرباب المقالات الأدبيّة قد بهرهم ما كَتَب الرافعي، فهبُّوا يُترجمون ويقصون ويسهبون، حتى من لم يهتمّوا بتاريخ الإسلام خَلبَهم هذا الموقف الجبار للعزّ حين نادى ببيع الأمراء وهم حكّام الأمة غيرَ وَجِلٍ ولا هياب، فانطلقُوا يتحدثون عن سطوة العزّ وهو أعزل، واعتزازه بالحق وهو وحيدٌ إلا من تأييد ربّه!! فماذا قال الرافعي [1] أولاً عن تقي الدين بن دقيق العيد ـ وإن نَسَبَ الحديث إلى بعض تلاميذ الشيخ كعادته فيما يصطنع من الحوار الفريد ـ ؟!

قال الرافعي: «كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقيّ الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله

---

(١) وحي القلم ج ٣ ص٥٢.

يا إنسان! فما يخشاه ولا يتعبّد له ولا يَنْحَلُه ألقاب الجبروت والعظمة، ولا يُزيّنه بالنفاق، ولا يداجيه كما يصنع غيرهُ من العلماء. وكان هذا عجيباً، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكنْ يخاطب أحداً من عامّة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان)، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزلُ بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية».

ثم قال الرافعي على لسان تلميذ ابن دقيق العيد: «قلت له: سيدي أراك تُخاطب السلطان بخطاب العامة، أفلا يسخطه منك هذا، وقد تذوّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع؟ فتبسّم الشيخ وقال: يا ولدي إنّ الكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه، لا بمعناها في نفسها، فما يحسنُ بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردّه الشرع عليه؛ ولَوْ نَافَق العالم الدينيّ لكان كلُّ منافق أشرفَ منه، فلطخةٌ في الثوب الأبيض ليس كلطخةٍ في الثوب الأسود، والمنافقُ رجلٌ مغطّى في حياته، ولكنّ عالم الدين رجلٌ مكشوف في حياته لا مغطّى، فهوَ للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة، وذاك ـ المنافِق من غير رجال الدين ـ يتصلُ بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب، والعالم يتّصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغشّ وخان».

أما ما قاله الرافعي عن العز بن عبد السلام على لسان تقي الدين بن دقيق العيد، حين جابه الأمراء بأقسى ما يُوجَّهُ إليهم في الحياة إذ جعلهم عبيداً لا يصلحون للحكم إلا إذا بيعوا، وقُبضت أموالُ بيعهم، فتحرروا من الرق!! وقد هاج هائجهم، ولكنّهم

لا يَدْرون ما يصنعون، وهمْ أمام حكم الله يُصدره سلطان العلماء، أمّا ما قال الرافعي على لسان الشيخ فهذا بعضه [1]:

«وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة، فبعث إلى الشيخ يلاطِفُهُ ويسترضيه، فلم يعبأ الشيخ به، فهاج هائجه وقال: كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادي علينا وينزلُنا منزلة العبيد، ويفسد محلنا من الناس، ويَبْتَذِلُ أقدارنا ونحن ملوكُ الأرض؟ وماذا الذي يفقدُ هذا الشيخ من الدنيا فيدركُ ما نحن فيه؟ إنّه يفقد ما لا يملك، ويفقدُ غير الموجود، فلا جرم لا يُبالي ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأي لا يمرّ في منافعه، ولا في شهواته، ولا في أطماعه، كالّذين نراهم من علماء الدنيا، أما والله لأضربنّه بسيفي هذا، فما يموتُ رأيه وهو حيٌّ. ثم ركب النائب في عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه. . .، ورآه الشيخ فما اكترث، إذ ليس فيه الإنساني بل الإلّهي؛ ونظر إلى نائب السّلطنة وفي يده السيف، فانطلقتْ أشعّة عينيه في أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها»!!

ودار حوار صوّره الرافعي بسحره إلى أن أعلن نائب السلطنة استسلامه فتم للشيخ ما أراد!!.

ولا أدري كيف ذاع حديث الرافعي عن عز الدين بن عبد السلام فتناوله القصّاص والكتاب بالتأليف والدراسة ولم يُذَع حديثه عن الإمام أبي الحسن بنان الحمّال الزاهد حين واجَه

---

(١) وحي القلم ج ٣ ص٥٧.

ابن طولون في جبروته الآثم، فاستشاط الحاكم بأمره غضباً، وأمر بإحضار أسد شرس من آسادِ ولده خمارويه ليأكل الشيخ مفترساً جزاءً على تهجمه بالحق، وجلس الشيخ. وخرج الأسد الجائع، فطاف حول الشيخ، ولم يمسسه بسوء، وارتاع ابن طولون لهول ما وجد من كرامة الشيخ، فتخاذل وذهب ليسترضيه، قال الرافعي يُصوِّر الموقف الرهيب، الرهيب حقاً!! بأروع ما يحتمل هذا اللفظ من معان [١]:

«وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيماً ضارياً، عارم الوحشيّة، متزيِّل العَضَل، شديد عصب الخلْق، هرّاسا فرّاسا، أهرت الشدق يلوحُ شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، يُنبىء أنّ جوفه مقبرة، ويظهرُ وجهه خارجاً من لبدته، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله.

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع، وهَجْهجوا بالأسد يَزْجرونه، فانطلق يُزمجر ويزأر زئيراً تنشقّ له المرائر، ويتوهّم من يسمعه أنّه الرعد وراءه الصاعقة!!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعرَّ، ثم تمطّى كالمنجنيق يقذفُ الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين، ورأيناهُ على ذلك ساكناً مطرقاً، لا ينظرُ إلى الأسد، ولا يحفل به، وما مِنّا إلاّ مَنْ

---

(١) وحي القلم ج ٣ ص٥٠.

كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل!!.

ولم يَرُعْنا إلا ذهول الأسد عن وحشيّته، فأقعى على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنيهةً يفترش ذراعيْه، ثم نهض نهضةً أخرى، كأنه غير الأسد، فمشى مترفّقاً ثقيل الخطو، تُسمع لمفاصله قعقعةٌ من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحْتكّ به ويلحظه ويشمّه، كما يصنعُ الكلب مع صاحبه الذي يأنسُ به، وكأنّه يعلن أنّ هذه ليست مُصاولةً بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزةٌ بين إرادة ابن طولون وإرادة الله»!!

ثم ماذا؟! لقد جرى الرافعي إلى غايته فتملّك ناحية التأثير، فهل أنقل كلّ ما قال؟! وإنه لرائع خلوب!!

* * *

عن المرأة

بعضُ الذين يتحدثون عن الرافعي - ولهم شهرة في الصحافة - لم يقرؤوا كتبه، ولم يعرفوا ما قاله عن المرأة، فأخذوا يعدّونه عدوّاً لها، إذ يُطالب بسجنها الأبدي خلف الجدران، وهذا باطلٌ لا صلة للحقيقة به، وكلّ ما يؤلمهم من الرافعي أنه يدعو إلى تصوّن المرأة، وعدم تبذلها بالتبرّج الخادع. وكل أب مسلم أو غير مسلم يوافق الرافعي في اتجاهه، بل إن الذين يحاربون الرافعي في دعوته للاحتشام لا يسمحُون لبناتهم وأخواتهم وأزواجهم بأدْنى مظاهر التحلّل الخلقي، فكيف يُحاربون من يجعل الأمة الإسلامية كلها أسرةً له، يدافع عن شرفها وكرامتها، ويعدّونه رمزاً للتخلف والرجعية والانكماش!!

هؤلاء الكتاب أيضاً ظلموا قاسم أمين كما ظلموا الرافعي، ولكن من جهة ثانية، إذ حسبوه في كتابي (تحرير المرأة) (والمرأة الجديدة) داعيةً للتحلّل والتبرج، وما طالب قاسم أمين بهذا، ولكن طالب بالتعليم للمرأة ووقوفها في حدود ما جاء في كتاب الله، والدكتور محمد محمد حسين وهو أعنف المحافظين هجوماً على دعاة التغريب والتحلّل يقول في الجزء الثاني من كتاب

(الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) [1] عن قاسم أمين:

«ولكن الناس خَطَوْا إلى أبعد مما نادى به قاسم أمين، فقد كان الرجلُ صريحاً في أنه يريد أن يقف بالحجاب عند ما أمر الله، وأنّه يدعو إلى ألا يجور الناس بتجاوز حدود الله، وستر مالم ينزل الدين بأنه عورة، وبحرمان المرأة من العلم، وقصرها في البيوت، ولم يدعُ قاسم أمين قط إلى اختلاط المرأة بالرجال ومرافقتهم، ولم يدعُ قطّ إلى أن يتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق والظهور والصدور، ولم يدعُ قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تُخفي عورات الجسم إلاّ لتُبرز مواضع الفتنة والإغراء، منها، ولكنّه وإن لم يدعُ إلى شيءٍ من ذلك هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لابدّ أن يسير الناس من بعده خطوات».

هذا هو قاسم أمين في مرآة أعنف كاتبٍ ملتزم حَارَب مظاهر التحلّل والانحدار، فإذا جئنا للرافعي فإننا نجده يقدّرُ دور المرأة ومكانتها في المجتمع، ولا يُحارب إلاّ ما تورط فيه المجتمعُ من خطوات أعقبت حديث قاسم أمين عن المرأة. وهذه الدعوةُ إلى الاحتشام والفضيلة كان من الواجب أن تكون ذات تقدير وإعجاب بالرافعي!! ولكنّ دعاة التحلّل يرمونه بغير ما كتب، لحاجةٍ في صدورهم، وليس الرافعي رجلاً مجهولاً قال كلمته الشفوية ومضى

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص٢٣٧.

دون أن يكتب ما قال، ولكنّه مؤلف شهير وكتُبُه ذائعة مشتهرة تُسَجّل رأيه في المرأة المسلمة ومدى ما تلتزم به من قيود جاء بها الإسلام، فلماذا لا تكون كتُبه مصدر الحكم عليه، ولماذا نعدّه متخلّفاً عن أوانه، والرجلُ بقيادته الفكرية للحركة الإسلامية أولُ التقدّميّين متى فُهِم التقدّم على وجهه الصحيح.

لقد اشتدّ تبرج المرأة المصرية عقب الحركة الكمالية في تركيا، لأن الزعيم الجريء قد سمح للمرأة أن تذهب إلى أبعد ما تُوجبْه الفضيلة ويمليه العفاف، فكان لذلك صدىً بعيد لدى المحلّلين في مصر والشرق العربي، فأخذوا يُحبذون اتجاه أتاتورك ويعدونه رمز التقدم والرقيّ، وقد أفردت جريدة السياسة الأسبوعية مقالاً كبيراً تحت عنوان (فتاة تركيا) نقل الدكتور محمد محمد حسين جزءاً منه في كتابه [1] جاء فيه عن الباخرة التي جعلتها وزارة التجارة التركية معرضاً عاماً، في رحلة على نفقة الحكومة: «إنها تنتقل بين موانىء أوربا الشهيرة.. وهي تقلّ خمساً وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهنّ جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميّزهن الرائي عن فتيات لندن وباريس، وأكثر الفتيات يتكلّمن الانجليزية بإتقانٍ يدعو للدهشة، وقد قالت إحداهن بلغة انجليزية: «إن المرأة التركية اليوم حرّةٌ، فلن تسير إلى الطرقات في الظلام، وإننا نلبس أحدث الأزياء الأوربيّة

---

(١) الاتجاهات الوطنية ج٢ ص٢٤٤ نقلاً عن السياسة الأسبوعية ١٧/٧/١٩٢٦.

والأمريكية، ونرقص وندخّن ونسافر بغير أزْواجنا، «والمعيشة ـ كما قالت فتاة أخرى ـ على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يُوصف، كلُّهن يرقص، وبعد العشاء يبدأ الرقص من تانجو وفوكس ترون» ثم يعلق مراسل الصحيفة بقوله: إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل والجهاد الفكري والاقتصادي [أين الجهاد الاقتصادي يا هذا] ولا يسع كلّ محب لتركيا إلاّ أن يغبطها على هذه الخطوات».

هذه الأقوال التي أخذتْ تنتشر على مدىً أوسع في الصحف المصرية، ثم ما تبعها من تطبيق عملي أدّى إلى بعض المآسي التي نشرتها الصحف إذ ذاك مما دفع الرافعي إلى محاربة التبرّج والسفور، فكتب كثيراً عن التصون والحجاب في حدود ما أباح الله وقال فيما قال[1]:

وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاءُ سعرها في الاجتماع، وصونُها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم: قانونُ العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعةً بائرة يُنادى عليها في مدارج الأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الورديّة، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الطرق والأسواق: الأعطاف المرتجّة...؛

(١) وحي القلم ج ١ ص ١٩٥.

أوَليس فتياتُنا قد انتهيْن من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا، فإنّهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا؟!

لقد مُحِق الصبر، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات، فابتُلين من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس، ووقع في نفوسهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة، وجهْلن بالعلم حتى عن طبيعتهن، فما منهنّ من عرفتْ أن طبيعتها سلبيّة في ذاتها، وأنّه لا يشدها ولا يقيمها إلا الصفاتُ السلبيّة، وملاكُها الصبر: فروعه وأصوله، وجمالُها الحياءُ والعفة، ورمزُها وحارسُها والمعين عليها هو الحجاب وحده. وما تُخطىء المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالِها صفات الإيجاب، وتمرّدها على صفات السلب، كما يقعُ لعهدنا، فإنّ هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلاّ أن تعتبر المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها، كما نرى في أوربا، ومن هذا تلقي الفتاة حياءها، وتبذُؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك، وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية، فإنّ هذه وهذه ليست شيئاً إلاّ أن تكون علم الفكر الساقط».

هذا مقال من مقالات الرافعي التي كتبها حين انتشر التبرج المبتذل، وعمّت الروايات الخليعة، وتباهت المجلات بعرض الصور المُغرية في وجهاتِ صفحاتها كمثالٍ للأنوثة الصارخة..

وانتشرتْ دور السينما في الأقاليم لتعرض أفلام الانحلال الخلقي في الغرب، وتجعل من المخادنة أمراً طبيعياً، بين الرجل والمرأة الأجنبيّين، ثم ما نشرته صفحات الحوادث من مآس الإجهاض والحمل السّري، والقتل انتقاماً للشرف المسلوب، فالسجن الشّاق عقاباً على القتل، وتشرّد الأطفال بعد موت الأم، وسجن الأب، ولا من راحم، كل ذلك دفع الرافعي إلى أن ينادي بالالتزام الشرعي، وإلى أن يجهر بصيحته في وجوه من يكتبون قصص الإغراء، وينشرون صور الانحدار، ولم يكتف بالمقالات وحدها، بل أرسل قصائد في هذا المجال أَشَرتُ إلى نموذجٍ منها في حديثي عن الرافعي الشاعر. ولكنّ صيحات الرافعي كانتْ تصدم أدعياء الإغراء والتحلّل، فأوسعته صحائف الخلاعة هجوماً وانتقاصاً، وعَدُّوهُ عدوّ المرأة والتقدّم، وجعلوا ذلك مصدر انتقاص، ولم يكن الرجلُ عدوَّ المرأة ولن يكون، فالمرأة هي أمّه وزوجتُه وأختُه وبنتُه فكيف يكون عدوّها؟! ومن المفارقات أن الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم قد باهى في بعضِ أدوار حياته بأنه (عدو المرأة) فلم يُؤاخذه هؤلاء بشيء، بل ابتسموا لقوله وردّدوه مغتبطين، لأنه لم يكن مهاجماً مُلتزماً وصاحب حمية كحمية الرافعي، فيكف صار العدو حبيباً مع اعترافه، وصار الرافعي عدواً وهو لم يكتب عن المرأة غير ما يوحيه الإخلاص!؟

لقد كتب الرافعي عن المرأة الملتزمة أجمل ما كتبه أديب في العالم العربي لعهده، فقد تحدث عنها بأسلوبه البياني المؤثر،

حديث المؤمن المصلح الذي يُقَدِّرُ ما يأخذ وما يدع من معاني البناء الأسري الوثيق كأن يقول [١]:

«إذا ضاقت الدار فَلِمَ لا تتّسع النفس التي فيها؟ المرأةُ وحدها هي الجوّ الإنساني لدار زوجها، فواحدةٌ منهن تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرةً متروّحة باسمة، وإن كانت الدار قحطةً مسحوتةً ليس فيها كبير شيء؛ وامرأةٌ تدخل الدار فتجعلُ فيها مثل الصحراء برمالها وقيظها وعواصفها، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السندسيّة؛ وواحدةٌ تجعل الدار كالقبر. والمرأة حق المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الإنسانية، فلا تجعل هذا القلب لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشةٍ: مرّةً ذهباً، ومرّة فضّة، ومرةً نحاساً أو خشباً أوتراباً، فإنما تكونُ المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معاً، فعليْها حقّانِ لا حَقٌّ واحد، أصغرُهما كبير، ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوّجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها، فإن أغضبها الرجلُ بهفوة منه، تجافتْ له عنها، وصفحتْ من أجل الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئذٍ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها، وهي طبيعةٌ تأبى التفرق والانفراد وتقومُ على الواجب.

ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدتْ نفساهما، فإن كلّ عقدة لا تخرجُ إلاّ ومعها طريقة حلّها، ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه؛ وهو اليسر والمساهلة، والرحمة

---

(١) وحي القلم ج ١ ص١٤٨.

والمغفرة، ولين القلب وخشية الله، وهو العهد والوفاء والكرم والمؤاخاة والإنسانية، وهو اتساعُ الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطّة أو ضيقة».

وقصص الرافعي الأدبيّة ومقالاته في أجزاء وحي القلم يدورُ أكثرها على المرأة زوجةً وابنةً وأمّاً، وقد اجتهد في أن يجعل هذه الشخصيات تبرزُ من أحداث التاريخ الإسلامي، لتُلقي العِظة البالغة في النفوس. ورُوح الرافعي في آثاره تلك، بلْ في آثاره الأخرى بكتب: أوراق الورد ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر روح المتعاطف الحاني على المرأة، يقدِّرُ أنوثتها، ويرعى عفافها، ويهتفُ بفضائلها، ويبكي على ما يلحظه من مظاهر الجفاء والغلظة في الجنس الأنثوي الرقيق!!. وللقارىء أن يقرأ ما جاء تحت عنوان، ورقة ورد أو سمو الحب أو قصة زواج أو فلسفة المهر، أو قبح جميل، أو زوجة إمام، وكلها في الجزء الأول، ثم ما جاء تحت عنوان عروس تزف إلى قبرها، أو موت أم، أو قصّة أب، أوالسمكة، أو الأيدي المتوضئة في الجزء الثاني، وما جاء تحت عنوان العجوزان وعاصفة القدر أو القلب المسكين أو انتصار الحب في الجزء الثالث. للقارىء أن يراجع هذه الفصول بدقة، وأقول بدقّة لأن الرافعي لا يُكتفى معه بالقراءة الأولى لمن أراد أن يَخْلُصَ إلى أبعد مراميه، ولابد لكل جيل من أجيال هذه الأمة من كاتب يحتذي بالرافعي، ولا أقول يماثلهُ فذلك مرمى بعيد!! لأن الرافعي يأتي بمعانيه في أمتع صور الخيال، وهو بما يُمهّد وبما يبسط وبما يحلّل ثم بما يختم يصل إلى قرارة النفس وصولاً يجعل

معانيه تمتد من القلب إلى شعاب الجسم جميعها نبضاً ورفرفة وحنيناً، وللقارىء أن يسمع ما جاء على لسان رجل زاهد لا يعرفُ غير البيت والمسجد هو أبو ربيعة الفقيه الصوفي إذ ماتت زوجته فوقف على قبرها راثياً، بما ترجمه الرافعي عنه فقال [١]:

«يرحمُكِ الله يا فلانة، الآن شفيت أنت ومرضتُ أنا، وعُوفيتِ وابتليتُ، وتركتني ذاكراً، وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بك معنى، فستكونُ بعدك بلا بمعنى، وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتُك لي نصف الضعف. وكنتُ أرى الهموم بمواساتك هُموماً في صورها المخففة فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة، وكان وجودك معي حجاباً بيني وبين مشقّات كثيرة، فَسَتَخْلُصُ كل هذه المشاقّ إلى نفسي، وكانت الأيام تمر أكثر ما تمرُّ في رقّتك وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجرّدةً في قسوتها وغلظتها، أما إني والله لم أُرْزأ منك في امرأة كالنساء، ولكني رُزِئْتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسستُ معها أن الخليقة كانت تتلطف بي من أجلها».

هذه معانٍ غالية تحتاج كل فقرةٍ منها إلى شرحٍ يُبيّن مآثر الزوجة الوفية، ومنزلتها لدى زوجها في نفسه وفي بيته، وفي معيشته ومختلف أحواله، والمقال بعد هذه المقدمة نمطٌ رائع يتحدث عن أثر الزوجة في حياة الأسرة والمجتمع، وحديثُ

---

(١) وحي القلم ج ١ ص ٢٢١.

الرافعي في ذلك حديثُ المجرّب في حياته الزوجيّة، والمتأمّل في حياة المجتمع بفكره اللاقط، والمشاهد ما يجري في الأسر من مظاهر الوفاق والشقاق، عالماً بما سبّبَ هدوء الصفاء وفتح أبواب الكدر.

وهذا حديث عن الزوجة، أما حديث البنت عند الرافعي فمِن أشفِّ وأرق وأصفى ما يكنّه والد لابنته، تحدث الرافعي في هذا المجال عن ابنته مرة، وعن الابنة بوجهٍ عامّ مرة أخرى، وهو في كلا الحديثين مُبدع، ولكنّ حديثه عن ابنته ليلة زفافها لم أقرأْ نظيره في الأدب العربي، ولا فيما عرفتُ من الآداب الأخرى، وكدتُ أشُكُّ في أثره في نفسي، ولكني جمعتُ إخواني من أساتذة كلية اللغة العربية بالمنصورة، وقرأتُه عليهم، فاستشعروا ما استشعرت، وعزَّ علينا جميعاً أن نجد كاتباً كالرافعي قد أحاط بوصف ليلة الزفاف وجلوة العروس الابنة كما أحاط الرافعي مصوّراً ومدركاً أدقّ خوالج النفس البشرية!! قرأْنا لكبار الكُتَّاب ممن نُجلُّهم من أرباب البيان كالزيات والبِشْري وصادق عنبر والمنفلوطي وتلاميذهم من أمثال محمود شاكر وعبد المنعم خلَّاف وسعيد العريان وعلي الطنطاوي وجميعُهم من أبناء الفكرة الإسلامية الصحيحة، وأصحاب الأقلام المبينة المفُصحة. قرأْنا لهؤلاء جميعاً وأُعْجِبْنا بما نَسجوه من وشْي طريف في عالم البيان، فهل قرأنا لأحدٍ مثل ما كتب الرافعي عن ابْنتِه ليلة جَلْوها تحت عنوان «عرش الورد»؟! إنّ مثل هذا المقال لا يُلخَّص ولا يُقتطف شيء من أوّله، أو من وسطه أو من آخره ليدل على مجموعه،

ولكن يُنقل مرتبطاً متماسكاً، وسأكتفي بالجزء الأول منه متماسكاً متصلاً لأُغري القارىء بتأمّله في الجزء الأول من وحي القلم ص٣٩[١]. تحت عنوان «عرش الورد» قال الرافعي:

«كانت جلوةُ العروس كأنها تصنيفٌ مِن حلم، توافتْ عليه أخْيلة السعادة، فأبدعتْ إبداعها فيه، حتى إذا اتّسق وتمّ، نقلتْه السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدَةِ الّتي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العدد القلَيل، لتحقّق للحي وجود حياته بسحرها وجمالها، وتُعطيه فيما يُنسَى ما لا يُنسى.

خرج الحلمُ السعيد من تحت النوم إلى اليقظة، وبَرز من الخيال إلى العين، وتمثَّل قصيدةً بارعة جعلتْ كل ما في المكان يحيا حياة الشعر، فالأنوارُ نساء، والنساءُ أنوار، والأزهارُ أنوارٌ ونساء، والموسيقى بين ذلك تُتمِّمُ مِن كل شيء معناه، والمكانُ وما فيه وَزْن في وزن، ونَغَم في نغم، وسحرٌ في سحر.

ورأيتُ كأنما سُحرت قطعةٌ من سماء الليل، فيها دارة القمر، وفيها نَثْرَةٌ من النجوم الزهر، فنزلتْ فحلت في الدار، يتوضَّحْن ويأتلقْن من الجمال والشعاع، وفي حُسْنِ كلّ منهنّ مادّة فجر طالع، فكنّ نساء الجلوة وعروسها!.

ورأيت كأنما سُحر الربيع، فاجتمع في عرشٍ أخضر، قد رُصّع بالورد الأحمر، وأُقيم في صدر البَهْوِ، ليكونَ منصّةً للعروس،

---

(١) وحي القلم ج ١ ص٣٩.

وقد نُسقت الأزهار في سمائه وحواشيه على نظمين، منهما مفصّلٌ ترى فيه بين الزهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما، ومنهما مكدّس بعضه فوق بعض من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنّه عُشُّ طائر ملكيّ من طيور الجنة، أبدعَ في نسجه وترصيعه بأشجارٍ سَقىٰ الكوثر أغصانها.

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين، ربوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه، يحملهما خملٌ من ناعم النسيج الأخضر، على غُصُونه اللُّدْن، تتهافتُ من رقتها ونعُومتها وعُقِد فوقَ هذا العرش تاجٌ كبير من الورد النادر، كأنما نُزِعَ عن مفرق ملك الزمن الربيعي، وتنظُر إليه يسطعُ في النور بجماله الساحر سطوعاً يخيّل إليك أن أشعّة الشمس التي ربَّت هذا الورد لا تزالُ عالقة به، وتراهُ يزدهي جلالاً، كأنّما أدرك أنّه في موضعه رمزُ مملكة إنسانية جديدة، تألّفتْ من عَروسيْن كريميْن. ولاح لي مراراً أن التـاج يضحك ويستحي ويتدلّل، كأنّما عرف أنّه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثّل وجه الورد.

ونُصّ على العرش كُرسيان يتوهّج لونُ الذهب فوقهما، ويكسوهما طراز أخضر تلمعُ نضارته بشراً، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالتْه من هذه القلوب الفَرِحَةِ لمسةٌ من فرحها الحي.

وتدلّت على العرش قلائد المصابيح، كأنّها لؤلؤ تخلّق في السماء لا في البحر، فجاء من النّور لا من الدر، وجاء نُوراً من

خاصّتِه أنّه متى استضاء في جوّ العروس أضاء الجوَّ والقلوب جميعاً.

وأتى العروسان إلى عرش الورد، فجلسا جلسة كوكبين حدودُهما النور والصفاء، وأقبلت العذارى يتخطرنَ في الحرير الأبيض كأنّه من نور الصبح، ثم وقفن حافاتٍ حول العرش، حاملاتٍ في أيديهنّ طاقاتٍ من الزنبق، تراها عطرة بيضاء ناضرةً حييّة، كأنها عذارى مع عذارى، وكأنّما يحملن في أيديهنّ مِن هذا الزنبق الغض معاني قلوبهن الطاهرة، هذه القلوب التي كانت مع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورها الضاحك.

واقتعدتْ دَرَج العرش تحت ربوتي الزهر ودون أقدام العروسين، طفلةٌ صغيرة كالزهرة البيضاء، تحمل طفولتها، فكانتْ من العرش كله كالماسة المدلاّةِ من واسطة العقد، وجعلت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبان منزوٍ لا يُريدُ أن يُرى، وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة، جعل المكان بمن فيه، كأنّه له روح طفل بغتَتْه مسرَّة جديدة، وكانت جالسةً جلسة شعر تمثّل الحياةَ الهنيئة المبتكرة لساعتها، ليس لها ماضٍ في دُنيانا، ولو أنّ مُبْدعاً افتنَّ في صنع تمثال للنيّة الطاهرة، وجيء به في مكانها، وأُخِذَتْ هي في مكانه لتَشَابَها وتشاكل الأمر.

وكان وُجودُها على العرش دعوةً للملائكة أن تحضر الزفاف وتباركه، وكانت بصغرها الظريف الجميل تُعطي لكل شيء تماماً،

فيُرى أكبر مما هو، وأكثر مما هو في حقيقته، كانت النقطة التي استَعْلَنَتْ في مركز الدائرة، ظهورُها على صغرها هو ظهور الإحكام والوزن والانسجام في المحيط كله».

هذا نصفُ المقال، وقد اختصّ بالجانب المنظور، أما النصف الآخر فقد اختصّ بالجانب المستشف الملحوظ، ولا يقلّ عما سبقه روعة وتأثيراً بل قد يكون الملحوظ أفسح مجالاً، وأبعد تصوراً، وأحذق تصويراً. .

وإذا كان هذا حديث الرافعي عن ابنته، فإنّ حديثه عن البِنت بوجهٍ عام، تناثر في صحف كثيرة من مؤلفاته، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الرافعي على لسان الحسن البصري إذ قال [١]:

«البنتُ الطاهرةُ هي جهادُ أبيها وأمّها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل الله، وإنّها فوزٌ لهما في معركة الحياة، يكونان هما والصبْر والإيمان في ناحية منها قبيلاً، ويكونُ الشيطان والهمّ والحزن في الجهة المناوحة قبيلاً آخر.

إن البنت هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها، كأنّما يحملان الأحجار على ظهريهما حجراً حجراً، ليبتَنيا تلك الدار في يومٍ يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر، ما صحبتْه وما بقيت في بيته، فَلَيس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته إلاّ على أنها بنتُه، ثم أمّ أولادها، ثم

---

(١) وحي القلم ج ١ ص٢٤٤.

أمّ أحفاده، فهي بذلك أكبرُ من نفسها، وحقُّها عليه أكبر من الحق، فيه حُرْمتها وحرمة الإنسانية معاً، والأبُ في ذلك يُقرضُ الله إحساناً وحناناً ورحمة، فحقٌّ على الله أن يوفّيه من مثلها وأن يُضعف له».

أما الشعر المنثور ذُو النبض الدافع المؤثر فما كتبه الرافعي تحت عنوان (احذري)، وهي مقاطعُ متناسقة يتجه كل مقطع إلى هدف تربوي خاص، وكلُّها تنبيهٌ على خطر التحلل الوافد من الغرب، وفي بعض هذه المقاطع يقول[1]:

«احذري [أيتها الفتاة الشرقية] أن تَخسري الطباع التي هي الألْيق بأم أنجبت الأنبياء في الشرق، أمٍّ عليها طابع النفس الجميلة تنشر في كل موضع جوَّ نفسها العالية، فلو صارتِ الحياة غيماً وبرقاً ورعداً لكانت هي الشمس الطالعة، ولو صارت الحياة قَيْظاً وحروراً واختناقاً لكانت هي النسيم الذي يتخطّر. . أمّ لا تبالي إلا أخلاق البطولة وعزائمها، لأن جدّاتها وَلَدْنَ الأبطال.

لو كان العارُ في بئرٍ عميقة لَقَلَبَها الشيطان مئذنة، ووقف يؤذن عليها.

يفرح اللّعين بفضيحة المرأة خاصة، كما يفرح أبٌ غنيّ بمولود جديد في بيته.

واللصّ والقاتل والسِّكير والفاسق، كل هؤلاء على ظاهر

---

(١) وحي القلم ج ١ ص ٢٦٤.

الإنسانية كالحر والبرد، أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة!».

قلتُ إن حديث الرافعي عن المرأة يترقرق في جل مؤلفاته، بحيث شغلتْ عقله وقلبه، فهي حديثُ صاحب الرسالة الإنسانية الرفيعة الذي يوجّه إلى الأوج ويحذّر من الهوّة، وكان عليَّ أن أذكر مناقشاته المنطقية لمن يذهبُون إلى المساواة بيْن الرجل والمرأة في الميراث كما جاءَت في الجزء الثالث من الوحي الخالد، ولكنّي وجدت أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى ترديد، ولو قدرتْ كل فتاة مثقفة على أن تقرأ ما كتبه الرافعي عن المرأة المسلمة في مختلف آثاره لرجعت بزاد يمدّها بالأمل، ويقيها من النزغات.

* * *

مَعَ العَقّاد

ماذا تفعل إذا كان لك شقيقان عزيزان تَشاجرا أمامك، وضربَ كل منهما الآخر، ورفعا قضية للمحكمة ودُعيت للشهادة وأنت في ذات نفسك تُحب الشقيقيْن معاً، وتتمنّى ألاّ يصاب أحدهما بسوء، ولكنك أمام الواجب مضطرٌّ إلى أن تقول ما تعلم دون أن تتزيّد، أو تقتصر، وقد يكونُ في شهادتك ما يؤلم أحدهما أو ما يؤلمهما معاً، ولكن أنت مضطر.

هكذا أنا حين أتعرضُ للفصل فيما كان بين الأستاذين الكبيريْن عباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي، فكلاهما أثيرٌ لديّ، وكلاهما ذُو جهادٍ قويّ في ميدان العروبة والإسلام. وكأنّ الأقدار قد اختارت الأستاذ عباس محمود العقاد للدفاعِ عن الإسلام بعد رَحيل الرافعي، وانتقالِه إلى جوار ربّه، حيثَ ظل العقاد عاكفاً على بُحوثه الأدبيّة ومقالاتِه السياسية، وقصائدِه الشعرية طيلة حياة الرافعي، فلما ذهب الرافعي رأيْناه يتجه بقوّة إلى البُحوث الإسلامية فيجلّي تجليةً فائقةً، وتنتشر كتبه الإسلامية في كل مكان لتشفي صدور قوم مؤمنين، وكان نصيب طلاب المدارس منها موفوراً، حيث قُررت العبقريات عليهم أكثَر مِن

عشرين عاماً، مع صُعوبة أسلوبها بالنسبة إلى مؤلفاتٍ أخرى، ولكن العسير يهون فيصير يسيراً إذا صحبه الإخلاص وحَداه الإيمان.

لقد عاش العقاد والرافعي في عصرٍ واحد، وكلٌّ منهما ممتازٌ عند نفسه، وله أنصارٌ يجتمعون حول رأيه، وفيه اعتزازٌ وحَميّة، بل أقولُ وفيه نوعٌ من السيطرة والاستعلاء يَدْعوهُ إلى عدم الإغضاءِ حتى عن تافهةٍ تُقال!! هكذا كان الرجلان الكبيران، وكانت ثقافتهما تتعارضُ أكثر مما تتوافق، ولابد أن يجد كلاهما لدى الآخر مالا يُرضيه؛ فحتمٌ أن تَدور المعركة، والمعركة بين زعيميْن جهيريْن لابدَّ أن تمتد إلى أنصارهما، فتتّسع الحَوْمة ويعلو الضجيج، ويكثرُ التقوّل والافتراء، وهذا ما كان.

وليس العقاد والرافعي ببدعٍ في عصرهما، ففي كل عصر من العصور نجدُ النظراء من العلماءَ والأدباء يتصارعون شرقاً وغرباً، بل ويتصاولُون بأحد الأسلحة وأفتكها. حتى صارتِ المعاصرة موضعَ اتهامٍ مباشر لدى أصحاب الجرْحِ والتعديل من المحدِّثين والفقهاء.

لقد عقد تاج الدين السبكي في كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) [1] باباً تحت عنوان (قاعدةٌ في الجرح والتعديل)، نقلَ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ٢ ص٩ تحقيق الدكتورين عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي.

فيه ما ذكره الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتابه (العلم) تحت عنوان (حُكم قولِ العلماء بعضهم في بعض)، بدأهُ بالحديث المرويّ عن الزبير رضي الله عنه: (دَبَّ فيكم داءُ الأمم من قبلكم، الحسدُ والبغضاء)، كما ذكر عن ابن عباس قوله: (استمعوا علم العلماء، ولا تصدّقوا بعضهم على بعض)، وعن مالك بن دينار قولَه: (يُؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلاّ قول بعضهم في بعض). وامتدّ الكلامُ في نحوٍ من ذلك حتى قال ابن عبد البر: «فمن أراد قُبول قول العلماء الثّقات بعضهم في بعض، فليَقبلْ قولَ الصحابة بعضهم في بعض، ومَن فعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً».

وإذا كان هذا الشأن شأنَ أجلّة الفقهاء والعلماء في سالف العصور، فلنَا أن نعدَّ الشجار الصاخب بين الرافعي والعقاد شجار نظراءٍ يتنافسون، فنأخذ أقوالهما مأخذَ المُتسامح الذي يعرف كيف تضطربُ العواطف، وتلتهبُ الأعصاب، فيقولُ صاحبها ما يجب ألاّ يقول.

يقول الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه (حياة الرافعي)[1]: «لم يكنْ بين الرافعي والعقاد وقبل إصدار الطبعة الملكيّة من إعجاز القرآن غيرُ الصفاء والود، فلما صدرَ هذا الكتاب في طبعته الجديدة (سنة ١٩٢٦م) أحدث بينهما شيئاً هو أول الخصام».

---

(١) حياة الرافعي للعريان ص١٨٤.

وهذا القول يحتاجُ إلى تصحيح، فإنّ الخلاف قد دبّ بين الرجليْن الكبيرين في أوائل العقد الثاني من هذا القرن، حيثُ كان كلاهما يكتبُ في مجلة (البيان) وهي المجلةُ الأدبيّة الراقية التي كان يُصدرها الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، وقد بذل في سبيلها صحتَه وماله وعقاره، ولم يكسب شيئاً ماديّاً، وكانتْ مقالات الرافعي تنحو منحى التراث العربي أسلوباً وأفكاراً، ومقالاتُ العقاد تنهل من الثقافة الإنجليزية لتُضيف إليها ما يتولّد لدى الكاتب من تعقيب وتحليل. وحين صدر الجزء الأوّل من تاريخ آداب العرب، قابَله كبارُ الكتاب من أمثال لطفي السيد وشكيب أرسلان وأحمد زكي بالترحيب والاحتفاء، أما طه حسين فقد كتب يُعلن أنه لم يفهم الكتاب، وهو قولٌ إجماليٌّ لا يُتيح مجال الرد للرافعي، وأمّا العقاد فقد كتبَ في جريدة المؤيد [١] تحت عنوان (فائدة من أفكوهه) يُعلن اضطراب القياس عند الرافعي حينما كتبَ عن جهاز النطق لدى الإنسان والحيوان، مخطئاً ما ذهب إليه الرافعي من أن نُطْق الكلب ببعض الحروف ناشيءٌ عن حاجته الطبيعية، وأنّ الأصوات الحيوانية أصلٌ نمتْ منه فروعُ اللغات الإنسانية، وهذا ما يخالِفه العقاد لمقررات علمية يراها صحيحة، كما أنّ الناقد ختم مقاله بقوله: (إن الرافعيّ منشيءٌ مكين، يحسّ اضطراب القياس لديه، ويعمل القلمَ

---

(١) المؤيد ١٦/٥/١٩١٤. نقلاً عن كتاب (العقاد ومعاركه السياسية والأدبية) لعامر العقاد ص٢٦٦.

ولا يعملُ الرأي، لأنّه لا يستطيعُ أن يصنع غير ذلك، ومن هنا كان كتابُ الرافعي كتاب أدب لا تاريخ أدب».

هذه هي الشرارة الأولى في حومة المواجهة بين الأديبين الكبيرين، والّذي يقرأ مقال العقاد، قد يأخذُ عليه أنه لم يتناول الكتاب بالتحليل الدقيق لينتهي إلى ما قرره، من أن الرافعي يُعملُ القلم، ولا يُعمل الرأي، ولكنه لَحَظَ موضعاً للمؤاخذة العلمية في حديثِ الرافعي عن النطق عند الحيوان فجعلَها وحدها محورَ الحديث، فالحكم على أسلوب الرجل، وكَيْلا أظلم العقاد أذكُر أنّ هذا ديدنُه في كثيرٍ مما عَرض له من الكتُب الأدبية نقداً وتعليقاً، حيثُ لا يَعرِضُ أبواب الكتاب المختار، بلْ يختارُ موضعاً للمخالفة يُجري حوله الحديث، وكأنه كلُّ شيء في الكتاب، بلْ إنّه يسلك ذلك في كثير من المقدمات التي يطلبُها المؤلفون منه تصديراً لكتبهم، فينزعُ إلى قضيةٍ واحدة يناقشها!!. ولعلّ العقاد لا يريدُ أن يتورّط بالثناء المفرط، فيقتصر على النقد في إحدى الجزئيات، وهذا ما صنعه مع الرافعي، ثم إنّ القول بأن كتابَ الرافعي كتابُ أدب لا تاريخ أدب، فيه مساسٌ واضحٌ بمنهج الكتاب، على أنّي أراه حين حكم بأنّه كتاب أدب لم يوجّه له نقداً مؤلماً، لأنّ الأدب في هذا العصر كان مَزيجاً من العلوم المختلفة، ولم يَنْتَهِ إلى ما نعرف من التخصص، وهذا مالم يكن للعقاد في بال، ومالمْ يسترح إليه الرافعي، فبدأ العراك بردٍّ للرافعي لم تكن فيه صلابةُ النقد، ولكنّه توضيحٌ وإكمال.

مضت الأيام دون صدام، حتى دعت لجنةٌ إلى تأليف نشيد

وطني، تقدّمَ في مسابقته كبارُ الشعراء ومنهم شوقي والرافعي، فاختارت اللجنةُ نشيد شوقيّ أوّلاً، وسار العقادُ إلى رأيه في مهاجمة شوقي فنقد النّشيد نقداً عاصفاً، وتلاهُ الرافعي بنقدٍ لنشيد شوقي حَوى أكثر ما قال العقاد، لا لأن الرافعي أخَذ النقد من العقاد كما قرّر العقاد ذلك، بل لأنّ وجهات النظر قد اتفقتْ في نقدات يعرفها المثقّف المتضلع، وعَيْبُ الرافعي أنه قرأَ نقدْ العقاد ولم يشر إليه وادّعى أنه لم يطلع عليه، فأثبت العقادُ اطّلاعه بدليلٍ لا يُدحض، والمسألة أهونُ من أن تتّسع للّجاج والمماراة، إذْ كتب العقاد هجوماً عاصفاً بدأه بقوله [١]:

«مصطفى أفندي الرافعي رجلٌ ضيّق الفكر، مدرّع الوجه، يركب رأسه مَراكب يتريّثُ فيها الحصفاء أحياناً، وكثيراً ما يخطئون السداد بتريّثهم وطول أناتهم، وطالما نفعهُ التطوّح وأبلَغه كلّ أدبه أو جلّه، إذ يدعي الدعاوة العريضة على الأمّة، وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه، وينقّ إلحافُه عند من ليسَ يكرثهم أن يخدعوا به، بيد أنّ الاعتساف إذا كان رائدهُ الحذق في الرأي وشيكٌ أن يُوقعَ صاحبه في الزلل إحدى المرار، فيضيع عليه ما لو علم أنّه مضيِّعه لفداه بكل ما في دفاعه من هوسٍ، وكذلك فَعلَ ضيق الفكر، وركُوب الرأس بمصطفى الرافعي، فحقٌّ علينا أن نُفهمه خطرَ مركبه، وأن قدميه أسلسُ مقاداً من رأسه لعلّه يُبدل المطية ويُصلح الشكيمة».

---

(١) الديوان: للعقاد والمازني ص١٧٠ ط دار الشعب.

نقلتُ هذا النقد الجارح الذي تعدى القولَ إلى قائله، لأُعلن أن العقاد كان ضارياً في خُصومته، وأنه شابه بهذه الضراوة صاحبه، فالقولُ الذي ذهب إليه بعضُ تلاميذ العقاد من أن العقاد كان مُتغاضِياً عن صاحبه كثيراً حتى اضطرهُ إلى قسوة الصيال مما يحتاج إلى تعديل.

هدأ اللجاجُ بين الرجلين بضع سنوات. وحاول كلاهما أن يتناسى ما كانَ، فلمْ يعودا يشتبكان في عراك، حتى ظهرت الطبعة الثانية من كتاب (إعجاز القرآن)، وأعقبها كتابُ سعد زغلول الحافل بالثناء على المؤلف، كما كتب الأستاذ عبد العزيز البشري والأستاذ محمد صادق عنبر وغيرهما من كبار الكتاب ما يدل على تقدير جمٍّ لكتاب الرافعي. أما العقاد فقد أفرد مقالاً طويلاً لقضيّة الإعجاز كما يراها لتكون مقدمة لقوله عن كتاب الرافعي[١]: «ليكنْ كتابه أنموذجاً في البلاغة البدويّة، أو تسبيحاً بالآيات القرآنية، أو تحيّةً يقرؤها المستلم فيرتاحُ إليها، ويقرؤها غير المسلم فلا تزيدهُ بالقرآنَ علماً، ولا تُطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم، ولكن لا تقلْ عنه إنه كتابٌ في إعجاز القرآن، وليس فيه شاهدٌ واحد على معجزات الكلام، ولا هُو نَهج هذا المنهج الذي أحسن فيه الجُرجاني أيما إحسان، وأفاد به الآداب العربيّة أيّما إفادة، فإنما الثناءُ على القرآن في كتابٍ تناهز صفحاته

---

(١) ساعات بين الكتب ط٤ ص١٠.

الأربعمئة حَسنةٌ طيبة يُكتب للرافعي أجرها وثوابها عند الله، ولكنّها لا تُكتب له في سجل المباحث والعلوم ولا تُعدّ من حسنات التفكير والاستقراء.

ومضى العقاد فذكر خلوّ أكثرِ من مئتي صفحة في أول الكتاب من شاهدٍ واحد من القرآن، أو أصْلٍ مقرر من أصول البلاغة، إنّما يتحدث عن نبراتِ الحروف وموسيقاها وموقعِ كل حرف بجانب أخيه كأنّ بلاغة القرآن متوقفةٌ على هذا الموقع... وعارض استشهادَ الرافعي بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٣٦] حيث أوسع الرافعيُّ الآية تحليلاً خاصّاً بتلاؤم الحروف وموقعها النفسي من الآية التي جاءتْ بصدد الإنذار والتخويف. وقال العقاد عقب ذلك: إن الرافعي قد علّق بلاغة القرآن على شيءٍ هيهات أن يكون مقصوداً أو سارياً في كل آية على النحو الذي يحكيه، وإن بحثاً يوضع في تقرير بلاغة القرآن والردّ على منكريها لأولى المباحث أن يتصدّى له عالمٌ قويُّ العارضة، حاضرُ البرهان، خبيرٌ بأساليب القياس، والرافعيُّ من أضعف الناس منطقاً وأفشلهم قياساً... إلى آخر ما يدور هذا المدار.

ولم يردّ الرافعي على مقال العقاد ـ كما أعلم ـ لأنّي لم أجدْ ما يدل على ذلك، وإنّما كان لقاءٌ بين الأديبين الكبيرين في دار المقتطف فَصَّلهُ الأستاذ سعيد العريان تفصيلاً [1] هو مرجعه، وصاحبُ العهدة فيه، لأنه نَقَل عن الرافعي أنّه ظنّ أن العقاد

---

(١) حياة الرافعي ص١٨٥ وما بعدها.

يُعارض قضية الإعجاز نفسها كما جاء في حديثه معه، وهذا ما استبعده، فالعقاد في بُحوثه عن القرآن قد صورّر الإعجاز القرآني تِصويراً رائعاً وخاصةً في كتابه (فلسفة القرآن)، والرافعيُّ رحمه الله كان لا يسمع الحديث بل يقرأ ما يكتبه مخاطبه، فلعلّه قرأ غير ما أراد العقاد، وقد اتّهم العقاد في هذا المجلس الرافعيّ بأنه زَوّر الحديث المنسوب إلى سعد عن كتابه، وهو اتهامٌ لا يقومُ على أساس، فكيفَ يُزوّر الرافعي كتاباً ينسبهُ إلى سعد زعيم الأمّة في حياته دُون أن يخشى تكذيب سعدٍ!! هذا مستحيل.

على أنّ العقاد كان يُسيطر على بعض الصحف اليومية، ويسمحُ للقراء ـ وفيهم تلاميذُه ـ أن يكتبوا ما يشاؤون عن الرافعي، وفيهم من يتّخذ الهجوم على الرافعي وسيلةً للتقرب من العقاد؛ إذ أنّهم أقلّ من أن يفهموا بلاغة الرافعي على وجهها الصحيح، والرافعي يعرف ذلك، ولا يدري ماذا يصنع؟ فطه حسين غريمُه الأوّل يملك صحيفةً يومية يفسحها لقلمه، والعقاد يملكُ صحيفةً مماثلة!! وكاتبُ المحكمة الشرعية المحدودُ الإمكانيات لا يَملك شيئاً!! وقد يُرسل مقالاً للبلاغ أو كوكب الشرق أوالمقطم فلا يُنْشَر دون بترٍ مراعاةً لواجب الزمالة المتبادلة بين الصحف والقائمين على تحريرها!! هذه الملابساتُ القاسية كانتْ شديدة الوطأة على نفس الرافعي، وفي رسائله ما يُشير إلى أنّه كان يحثّ بعض تلاميذه الأقربين إلى مُناصرته، مرّةً بتزكية مؤلفاته وتقريظها في الصحف السيّارة، ومرّةً بالهجوم على معارضيه، وقد يكتبون فيُنشر لهم مرة ويُغفل النشرُ مرّات ومرات، كانتْ نفس الرافعي

متأزمةً من هذا الوضع الصحافي الذي لا ناقة له فيه ولا جمل، حتّى وجَد الفرصة السانحة عند الأستاذ إسماعيل مظهر رئيس تحرير مجلة العصور، فقد سمَح له أن يُهاجم العقاد مهاجمةً ضارية على صفحات المجلة، ثم جَمع ما كتب الرافعي في كتابٍ سمّاه (على السفُّود).

هذه هي الظروفُ التي دعت الرافعي إلى اللَّدد في خصومة العقاد بما قاله في مجلة العصور، إذ كان يتطلّب منفساً للهجوم فلا يجد، ومن هنا كانت الحدةُ القاسية في مواجهة العقاد، وهي حدّةٌ عادتْ على الرافعي بالمؤاخذة، لأنّ السبَّ والهجاء غيرُ النقد والتقويم.

وقد كفاني الأستاذ محمد سعيد العريان تلميذُ الرافعي ومؤرّخه الحكم على كتاب الرافعي بقوله [١]:

«والحقّ الذي أعتقده أن في هذا الكتاب نموذجاً من النقد يدلّ على نفاذِ الفكر، ودقّة النظر، وسعة الإحاطة، وقوّة البصر بالعربيّة وأساليبها. ولكنّ فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمسَ كل ما فيه من معالم الجمال، فلا يبدو منه إلاّ أذمّ الصور وأقبح الألوان، بما فيه من هُجر القول، ومُرّ الهجاء، ولئن كان هذا مذهباً معروفاً في النقد لدى الرافعي، وخصيمه واثنيْن آخرين من كتّاب العربيّة في هذا الجيل، إنّا لنريد للناقدين في العربية أن يكونوا أصحَّ أدباً، وأعفَّ لساناً من ذاك».

---

(١) حياة الرافعي ص١٩٢.

لستُ ملكيّاً أكثر من الملك فأدّعي أني أكنّ للرافعي من الحب أكثر ما كان يُكنُّه تلميذُه الوفي محمد سعيد العريان، الذي اعترف بما شاب النقد من هجاء وصل إلى درجة الإسفاف، وأظنُّه خفّف اعترافه حين قال إنّ المذهب ليس مذهب الرافعي وحده، وإنما هو مذهبُ ثلاثةٍ غيره من أدباء الجيل، لم يذكُرهم العريان بأسمائهم، ولكنهم هم: الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد والأستاذ المازني، وإن كان الأوّلان مشهورين بما كَتَبَاه، فالمازني قد كتب في نقد مصطفى لطفي المنفلوطي وحافظ إبراهيم وعبد الرحمن شكري مالا سبيل إلى إنكاره. ونقد الرافعي في كتاب (على السفُّود) نقدٌ جُزئي، يناقشُ البيت فيتعرّض لما يراه من قلق قافية، أو تنافر لفظ، والرافعيّ واسع المحفوظ من كُتب الرواية والشعر، فلا يُعوزه أن يجد تَشابُها في المعاني بين ما قاله العقاد وما سبق أن قاله المتقدّمون، وقد اهتم اهتماماً كبيراً بشعر ابن الرومي لأنه يعرفُ أنّ العقاد قد قرأ ديوانه باعتناء، وكتب عنه كتاباً حافلاً، هُو في رأي النقاد ـ عدا الرافعي ـ من أنفسِ ما كُتب عن الشّعراء في العصر الحديث، اهتمّ بهذا الشاعر فجعل يتربّص المعاني المتشابهة عند الشاعريْن ليقرر السطو والسّرقة، فإن لم يجد التشابُه اختلقه وتمحَّله لمرمى بعيد يُدركه هو!! ولستُ أدافع عن العقاد حين أقول إن قضية السرقة أوسعُ من أن يتناولها النقاد في هذا الحيّز، والذي ينظم القصيدة في عشرين بيتاً، لا تقومُ عليه القيامة، إذا وُجد تشابهٌ ما بين بيت أو بيتين من هذه القصيدة مع أبيات في قصيدةٍ لابن الرومي أو سواه، والعقادُ لا يُؤخَذُ في شعره

إلاّ من ناحية غوصه على المعاني الجديدة التي قد يُظهرها في ثوبٍ ضيّق لا يُفصح عن مراميها كلّ الإفصاح، وكأنّ بالرافعي حين أبى أن يضع اسمه فوق المقالات المنشورة بمجلة العصور، ثُمّ على غلاف الكتاب حين طُبع في حيّزٍ مستقل، كان يعلم أن الكتاب بتجنّيه غير جدير بالنسبة إليه، ولكنّنا نتفق مع العريان حين ذكر أنّه يدل على بصرٍ بالعربية وأساليبها، ومن الذي ينكر ذلك على الرافعي إلاّ جهولٌ أو حقود!!

وشيء أريد أن أتحدث عنه، ولا أجدُ فراراً من البوح به، هو أن أحد تلاميذ العقاد [1] كتب يقول: «إنّ الرافعي قد استعدى القصر الملكي على العقاد حتى كان ذلك سبباً من أسباب سجنه، وهو بهذا يَمنحُ الرافعي مالا يملك، وإذا كان الرافعي يستطيعُ أن يؤثّر في ملك البلاد كي يَسجن مَن يشاء، ويُطلق من يشاء، فِلم لَمْ يَرفَعْ مرتّبه الضئيل الذي يتقاضاه في المحكمة كاتباً متواضعاً من كتّابها الذين لا يحملون شهادةً ما فوق الابتدائية!! على أنّ سجن العقاد قد جاء عقب حادثٍ معروف وقع بعد انتهاء الرافعي من مقالاته، ولو لم يكنْ هذا الحادث المشهورُ ما سجن العقاد!! لقد كنت أربأ بحَمَلَة الأقلام ألاّ يكونوا نزهاء، ولكنّ بعضهم يُحاول تملّق العقاد باختلاقِ الأراجيف!! وقد سكتوا عن هذه الافتراءات بعد موت العقاد، فبان الغرض المتزلّف.

---

(١) هو الأستاذ العوضي الوكيل وقد تجنّى كثيراً على الرافعي دون مبرر في غير هذه النقطة.

ثم أصدر العقاد ديوان وحي الأربعين، ونَقَده الرافعي نقداً متحاملاً، ولكنه يتضمن مناحي من المؤاخذة جديرة بالاعتبار، وقد جُمعت آثار الرافعي بعد وفاته فلم يكُن بينها هذا النقد كبحوثه المنشورة في الجزء الثالث من وحي القلم، فهل أحسّ جامعو هذه الآثار بأنّ النقد على ما تضمن من حقائق علميَّة غريقٌ في التحامل، فأهملوه؟ قد يكون ذلك، وقد لا يكون.

أما ما أعجب له فهو أن الرافعي عَمَد إلى أحسن كتابٍ أدبي أظهره العقاد في هذه الحقبة التي اشتد فيها الصراع، وهو كتابُه (عن ابن الرومي)، فنقده نقداً قوياً في عددين من أعداد مجلة المعرفة[١] وتخفف في هذا النقد من لهجته المتحاملة على العقاد، وجاء بآراءٍ جيّدة، ثم سكت جامعو آثار الرافعي عن اختيار هذا النقد، وإلحاقه بالمجموعة الرافعيّة في أجزائها الثلاثة، ومن مقدمة هذا النقد تظهر الروح العامة لمنحاه النقدي حيث يقول الرافعي:

«وضع الأديب عباس محمود العقاد كتابه هذا في الكشف عن حياة ابن الرومي، واستخراجها من شعره، وفي الكلام على أدبه ونهجه، وفي بيان منزلته ومحلّه، ثم خصائصه ومزاياه، وغفلاته وسقطاته، فكتبَ في ذلك ثلاثمئة وثلاثين صفحة، ثم خَتَم كتابه بستين صفحةً اختارها من ديوان الشاعر قال: «إنّها تُتم المعرفة بالشاعر من جميع نواحيها» وقد وقع إليَّ هذا الكتاب فقرأتُه، فما

(١) مجلة المعرفة ص١٠٨٢ السنة الأولى ديسمبر ١٩٣١.

شككتُ أنّ المؤلف قد كان يتوجّهُ أو يقارب الغاية لو أنه عكس الوضع في كتابه، فاخْتارَ من شعر ابن الرومي ثلاثمائةً وثلاثين صفحة، وكتب عنه الباقي وهو ستين صفحة، إذْ ليس الاعتبارُ في مثل هذا البحث بالورق والحشد فيه، ولا بالجري على عادة الاستعمال في الكتابة الصحافية التي بلغت أن تجري في أصابِع كتّابها مجرى الكلامِ في ألسنتهم، بل هو التاريخ لا يجوز أن يُخْلَقَ ابتداعاً، ولا أن يُحدث على غير ما حدث، فلا تُتمحلُ له الفروض، ولا تُلتَمسُ له غير حقائقه، وليس للكاتب فيه إلا الحادثةُ على نصّها، ثم إقامةُ الحجة على وجهها، ثم شرحُ العلّة على مقدارها، ثم ما بين ذلك من استخراج الأسباب التي تتوافى بها الحوادث، وتجتمعُ وتتركب، ثم ما حول ذلك مما لابدّ أن تسترسل فيه نفس الكاتب من فن الملاحظة أو ملاحظة الفن، ليثبت أن التاريخ قد اتصل منه بالحياة مرة أخرى».

هذه مقدمةٌ تدل على الروح العام لطابع هذا النقد، ومن أطرفِ ما جاء في هذا النقد ما يأخذ به الرافعي المؤلف في تحليله للأبياتِ واستشفافِ ما يلحظه العقاد من المعاني العميقة، والخواطر الدقيقة التي لا يُتاح استشفافها إلاّ لناقدٍ بصير، من أظرف ما جاء في هذا النقد حول هذا التعمق الدقيق للألفاظ قبل المعاني، ما قاله الرافعي متهكّماً[1]:

---

(١) مجلة المعرفة ص١٠٨٢، السنة الاولى، ديسمبر ١٩٣١.

«على أن كلّ كاتب يستطيع أن يتناول أرذل الشعر وأسخفه وأبرده من أي عصر شاء، ثم يحمل عليه كل ما جاء في كتاب العقاد عن ابن الرومي من مثل هذه العبارات، ويوطىء له منها، ويشرحُه بها من نحو:

قالَ محمدٌ هو ابنُ مالكِ أحمدُ ربي الله خيرَ مالكِ

فانظرْ كيف برّ الناظم أباه وهذا دليلُ التقْوىَ والورع، كأنّه يكافئه على إيجادِه إياه، بتخليد اسمه، في أول كلماته، ثم ذِكْرُهُ اسمَه دليلٌ على عبادة الحياة ورغبته بعد الموت ألاّ يموتَ اسمه، كأنّه أعطى الحياة الآتية من بعد شخصاً ليس فيها، ولكنْ لابدّ أن يكون فيها، وأن يبقى ما بقيت العربيّة، وتأملْ كيف جعل نفسه (يقول) وهو ميّت لا يقول شيئاً، فهذا دليلٌ على أن للنفوس عنده شخوصاً، كما أنّه دليلٌ على طفولته الخالدة، إنَّ أظهر صفات الطِفل أنْ يلفتَ النظر إليه.

أفيسمّى مثل هذا الكلام الصحافي بحثاً في البيان والأدب والاستدلال على الحياة بالشعر».

هذا مقال طريف نسيه الناس جميعاً، فأحببتُ أن أشيرَ إليه وإلى موضعه، وهو يمثّل روحاً من العناد الحادّ يلمسُها القارىء لدى الرافعي والعقاد معاً على حدّ سواء.

وحين انتقل الرافعي مبكراً إلى رضوان ربه، سكت العقاد، فلم يقلْ عنه شيئاً، وتلك ميزةٌ خلقيّة نعرفها له، ولكن بعض

تلاميذه أرادوا أن يقيموا معركةً طاحِنة بينه وبين العقاد ، فكتب الأستاذ سيد قطب، وكان حينئذ شاباً متحمساً يتْبع آثار العقاد ويؤيّده في كل اتجاه، كتب سلسلة مقالاتٍ بمجلة الرسالة تنتقصُ الرافعي لا في أدبه بلْ في إنسانيّته، وهو شططٌ عجيب تنبّه له الأستاذ سيد قطب، فَعدلَ عنه، واضطرّتْ هذه المقالات الساخنة تلاميذ العقاد أن يُدافعوا عن ميّت لا يملك الرد، فانبرى الأستاذ محمود محمد شاكر والأستاذ علي الطنطاوي والأستاذ محمد أحمد الغمراوي وغيرهم من نابهي الأدباء لمهاجمة الناقد المتعجل، والأستاذ العقادُ صامتٌ لا يُدلي برأي، حتى استطاع الأستاذ الزيات أن يأخذ منه حديثاً شفوياً، يُخبره فيه بتقدير الرافعي له، ولكنّه يأخذ عليه محاولة انتقاصه، وقد رَدّ الأستاذ العقاد بأنه لم ينتقص الرافعي كأديب، فقد اعترف بمقدرته الأدبيّة في بعض ما كتب عنه، ولكنّ الرافعي يُريد أن يعترف به فيلسوفاً من طِراز فلاسفة أوربا الكبار، وهُو من الفلسفة بمرمى ساحق، هذا بعضُ ما قاله العقاد، ونقله الزيات، ولكنّ التلاميذ من راغبي التملق للعقاد جعلوا يُهاجمون الرافعي، وفيهم من تُعوزه الأدلة فيَسمح للسانه أن يفتري . . وقد لحق العقاد بالرافعي بعد قرابة ربع قرن، فغابَ عن الميدان فارسان مدجّجان، تحدّثتْ بآثارهما الرُّكبان حديثاً ما زال يتمدّد صداه.

* * *

تحت راية القرآن

حديثُ الرافعي مع طه حسين غير حديثه مع العقاد، لأنّ النزاع بين الأديبيْن الكبيرين الرافعي والعقاد لم يمسّ مسائل جوهرية في الدّين والتاريخ والأدب، ولكنّه نقاش حولَ فُصولٍ وقصائد لا تُزعج قارئاً في عقيدته، ولا تُحطّم مقرراتٍ ثابتةً دون دليل، وقد قام الأستاذ الرافعي في مواجهة ما تورّط فيه الدكتور طه حسين مقاماً رائعاً ممتازاً وضع الحق في نصابه، حيثُ كان أوّل من نقض كتاب الشعر الجاهلي من الباحثين، وأوّلَ من لفتَ الأنظار إلى خطورة ما سَجّل من أوهام تتعلّق بالقرآن والإسلام، وبسبب مقال الرافعي ثارت ثائرةُ الشعب المسلم، وتحرّك الأزهر فأصدر بيانه الملزم، وكَتَب الناقدون في الصحف، وتفرّغ لنقض الكتاب أساتذة متخصّصون من أمثال: الأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد لطفي جمعة، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، والأستاذ عبد المتعال الصعيدي، وكلّهُم مشكورون، وقد جاؤوا بالمنطق الفصل بعد أن قال الرافعي كلمته في مقالات بالصحف اليومية الذائعة، فهو الأصلُ الأصيل لمن جاء بعده، وليس معنى هذا أنّهم رَدَّدوا قوله، ولكن معناه أنّه فتح لهم

الطريق، ووضع السراج في شِعابه المُتشابهة المختلطة، فاطمأنّوا في سيرهم واثقين.

إن ما يدعُوني إلى تسطير هذا الموضوع باعتباره صفحةً لامعة من صفحات الجهاد الدائب تحت راية القرآن الكريم، أن حفلات تكريميّة لذكرى الدكتور طه حسين تكاد تُقامُ سنويّاً في مصر، وكلُّها تزعم أنّه من حملة مشاعل التنْوير بما جاء في كتابه (الأدب الجاهلي) ومن قبله (الشعر الجاهلي). كما يقومُ المتحدثون في هذه الحفلات بهجوم على الرافعي لأنه خاصم الدكتور، وقد حسبوه كاتباً متخلّفاً، يقفُ أمام ما يسمّونه بالتنوير، يتكرّر هذا اللغطُ الكاذب كلّ عام، وكأنّنا لم نقرأْ ما كتبه الدكتور طه حسين مُخطِئاً، وما قاله الرافعي مُصحّحاً مصوِّباً، وقد كان الأَوْلى بهؤلاء أن يذكُروا أن ناقدي طه حسين قد أدّوْا فريضة العلم حين ناقشوا الكتاب، أما أن يكونُوا في مرآتهم مثالاً للرجعية والجمود، فهذا باطلٌ شائهٌ يقلب النور ظلاماً ويجعلُ السراب ماء. لذلك أُشير في هذا البحث إلى بعض ما قام به الرافعيُّ في هذا المجال، ولن أتسعَ في القول لأنَّ لي كتاباً برأسه تحت عنوان (النقد الأدبي في الشعر الجاهلي) أَصْدَرَتْهُ جامعةُ الإمام محمد بن سعود سنة ١٩٧٢، وهو يعالجُ هذه القضية باسطاً ما قاله الدكتور طه حسين، وما عقّب به مخالفوه، وفي مقدمتهم الأستاذ الرافعي.

وحين نتبين العلاقة الأدبيّة بين الرافعي وطه حسين نجدُها تمتد إلى ما قبل فتنة الشعر الجاهلي بمدىً طويل، فقد تحدث طه حسين عن كتاب تاريخ آداب العربيّة عقب صدوره، وقرّر أنه لم

يفهمه!! مع أنّه أثنى عليه في كتاب (الأدب الجاهلي) في موضوع القصص، وأكّد أن الرافعي أول من تنبّه من المعاصرين إلى التلْفيق في الرّوايات الأدبيّة الخاصة بالشعراء وقصصهم التاريخية، فكيف يكونُ الرافعي لدى طه حسين صاحب هذا السّبق بما ذكره في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)، ثم يجزمُ طه حسين أنّه لم يفهمْه، وكذلك فعل طه حسين حين تحدّث عن (حديث القمر) للرافعي فذكر أنه لم يفهمه، وصدرَ في هذه الأثناء كتابٌ من الأستاذ حفني ناصف يشيدُ بحديث القمر، كما أنشأ حافظ إبراهيم قصيدة في مدحه ـ لم تُنشر في ديوانه ـ ومطلعُها:

قرأتُ كتاب حديث القمر فنعم الأديبُ ونعم الأثر

فقال طه بصدد ذلك: إنّ حفني ناصف [1] لم يكتبْ خطابه مقرّظاً حديثَ القمر إلاّ بإلحاح من الرافعي، وإن حافظاً قد سخر من الرافعي في قصيدته سُخراً متوارياً، وأنشأ مقالاً يُبيّن ما في القصيدة من مآخذ، واضطرَّ الرافعي إلى الرد على ما اختلقَهُ طه عن الأديبين الكبيرين، بمقالٍ بعثه إلى (الجريدة) فنشرتْ بعضاً منه فقط، ويظهَرُ أن المقال كان شديد اللهجة فلم تر (الجريدة) بُدّاً من حذْف الكثير من معانيه.

---

(١) أشار الأستاذ محمد سيد كيلاني إلى معركة الرافعي الأولى هذه في كتابه (طه حسين الشاعر الكاتب)، وإليه رجعنا في تسجيل هذه المواقف. أما هو فقد اعتمد على ما جاء في الجريدة بتاريخ ٥/١/١٩١٣، ٧/١/١٩١٣م.

وقد هدأتِ الخصومة مدىً من الزمن بعد هذا العراك، ثم نشبتْ بأقوى مما كانت حين نَشَر الرافعي كتابه عن (رسائل الأحزان)، فكتب عنه طه منتقصاً زاريا، وردّ عليه الرافعي بمقال ثائر نشره بجريدة السياسة، ثم جمعه في كتاب (تحت راية القرآن) مفنداً كل ما اتجه إليه طه حسين في نقده للرسائل، ومما جاء فيه قوله[1]:

«إني والله (على إعجاب كانَ بك) أصبحتُ مستيقناً أن الله تعالى لم يهبْكَ إلى اليوم قَلَمَ الكاتب، ولا أودَعك دهاء السياسيّ، ولا خصّك بفهم الحكيم». وقد كان للمجاز في البيان العربي تحليلٌ جيّد في مقال الرافعي، إذ أخذ عليه طه حسين اتّساعهُ في المجاز، كما رماه الرافعي بأنه سرق بعض معانيه في بعض ما كتب، وأشار إلى المسروق وموضع السرّقة، وليس هنا موضع الاستقصاء، ولكني أشير.

بعد هذا كله أؤكد أن العلاقة مبتورةٌ بين الأديبين الكبيرين، لا منذ ظهر كتاب (الشعر الجاهلي) كما خُيّل لبعض الباحثين. ولكنْ منذ أظهر الرافعي الجزء الأول من تاريخ آداب العرب سنة ١٩١١، حتى إذا ظهرتْ فتنة الشعر الجاهلي كان الرافعي قائد الجند في حلبة الصيال.

وقد استطاع طه حسين بأسلوبه الماهر أن يطوي المازني فلا

---

(١) تحت راية القرآن ص ١٠٥.

يكرِّر نقداته، لأنّ المازني هاجم كتاب حديث الأربعاء هجوماً قاسياً يَراهُ القارىء في كتاب (قبض الريح)، كما تحدّث عما سمّاه (العَمَى والغريزة الجنسية) بما أزعجَ الدكتور طه وأرَّقَهُ، ولكنّه حاول استرضاءهُ مستخذياً، وكذلك كان مسلكه مع العقاد حيثُ تحاشى أن يصطدم به في أي مجال، وإذا نَقَدهُ العقاد داعبه في الرد مستخذياً كذلك، لأنّه لا يريد أن يفتح باباً من النار يحرقه ويشويه، أمّا الرافعي بجموحه واعتزازه وإبائه فلمْ يأبه لثناء طه حسين عليه في كتاب الشعر الجاهلي، بل رأى المسألة مسألة دينٍ قبلَ أن تكون مسألة أدب، وإذا تحمّس الرافعي لدينه فمن يثنيه؟

على أنّ ما آلمني ممّن قالوا في مهرجان الاحتفال بذكرى طه حسين، أنّهم جعلوا مسألة النقد الخاص بكتاب الشعر الجاهلي مسألةً عَاميّةً سطحيّة لدى نفرٍ من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث الاستشراقي ذي الأصول المنهجيّة الدقيقة، وهذا غمطٌ للحق، فمن تكلّم في نقد كتاب الشعر الجاهلي من الأزهريين، قد ولَّى المقام حقّه؛ مثل الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه المستقل، ومثل الأستاذين عبد المتعال الصعيدي ومحمد سليمان في مقالاتهما بالمقطم والأخبار (الرافعية). . ولكن الأمر في الردّ لم يقتصر على الأزهريين، إذ ظهرتْ كتبٌ مستقلة لأعلام من غيرهم أشرتُ إليهم في صدر هذا المقال، كما أنّ كليّة الآداب المصرية قد ناقشتِ الموضوع في رسائل جامعية خالفت منحى الدكتور ومنحت أصحابها أعلى درجات التقدير، ومن بين هؤلاء الدكتور ناصر الدين الأسد في رسالته عن مصادر الشعر الجاهلي وقد

طُبعتْ عدة مرات، وفي أساتذة كليّة الآداب من دحَض الفرية في دراساتِه ولكنْ بأسلوب هادىء، وقد قرأتُ أخيراً كتاباً قيماً للدكتور (إبراهيم عوض) الأستاذ بكليّة الآداب بجامعة عين شمس، وأحدُ المتخرّجين من جامعة أكسفورد الإنجليزية تحت عنوان (معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين)، أتى فيه على كلّ ما تورط فيه الدكتور طه حسين من الأراجيف، فكيف يقولُ بعض المؤتمرين في حَفْلة الذكرى إن الثورة على كتاب الشعر الجاهلي كانت خاصةً بنفر من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث، وقد كتب باحثٌ جامعي في جريدة الأهرام يُعلن أنّ الأستاذ الدكتور طه حسين لم يغتصب مقالاتِ مرجليوث في دَعْوى انتحال الشعر الجاهلي وإنما جاء بها من عندِ نفسه!! وهذا تجنٍّ رَفضهُ الذين ناقشوا هذا القول، ولكنه لم يخدمْ دِفاعَه عن طه حسين إذ أثبتَ أنّه صاحبُ الهجوم العاصف دُون أن يتأثر بأحد! وكان على باحث الأهرام أن يقول إنّ الدكتور طه حسين لم يأتِ بهذه الآراء، إذا حاول تبرئته، ولكنه لا يستطيع.

كانت الصيحة الأولى للرافعي - بل ولمن قرأ مقاله هذا في كوكب الشرق - فاحتذاه أن كتب فصلاً تحت عنوان (إلى الجامعة المصرية) يُلخص فيه ما ترامى إليه من بعض دُروس طه بالجامعة حيث يتساءل:

١ - هل قرّر أستاذها - الجامعة - أنّ المسلمين مَحَوا شعرَ النصارى واليهود، ومنعوا رِوايته خوفاً على الإسلام، فمِنْ أجل ذلك لم يَنْتَه إلينا من أخبارهم شيء؟

٢ ـ وأنّه لا يوجد شعرٌ جاهلي بل هو مصنوعٌ بعد الإسلام، وأنّ هذا الجاهلي لا يُستشهَد به على القرآن، بلْ القرآن هو الذي يحتجّ به للشعر.

٣ ـ أنّ العصر الجاهلي الذي ضاعَ شعره قد حُفظ، لأنّ القرآن الكريم يمثّله.

٤ ـ وأن الغزل المرويّ لامرىء القيس هُو لعمر بن أبي ربيعة!

وهذه الأسئلة مهما أبانت بعض أخطاءِ الدكتور طه لا تُسبّبُ انزعاجاً شديداً، كالذي وقعَ من بعد، لأن القاصمة التي وقعتْ وقوع الصاعقة على القرّاء هي ما ذكره الرافعي في مقالٍ تالٍ تحت عنوان (أستاذ الآداب والقرآن) إلى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة[1]، حيثُ نقلَ للقراء في هذا المقال العاصف قول طه حسين ص٢٦ من كتاب الشعر الجاهلي:

«للتوراة أن تحدّثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدثنا عنهما، ولكنَّ وُرودَ هذينْ الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وُجودهما التاريخيّ، فضلاً عن إثبات هذه القصّة التي تُحدّثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة.. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

---

(١) تحت راية القرآن ص١٤٤.

إنّ كل مسلم يعذر الرافعي حين يجدهُ مشتدّاً في الهجوم على هذه الأباطيل الزائفة، وبخاصةٍ إذا علم أنها منقولةٌ عن أكثر المستشرقين كيداً للإسلام، وقد بدأ الرافعي نقضه لهذه الفرية بقوله:

«فانظرْ إلى هذه الوقاحة في قوله (للقرآن أنْ يحدّثنا) كأنّه زعم زاعم، له أن يقول، وأنْ لا يقول، وإذا لم يكْفِ النصّ في كتاب سماويّ تدينُ به الأمّة كلها لإثباتِ وجودِ المنصوصِ عليه، فما بقيَ معنىً لتصديقه، وما بقي إلاّ أن يكونَ القرآن (كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياؤه) كلاماً من كلامِ النبي ﷺ نفسه، ومن نظمِه وعمله كما نقل عن هذا الخرِف المسمَّى كليمان هوار، فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب، فلَهُ أن يزعم ما شاء، ولكنْ ليسَ علينا أن نصدّق وأن نطمئن، وإذا هو ذَكَر اثنين من الأنبياء، وإذا هُو وَرَدَ فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فذلك غير كاف في رأي الجامعة المصريّة، لإثْباتِ أن إبراهيم وإسماعيل شخصانِ كان لهما وجود تاريخي، ولا أنّهما هاجرا إلى مكة، ورفعا قواعد البيت الحرام، وبنيا الكعبة، وإذنْ فالقصّةُ في رأي الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعة، ومما يلحق بحيل الرّوائيين التي يَشدُّون بها المعاني الاجتماعية والسياسية والتاريخية، ويُؤتَى بها في الرواية على أنّها من الكذب الفنّي توصُّلاً إلى سبكِ حادثةٍ، أو تقريرِ معنى، أو شرحِ عاطفة».

ومضى الرافعي يفنّد هذا الرأي بما هو مقرّرٌ تاريخياً من

انفصال المجتمع اليهودي عن العرب في دور البعثة، وبأن اليهود كانوا أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمةٍ أن تضع لهمُ التاريخ، وإذا كانتْ قريش قد قبلت الأسطورة الخرافيّة التي تُثْبتُ أنّ الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل، فأخذ الأسطورة مَنْ وَضَع القرآن عن قريش لأنه منهم؛ فالقرآنُ حينئذٍ كَذِبٌ وتلفيقٌ وليسْ من عند الله!!

هذا الفصلُ الذي كتبه الرافعي تحت عنوان (أستاذ الآداب والقرآن) من أقوى ما دافع به الرافعي عن الحقيقة المؤمنة، وهو وحده كافٍ لتحطيم كتابٍ لم يَرْعَ حُرمة البحث، حين نقل أكاذيب الاستشراق عن القرآن وعن رسول الله، وقد وقع الدكتور طه في تناقض حين قرر أنه لا يجوزُ الاعتماد على الشعر الجاهلي في تصوير الحياة الجاهلية، وإنما يُلتمسُ هذا التصوير في روايات التاريخ وفي الأساطير، وَوَجْهُ التناقض ما ذكره الرافعي حين قال [١]:

«لقد عجبتُ لأستاذ الجامعة كيف يعتمدُ في تصوّر العصر الجاهلي على التاريخ والأساطير، وهو الذي يقولُ بالشك! وكيف تصحُّ عنده الأساطير، ويصحّ التاريخُ العربي دون الشعر الجاهلي! وهل جاءَ هذا الشعرُ إلا مِن الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ، أيْ بالرواية والإسناد، ومن الحفظ والتلقين؟ وإذا جاءتْ ثلاثَتُها من طريق واحدةٍ، وكان الكذبُ والوضعُ قد دَخلَها جميعاً، ونص العلماءُ على أشياء من ذلك في الأبواب الثلاثة، فكيفَ

---

(١) تحت راية القرآن ص١٥١.

يكونُ العصر الجاهلي صحيحاً في اثنين منها دون الثالث، مع أنّ الوضع فيهما أيسرُ من الوضع في الشعر، إذْ هما كلامٌ كالكلام لا مؤونة فيه ولا تعب، ولا صناعة، ولا كذلك الشعرُ، وخاصّةً ما يوضع على ألسنة فحول الجاهليين».

وكل ما ذكره الأستاذ الرافعي في هذا الفصل رائعٌ رائعٌ، وقد فتح به القول لكثيرٍ ممن ناقشوا الدكتور طه فيما بعد، وليس معنى ذلك أنهم أخذوا منه، ولكنّ معناه أن الناقد الكبير يفتحُ أبواباً كثيرة من القول، يقرؤُها الدارس المتفحص، فتفتحُ عليه بكلامٍ جيّد يشدّ أزْرَ النقد الرافعي، فحديثُه ذاك بذرةٌ جيدةٌ في أرضٍ خصبة لم تلْبثْ أن صارتْ شجرةً مورقة.

أما فكرةُ الشك في العصر الجاهلي فقد أثبت الرافعي أنها مأخوذةٌ من المستشرقين. وهو أول من أشار إلى ذلك وكان أميناً في إشارته، حيث أثبتَ عن الدكتور يعقوب صروف أن مجلّة الجمعية الأسبوعية نَشْرت بحثاً لمرجليوث أنكر فيه صحة الشعر الجاهلي! وقد بحث الدّارسون على مجلة الجمعيّة فوجدوا النقَل صريحاً دون لبس، ومعنى ذلك أنّ الرجل تَبنّى أقوال غيره دُون أن يشير إليه أدنى إشارة، وجاءَ أحد أشياعه فكتب أن ذلك من قبيل توارد الخواطر كما زعم طه حسين، وتواردُ الخواطر لا يكونُ في نظريّةٍ ذات حُجج وبراهين واستشهاد، ولكنه يكونُ في فكرةٍ أو خاطرةٍ أو معنى بيت مفرد! وإذا كان التواردُ قد جاءَ في النظريّة فَلِمَ تكونُ حُجَجُها وبراهينها واستشهاداتها مُتفقةً؟!!.

وقضية الشعر المنحول قد فرغ منها ابن سلام الجمحي وغيرهُ من القدماء، وخصّها الرافعي بمقالٍ جيّد في الجزء الأول في تاريخ آداب العرب، ولكنّ هناك فرقاً بين أن يكون في الشعر الجاهلي قصائد أو أبياتٌ نُسبت إلى غير قائلها، وبين أن يكون الشعر الجاهلي كلُّه منتحلاً لم يقله شعراؤه المشهورون!! إننا في هذا العصر نرى قصيدةً نُشرت بإحدى الجرائد والمجلات، ثم جاء من نُسبتْ إليه فأنكر أنها من نظمه، وأن آخر قد نسبها إليه لغرضٍ في نفسه، فهل يكون هذا الانتحال دليلاً على أنّ الشعر المعاصر كله مكذوب!! أو أنْ يكونَ دليلاً على أنّ في الناس من يعمد إلى إغاظة شاعرٍ غريمٍ فينسبُ إليه ما لم يقلْ، لتقع عليه تبعتُه، فقد نظم حفني ناصف قصيدة نسبها إلى الشيخ حمزة فتح الله، وكتبها بخطٍّ كخطِّ الشيخ كي لا تَشُكّ الجريدة أنها مرسلة من الشيخ حمزة!! وكان النظم متقناً جارياً على طريقة الشيخ في النظم، حتى إنه حين قرأ القصيدة، قال هذا كشعري ولم أنظمه، وحين ذهب إلى إدارة المجلة ورأى الأصل مكتوباً بما يُشْبهُ خطه، قال وهذا خطيّ ولم أكتبُه، فهل يجوزُ لناقدٍ أن يقول إن الشيخ حمزة لم ينظم أي قصيدة، وأنّ ما نُسبَ إليه منحول!! ولا أريد أن أضرب أمثلة أخرى من الشعر المزوّر في هذا العصر كي لا يتشعب بنا الحديث.

وتَتَبُّع الآراء الخارجة التي فنّدها الأستاذ الرافعي في كتابه (تحت راية القرآن) مما يتسعُ بالبحث إلى مدى فسيح، ولكنْ أذكر النقاط الهامة، نقلاً عن كتاب (معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي

وطه حسين) للدكتور البحّاثة إبراهيم عوض، حيثُ جمع هذه الخطرات الشاذة في موضع واحد من كتابه، وقد أشرتُ إلى حديث طه حسين عن القرآنً والتوراة وعدم الركون إليهما، وبقي أن أقتبس ما قاله الدكتور عوض في حيّزه[1] الوجيز مما فنّده الرافعي أتم تفنيد، وهو منحصر في هذه النقاط:

(١) يجب حين نستقبل البحثَ عن الأدب العربي أن ننَسى قوميتنا وكلّ مشخصاتها، وننَسى ديننا، وكلّ ما يتصل به (٢) إن قريشاً كانتْ في عصر ما قبل الإسلام ناهضةً نهضةً مادية تجارية، ونهضةً دينيّة وثنيةً، وهي بحكم هاتيْن النهضيتْن كانتْ تحاول أن تُوجد في البلاد وحدةً سياسية وَثَنيّةً مستقلة، وإذا كان هذا حقاً ونحنُ نعتقد أنّه حقٌّ فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة عن أصْلٍ تاريخي يتّصل بالأمم التاريخيّة الماجدة التي تتحدثُ عنها الأساطير، وإذنْ فليس ما يمنع قريشاً من أن تتقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إبراهيم وإسماعيل، كما قبلت رُوما قبل ذلك ولأسبابٍ مُتشابهة أسطورة أخرى صنعها اليونان تُثبت أن روما متصلةٌ بإيتّياس بن بريام، صاحب طروادة، وكذلك ما قاله ـ ص٨٠ من كتابه السالف الذكر ـ: من أن القرآن «يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئاً آخر هو صحف إبراهيم، ويذكرُ غير دين اليهود والنصارى ديناً آخر هو ملّة إبراهيم، هو هذه

---

(١) معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين ص١٩.

الحنيفيَّة التي لم نستطع إلى الآن أن نتبيّن معناها الصحيح، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله، ولم يكنْ أحدٌ قد احتكر ملّة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها، فقد أخذ المسلمون يردُّون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم، ويذكر ص٨٣: «وليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثّر بشعر أمية بن أبي الصلت أو لا يكون، وقوله (ص٨٥) في الرد على المستشرق كليمان هوار، وزعْمِه أن النبي ﷺ قد استعان بشعر أمية بن أبي الصلت في تأليف القرآن: (من ذا الذي يستطيع أن ينكر كثيراً من القصص كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أنْ يعرفه النبي ﷺ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم كان النبي ﷺ وأميةُ متعاصريْن، فَلِمَ يكونُ النبي ﷺ هو الذي أخذَ من أميّة، ولا يكونُ أميةُ هو الذي أخذ من النبي» والرافعي يلمح بهذا الكلام إلى أن النبي في نظر طه حسين هو مؤلّف القرآن، وهو ما يفهم من قوله (ص١٨٢) في تعليل مخالفته لمن يروْن أنّ إنكار الشعر الجاهلي يسيء إلى القرآن لأن القرآن ليس بحاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب (إنّ أحداً لم ينكر عربيّة النبي فيما نعرف، فهو يَرَى في الإشارة الأخيرة أن القرآن هو كلامُ النبي وقوله (ص٧٢ـ٧٣) أنه يُوجد نوعٌ آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته للجاهليين، وهو ما يُقصد بتعظيم شأنِ النبي من ناحية أسرته ونسبِه إلى قريش، فلأمرٍ ما اقتنع الناسُ أن النبي يجبُ أن يكون صفوة بني هاشم، وأن

يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكونَ بنو عبد مناف صفوةَ مُضَر، وأن تكون مُضر صفوةَ عدنان، وعدنان صفوةَ العرب، والعربُ صفوة الإنسانية كلها، وهذا تهكُّم واستهزاءٌ بالحديث المروي عن رسول الله: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

هذه أمورٌ أوْجزها مؤلّف (معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين) كما تحدَّث عنها الرافعي في نقدِه لكتاب الشعر الجاهلي، وهي مسائلُ من الخطورة بحيث لا تُترك دون ردّ ماحق، وقد قام الرافعي بهذا الرد أوّلاً، قبْل أن يسبقه غيره من كبار النقاد، أفيجوزُ لمن يعقدون المؤتمرات أن يسخروا بالرافعي ويعدونه عقبةً في طريق ما يسمونه (بالتنوير)!! على حين يكون طه حسين علم الأعلام في التنوير المعاصر، ونحن نقرأ ما كتب طه وما ردَّ به الرافعي، ونَزِنُ كل قول بمقدارِ حظه من الصواب والخطأ، وإذا أراد المغرضون أن يُهاجموا الرافعي فعليهم أن يثبتوا شيئاً واحداً هو أنّ الرافعي قد افترى هذه الأقوال ونسبها إلى طه حسين اختلاقاً وافتراءً، وهو منها بريء بريء، وأظنّهم لا يستطيعون أن ينكروا الحق اللائح الصريح، وحينئذٍ عليهم أن يحترمُوا من جَاهَد في سبيل دينه ولغته وعروبته، ولم يُلق السلاح في حومة النضال، حتى قابل ربّه، وصحيفتُه بيضاء، وقدره ثابتٌ مكين.

* * *

الرَّافِعيّ كَاتِبُ الوجْدَان

أصدر الرافعي بضعة كتب أدبية بارعة تحلل أسمى العواطف الإنسانية، وتتغلغل إلى أدق المشاعر، وأخفى النزعات فتكشف عن مكنونها، وتفصح عن أسرارها بأسلوب أدبيّ يتميّز به الرافعي فهو فيه فرد لا نظير له. ولا مناص لمن يكتب كتاباً عن الرافعي من أن يلمّ بأحاديث هذه الكتب بإيجاز، لأن محاولة تحليلها على الوجه الأكمل تقتضي دراسة أدبيّة في كتاب خاص، يحلل هذا النوع البارع من الأدب الإنساني ويوضح أثره وتأثيره على نحو مستفيض.

وقد وهم بعض الدارسين، حين حسب أن هذا اللون الوجداني مما يجبُ أن يبعد عن منزع كاتب إسلاميّ حمَل الراية دفاعاً عن دينه وعروبته ووطنه بعَزم لا يُفَل، وهمَة لا تخمد، وقد جهلوا أن كبار علماء الإسلام في سالفهم الزّاهر، قد وضعوا الكتب الوجداية ذات التحليل الأدبي الرائع والقصص العاطفي الشاجي، والاستشهاد الشعري الرقيق، ومنهم الإمام ابن حزم في (طوق الحمامة) والإمام ابن القيم في (روضة المحبين)، والإمام ابن الجوزي في (ذم الهوى). وقد قلت في تعليل ذلك من قبل في

فصل عَقَدْتُه عن (طوق الحمامة) [1]: «قد يكون هذا مستغرباً لدى من يظنون أن التفقه في الدين، والتنسك في العبادة مما يمنع خفوق القلب بالهوى، وذلك بعيد عن الواقع، لأن العواطف الإنسانية لا تُكْبَتُ بدراسة الفقه والتفسير والحديث، لأنّ هذه الدراسة النفيسة مما يساعد على إعلاء الغرائز، وسمو العواطف، فالفقيه العاشق أقربُ إلى التصوّن والعفاف ممّن لم يدرس منازع الإسلام في العفة والطهارة والشرف النفسي، مع ما يغرسه هذا الدين القَيِّم في النفوس من طموحٍ إلى الكمال، وارتفاع عن النزوات، فإذا وقع أحد هؤلاء الأماثل في طوفان الشوق فإن له من مبادئه ومثله ما يعصمه من الزّلل، فيظل عفيفاً طاهراً مع ما يعانيه من صبابة. ثم ضربت الأمثلة لفقهاء كبار عُرفت مكانتهم الدينيّة دون لبس، فقد نظموا من رقائق الغزل الصادق ما سار بين الناس، ومنهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الذين انتهت إليهم أمانة العلم في عهد عمر بن عبد العزيز بالمدينة، وعبد الرحمن القسّ صاحب القصّة المؤثرة مع سلامة، وعروة بن أذينة شيخ مالك بن أنس، والفقيه المحدث، وهو الذي يقول:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها	خلقت هواك كماخلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها	بلياقة، فأدقّها وأجلّها
منعت تحيّتها فقلت لصاحبي	ما كان أكثرها لنا وأقلّها

---

(١) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير للدكتور محمد رجب البيومي ص١٥٩.

فمضى وقال لعلها معذورة   في بعض رِقْبتها فقلت لعلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

الرافعي رحمه الله يقول في هذا المنحى من قصيدة:

قلبــــي يحـــبّ وإنمـــا   أخـــلاقُـــه فيـــه ودينـــه

لقد ظهر كتاب حديث القمر أول ما ظهر من سلسلة الأدب الوجداني، كتبه الرافعي وهو في مُقتبل الشباب إذ ألهم حب فتاة لبنانية حباً شريفاً طاهراً، رأى الرافعي أن يعبر عنه في حديثٍ لا يوجهه إلى صاحبته، بل إلى القمر لملابسات رقيقة بين الحبيبة والقمر؛ جمالاً وترفّعاً وصوناً عن الشبهات، وقد تحدّث الرافعي عن منحاه الخلقي الطاهر فيما هدف إليه من كتابة هذه الفصول في هذا الكتاب البارع فقال عنها (١):

«كتبتُها، وأنا آملُ أن تكون الطبيعة قد ألْقَتْ في معانيها بذوراً من عناصر التحول الأخلاقي تزكو في هذه القلوب الحيوانية التي لو نُقلت من جوانح البهائم لعاشت بها، وهذه النفوسُ التي تذلّ لأحقر مَنْ في الأرض، ولا تثور إلا على السماء، وهذه العقول التي تُحاول أن تكْتُب للروح تاريخاً أرضياً يبتدىء وينتهي في التراب، فتكون الحقيقة الإلّهية التي لا يدركها الإنسان بسبيل من الوهم الإنساني الذي لا يدرك الحقيقة.

كتبتُها وأنا أطمع أن تكون الطبيعة قد نفختْ فيها نسمة الحياة

---

(١) حديث القمر ص٥ طبعة كتاب المعارف التونسي.

للعواطف الميتة المدرجة في أكفان من الحوادث الدنيّة، فإن هُموم العيش لا تُميت من عواطف القلوب إلا تلك التي لا تعرف كيف تستمد الحياة من روح الطبيعة، وإنّما يكون استمدادها من مادتها فتحيا بخير، وتموتُ بخير، وقد تمضي كالوحش الذي يرميه الصائد ولا يصميه، فينفر حاملاً جنبه، وفي جرحه الموت والحياة معاً».

وفي الفصول صفحاتٌ طاهرة عن التصوف والعفاف والبعد عن الخطيئة، وقدْ قال الرافعي عن القلب الطاهر [١]: «إنّه موضع الحقيقة السماوية التي تظهر بين الناس في هيئتها فيسمّونها المحبّة، وبين الملائكة فيسمونها الإنسانية، وعند الله فيسمّيها الإيمان، وما كان في القلب غير ذلك فهو من تسلط العقل واستبداده».

وكل ما يمكن أن يوجّه إلى حديث القمر من نقد فهو لا يتعلق بمعانيه الرفيعة ذات السمو الأخلاقي الذي يجب أن يحتذى بين الناس، ولكنه يتوجه إلى أسلوبه الفني، لأنّ الرافعي يُكثف أفكاره في بعض الأبواب تكثيفاً متراكباً، فيقفُ القارىء أمامها وقفاتٍ مستأنية، وقد يُدرك ما يرمي إليه الرافعي، وقد لا يدرك، وليس للرافعي حيلة في البعد عن أسلوبٍ اعتقد أنه يسمُو بمستوى القارىء، وقد علّمَتْه التجربة أن يخفف قليلاً من هذا الإيغال الفكري، لأنّ الوضوح من سمات البيان الرافعي، وهذا ما ظهر

---

(١) حديث القمر ص٦٠ طبعة كتاب المعارف التونسي.

جلياً في صفحاتِ وحي القلم بأجزائه الثلاثة ذات الذيوع الممتدّ بين القارئين.

هذا عن حديث القمر، أما رسائلُ الأحزان، فنمطٌ من الأسلوب العاطفي المتألم، إذ قُدر للرافعي أن يكتبها بعد قطيعة طويلة بلغت من نفسه مبلغاً عظيماً، وقد كان يقدر لعزمه القويّ أنه سينصره في هذه المعمعة القاسية، فيلوذ بالصبر سالياً، ولكنّه وجد النّار تشتعل بين جوانبه، ثم هو لا يستطيع أن يقابل ملهمتَه فيحدثها عما اعتراه بعد أن كتب لها كتاب القطيعة.. كما لا يستطيع أن يتحدّث إلى أصدقائه بأعنف ما يعتلج في صدره من الهموم، وفي قلبه من الجذوات؛ لأنّ أحاديث القلوب سرٌّ عظيم الخطر، لا يسمح عاشق محترم لنفسه أن تكون مما يُبتذل في المسامرات بين الأصدقاء.

وإذا كان لا بدّ من التنفيس عن هذا الأوار المشتعل، فلْيكن القلمُ وسيلتَه إلى ذلك، بأن يكتب كل لواعجه التي يُحسّ بها عنيفةً صارخة في رسائل متتابعة، لا ليصل إلى الملهمة فهذا ما لم يعد سبيلٌ إليه بعد التقاطع، ولكنْ لتُطْبع في كتابٍ يسمى (رسائل الأحزان)، وقد قال الرافعي في مقدمة هذا الكتاب ما يدلّ على ما يشعر به من بغضٍ لهذه الحبيبة يتمازج مع الحب، وهذا مالا أحسبه يقع في الحياة على النحو الذي يقولُه الرافعي، إذ أن هذا البغض الشديد الذي يتحدث عنه الرافعي لم يكن بُغضاً بالمعنى المتعارف لَدَى الناس من هذه الكلمة، ولكنّه شعور بالخَيْبة تغلغل في نفس العاشق الهائم، فكره الحبّ نفسه لا الحبيبة، ولو كان

البُغض حقيقياً لقاومَ هذا الاندفاع العارم. وعلماء النفس لا يمنعون أن تتناقض الأحاسيس في وقتٍ واحد، فهذا ما نَشْعُر به جميعاً، ولكنهم لا يسمّون شدة الحسرة التي تُعقب الفراق بُغْضاً، إذا طفق الحبيب يتحدث عن مزايا حبيبته دون انقطاع، كما تنطقُ بذلك رسائل الكتاب في ولهها الضارع وحنينها الشجيّ، وإذن فالبُغض متوهّم فحسب:

يقول الرافعي[1]: «أرأيت قط ذئباً قد افترس شاةً وجعل يفرفرها بأظافرهِ وأنيابه وهي تنتفضُ يائسةً هالكة؟ إن تكن رأيتَه فذلك ذئبٌ رحيم. لو أنت كنت عاشقاً، فرَجعتْ لكَ من تَهواها مما تحب إلى ما تكره، فرأيت البغض وما يصنعُ بقلبك، إنّما الذئب نابٌ وظفرٌ وسَوْرَةُ وحْش، يعتري أكيلته فيسطو بها فيذهلها عن نفسها، ثم لا يزيدُ بعد ذلك على طبيبٍ جاهل في (عمليّة جراحية). أما البُغض فذئبُ الدم يُساورك سَوْرَةَ الحمَّى فإذا هو شعلةٌ طائرة في عُروقك لا تدعُ منك موضعاً إلاّ مسّته، ولا تمسُّ منك موضعاً إلا نقعت فيه مثل ناب الأفعى من وهج الحب وسمِّه وغيظه وألمِه، فما تدري في أي ناحيةٍ عذابك من هذا البغض، ولا من أيّ الآلام هو».

يصوّر الرافعي ما أعقب القطيعة من ألم مبرّح دُونه ألمُ الشاة حين يفتكُ بها الذئب، ويجعلُ هذا الألم بغْضاً قويّ التأثير إلى ما هو أفظعُ من الافتراس، والحقيقة أن هذا الألم يزولُ فجأة إذا

---

(١) رسائل الأحزان ص٢٢ طبعة تونس.

سَمح المعشوق بالوصل، فتصير حياةُ العاشق جنةً مورقة الظلال، فاترك ـ أيها القارىء ـ مسألة المحب والحبيب، وتعالَ لغيرهما، كَتَاجِرين مثلاً كانا شريكين ثم اختلفا واشتَعل البُغض بينهما، وسعَى رجال الخير في تصالحهما بأن يتنازل كلٌّ عن بعضٍ حقه، فتمّ الصلح وخرج كلاهما من المجلس لا ليشتركا من جديد، بلْ لينفرد كلٌّ بعمله، أتَرى أحدهما يحسُّ وبعد هذا الصلح المفروض بشوقٍ إلى مُعاودة الصفاء كما كان من قبل!؟ إن البغضَ الحقيقي يمنعُ هذا الاتصال بعد أن تكشَّفت الأيام عن مآخذ يحسبها كلٌّ منهما على صاحبه، أمّا ما يُعقبُ الهجرَ من وصال ترفّ له الأضالع، وتبردُ به الجوانح لدى الأحبّة فمعناهُ أن البغض كان مُمتنعاً كل الامتناع، وأن عتاباً حارّاً توهّج فتوهّمه الرافعي بغضاً وليس به!!

وقد دارتْ حول رسائل الأحزان معركةٌ بين الرافعي وطه حسين، إذ بعَث الرافعي بكتابه إلى الدكتور طه ورجاهُ أن يكتب عنه، فكتبَ طه ما رآه الرافعي هدْماً لكتابه، وأسلوبُ طه فيما كتبه لم يكنْ عنيفاً، ولكنّه عبر عن عدم ارتياحه لأسلوب الرافعي في كتابه وقال بصدد ذلك [1]: «تَظلمُ الرافعي إن قلت إنه لا يشقّ على نفسه في الكتابة والتأليف، بل أنت تنصفه إن قلت إنه يتكلف من المشقة في الكتابة والتأليف أكثر مما ينبغي، وقد كنتُ أريد أن أقول إنه ينحت كتبه من الصخر، ولكني لا أجد في هذه الجملة ما ينبغي لوصف هذه المشقة!!».

---

(١) حديث الأربعاء جـ (٣) ص١٣٨ دار المعارف.

ثم قال طه حسين بعد أن ذكر أن الرافعي يعاني في كتابته ما تقاسيه الأمّ من آلام الوضع:

«وكذلك تظلم الأستاذ الرافعي إذا قلت إن حظّه من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها وأسرارها قليل، وإنما الحقّ أن الذين يعلمون هذه اللّغة كما يعلمها الأستاذ الرافعي قليلون جداً وأحسبُهم يُحصون، والحقّ أن الذين يظهرون على أسرارِ هذه اللغة ودقائقها كما يظهر عليها الرافعي قليلون جداً، وأحسبهم يُحصون أيضاً، ولكنْ ماذا تريد وقد أبى الأستاذ الرافعي، أو أَبَتْ عليه فطرته، أن يكونَ علمه باللّغة مفيداً، وأن يكون ظهوره على أسرارها نافعاً! ماذا تُريد وقد حرص الأستاذ الرافعي على أن يكون وحده منفصلاً عن هذا العالم الذي يعيش فيه».

هذا بعض ما قال الدكتور طه، وأحسبُ الأستاذ الرافعي لو اصطنعَ الرفق في ردّه عليه، ولم يَثُرْ ثورةً هائجة تنتقص الناقد في كل شيء، لما وقع بينهما هذا العداء، ولكنّ الرافعي عدَّ نقد الدكتور طه حسين مُغرضاً ذا هوى وكتب ردّاً عنيفاً أخذ اثْنَتْي عشرة صفحة في كتابه (تحت راية القرآن) ما بين ص١٠١ وص١١٢، كان أكثرُه حديثاً شخصيّاً عن طه حسين فقال [١]: «إنّه يصدر في نقده عن واحدة من ثلاث: فإمّا طبيعةٌ في النّفس مبنيّة على المكابرة والمراء لا يُبالي معها أن يحذف العقل ويُسقط

---

(١) تحت راية القرآن ص١٠١.

الخلق، ويمتهن الكرامة فيقول هذا الذهب حجر، وهذا الحجر ذهب، وإما طبعٌ في الكتابة مستوخم باردٌ تجذبُ إليه أصولٌ ضعيفة في الخيال والفكر، فلا يرتفع ارتفاعاً سامياً، إنما يسف ويهبط، وإما عقلٌ لا كالعقول، ونسأل الله السلامة، فما من واحدة من هذه بدّ».

وأسألُ بعد ذلك الرافعي: ما الذي دعاه إلى أن يطلب رأي الدكتور طه في رسائل الأحزان، وهو قد علم من قبل رأيه في حديث القمر، والكتابان من نبع واحد! لقد كان طه معتذراً عن الكتابة، فطلب الرافعي رأيه، وما كان عليه أن يقسو هذه القسوة في ردِّه لتلتئم الجراح.

وبعد رسائل الأحزان، ألّف الرافعي كتابه (أوراق الورد) وهو ينبىء عن هدوء نفسي، وسلوٍّ روحي بالنسبة إلى الثورة الهائجة في (رسائل الأحزان)، فقد آثر الرافعي أن يكون واقعياً لا يسبح في أجواء الخيال منتظراً لقاء ملهمته فقد تحقّق أن ذلك بعيد بعيد، ولكنّ هذا البعد لا يَمنع خياله أن يستحضرَها ويحادثها، ويصفَها بهدوءٍ كما تلوح في خاطره، ثمّ أن يسترجع الماضي فيتخذ من ذكرياته صُوراً يكون منها النسيج الزاهي لما يكتب، والحقّ أن العقل الراجح قد عاد إلى الرافعي في هذا الكتاب بعد الثوران الجامح فيما قبله، ويظهر أن الرافعي لم يكتف بذكرياته عن ملهمته هذه، فأضاف إلى الكتاب خواطر مما بعثتّه صاحبة (حديث القمر) في نفسه، والرافعي العاشق لا ينسَى أيّة خاطرة وجدانية مرتْ به، بل إنه يَستنبتها في قلبه، ويحنُو عليها متعهداً إياها بالري والنماء،

حتى تزدهر وهي في نفسه جزء من حياته، وظلَّ رف عليه حقبةً من الزمان فَوَقاهُ لفح الأعاصير، وقد أفلح الأستاذ محمد سعيد العريان حين اختار في مقدمة حديثه عن أوراق الورد فِقراً رائعةً منه، تصوّر الجوّ العاطفي الذي شمَل الرافعي أثناء ميلاد هذه الأوراق، وننقلُ عنه هذه الفقر المختارة لِدلالتها البعيدة عن شجون الرافعي، وما تقلّبت عليه حياتُه أثناء سبع سنوات من لهفةٍ واضطرام، إلى هدوء وحنين، كما أنّ هذه الفقر المختارة تُصوّر للقارىء كيف يذعن العاشق للسلوّ إن لا مفرّ منه، وكيف يجده شيئاً مريحاً، وهو في رأيي سلوٌّ ظاهريّ لا حقيقي، لأنّ النار لا تزالُ كامنة تحت الرماد، يقول الرافعي في مواضع شتى من أوراق الورد كما اختارها العريان [1]:

«إنّه ليس معي إلا ظلالها، ولكنّها ظلالٌ حية تروح وتغدو في ذاكرتي، كلّ ما كان ومَضَى من هذه الظلال الحيّة كائنٌ لا يفنى، وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجَماً إلى لغة عينيه، أصبحتُ أراها في هجرها طبيعةَ حُسنٍ فاتنٍ مترجمةً بجملتها إلى لغة فكري.

كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني، فبدّلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقارُ اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها.

---

(١) حياة الرافعي ص١٤٠.

ما أريدُ من الحب إلا الفن، فإن جاء عن الهجر فن فهو الحب، وكلما ابتعدت في صدّها خطوتين، رجع إليّ صوابي خطوة. . لقد أصبحتُ أرى ألين العطف في أقسى الهجر، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضى، ولن يحسن عندي إلا ما يحسن، ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب، أريدُها غضبىٰ فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة وحبّ يناسب كبريائي، ودعْ جُرحي يَتَرشَّن دماً، فهذه لعمري قوةُ الجسم الذي ينبت ثمر العَضَل، وشوك المخلب، وما هي بقوةٍ فيك إن لم تقوَ أول شيء على الألم.

أريدها لا تعرفني ولا أعرفها، لا من شيءٍ إلا أنها تعرفني وأعرفها، تتكلم ساكتة، وأرد عليها بسكوتي، صمتٌ ضائع كالعبث، ولكنه في القلبين عمل كلام طويل.

هذه الفِقر المختارة تدلّ على روح (أوراق الورد)، فإذا أردنا اختصارها إلى فقرةٍ واحدة فهي هذه: «كان لها في نفسي مظهرُ الجمال ومعه حماقةُ الرجاء وجنونه، ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني، فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها».

وإذن فقد يئس الرافعي واليأس أول خطوات السلوان.

وفي رسائل الرافعي التي نُشرت بعد وفاته ما يدلّ على إعجابه الزائد بأوراق الورد، حيثُ كانتْ خاتمة إبداعه الوجداني، وقد قال عن هذه الأوراق أنها سدّت المكان الخالي في الأدب العربي،

وأعطتِ العربية كتاباً في رسائل الحب وفلسفته وأوصافه، يُقابل ما في اللغات الأخرى، هي من الناحية الفنيّة عملٌ أدبيّ حاسم يفصل في النزاع بين القديم والجديد لأنّه نزاع كلامي، إلى أن يضع أحد المذهبيْن عملاً يعجَزُ عنه المذهب الآخر، كما أن هذه الرسائل قد دعت إلى تطهير فكرة الحب، وتهذيب معانيه في نفوس الشباب، والسموّ بهذه الفكرة إلى الجهة الشعرية الروحانية، لتسمو بها بدلاً من أن تسقط؛ وإذا كان الكُتّاب الأوربيّون يعيبون العربية بضعف تصوير العواطف، وأنّها ليست لغة تحليل، فإنّ هذا الكتاب أبلغَ ردٍّ على فسادِ ما يزعمون.

وقد ثارت معركةٌ بين الرافعي وزكي مبارك في موضوع رسائل الغرام في الأدب العربي، حيثُ ذهب الرافعي إلى أنّ أوراق الورد أوّل كتاب في هذا الباب، ولم يسبقه سابق من قبل، وزعم الدكتور زكي مبارك أنّ الجاحظ قد كتب رسالةً وجدانية إلى صديقه القائد الوالي إبراهيم بن المدير. . فيها مِن خطرات الشوق، ودلائل الوجد ما يدلّ على سبق الجاحظ في هذا المضمار! ولستُ مع الدكتور زكي في رأيه، لأنّه استشهد برسالة صديقٍ إلى صديق، والرافعي يعني رسائل الحبيب إلى الحبيبة نثراً، وهذا مالا وجود له في الأدب العربي قبل هذه الرسائل. وقد حاول الأستاذ محمد صادق عنبر وهو من أمراء البيان في هذا العصر أن ينُحو منحى الرافعي فكتب كتابه (رسائل الحب من قيس إلى ليلى)، ولكنّه جاء بعد تأليف (أوراق الورد)، وقد اعترف صادق عنبر بأنه يُحاكي الرافعي ويعيش في جوّه وإنْ كان أكبر سنّاً منه. وهذا ما تشهدُ به

آثارُ الأستاذ صادق عنبر، وهي في حاجةٍ إلى من يجمعها من بطون الصحف والمجلات ليصونها من الضياع الأبدي! على نفاسة ما تتضمّن من أفكار وعواطف غاليات.

وللرافعي بعد ما تقدم كتابان أحدهما تحت عنوان (السحاب الأحمر) هو صفحات تتحدّث لا عن الحب بل عن البغض في أكثر أبوابه، إذ يلم الرافعي بأفكارٍ عن طيش الغرام، ولؤم المرأة، وطيش النزوات، وهو صدىً لما يعتريه في فترات السلو من نوازع ترجع به إلى الماضي وسرعان ما ترتدّ، ويقول الأستاذ محمد سعيد العريان[1]: «إن الرافعي بهذا الكتاب (أراد أن يشعر صاحبته من خبره ما أراد من إهمالها وعدم تذكارها) وهي رغبة لم يستطع الرافعي الثبات عليها، لأنّ عواطفه أقوى من أن تلج باب النسيان، وقد ختم السحاب الأحمر بفصل رائع عن الأستاذ الإمام محمد عبده قال فيه مالم يستطعْ مادحٌ أن يقول مثله في الشيخ الإمام من قبل أو بعد... فهو رجلٌ كان في تركيب العالم الإسلامي أشبه بالجبهة من جسم المؤمن، هي مجلى نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعين، ولكنّها مع ذلك أولُ ما يسجد لله من هذا الجسم كلّه، خُلق فصيحاً مبين اللّهجة، لأنّ لسانه أُعدّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة، فكان لسانُه ولا غرو معجزة في الألسنة، وله بيان ينبثّ من طبعِه المصقول كالشعاع الذي تُوامضك به المرآة، إذا انقَدحتْ جمرة الفلك عليها.

---

(١) حياة الرافعي ص١٣٩.

نظرتُ إلى عينيه ذاتَ مرّة فخيل إليّ أن فيهما رهبةَ الأسد، حين يُجلّي بنظرة كبريائه، ليدلّ على أنه الأسد لا غيره، فمددتُ النظر إليهما فإذا روعة إنسان هو أرفع من إنسانيتنا، وإذا أَنا ألمحُ فيهما ذلك الشعاع الغريب الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السِرّ الكامن في المعقول، والسرّ الكامن في العقل، وكأنه استشعر ذلك فتبسّم، فكان لنظرته جلالٌ سماويّ رحيمٌ أشرق على نفسي كما تشرق على رُوح الطفل ابتسامة أصله الإنساني.

كان هذا الإمام الفذّ في قوة من ربّه، كقوة الجبل يحمل ولا يتلوّى، وفي سعةٍ من طبعه كاستفاضة البحر، يغمر ما يغمر ولا يتغيّر، وفي صراحةٍ من نفسه كاستطارة النهار يطلع كما يطلع ولا يخفى، فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء، وهو جسمٌ لكنه عضلة من عضلات الطبيعة، هو إنسان لكنه حقيقة من حقائق الكون».

في الختام أكتبُ سطوراً عن كتاب «المساكين» لأنّه من الأدب الوجداني من ناحية تأثُّر العاطفة وانفعالها بمظاهر الفقر المحتشم، والصبر القانع والوثوق المطمئن، والتصوف البعيد عن مظاهر المباهاة والاستعلاء وكلّ ذلك يتجلى في مسيرة قرويٍّ هادىء قانع، تشعّ عيناه ببريق ينبىء عن الصفاء، فإذا تكلّم جرت على لسانه حكم غالية من وحي العاطفة المخلصة، لا وحي القراءة والدرس، ومدار حديثه عن القناعة والاطمئنان إلى عدالة الله وحسن تقديره، قائلاً في بعض ما عزاه الرافعي إليه:

«أيها الناس إن الفصل بين الغنى والفقر من الأمور التي تتعلق بالضمير وحده، ورب غنىً يزيد أهله بالحرص والدناءة فقراً».

أجل رب غنىً يزيد أهله بالحرص والدناءة فقراً، وهذا ما شهدناه في محيط الحياة، وشاهدنا معه ما نقول فيه: رب فقر يزيد أهله بالقناعة والاطمئنان غنىً وثراء!! فالغنى غنى النفس لا غنى الفضة والنضار..

* * *



الشّاعِرُ الموَهُوبُ

نشأ الرافعي وفي خطته أن يكون شاعراً مرموقاً، لأن أصداء البارودي وشوقي وحافظ كانت تملأ سمعه، وقد استظهر أكثر ما وقع تحت يده من شعر الكبار في الجاهلية والإسلام، وأطال الوقوف أمام دواوين الفحول من أعلام الشعر العباسي كأبي تمام والبحتري ومسلم وبشار، حتى كان المتنبي الرأس الضخم الذي ارتفع نظره إليه معجباً وكأنه يلمح في الأفق كوكباً ذا ائتلاق. وللشاب الناهض موهبته الأصيلة التي ترشحه لما يريد، وكان في أطواء ذاته يستشعر نفاستها، ويعتز بأريجها الذي يراوحه قارئاً وناظماً، ولأمرٍ ما جعل يقرن نفسه بحافظ إبراهيم، كما قال الأستاذ محمد سعيد العريان، وقد حرتُ كثيراً في وقوفه عند حافظ وحده. . ألأنّه لمس اقترابه من روحه في هذه السن الباكرة، بل أكبر الظن أنه لمس تفوقه عليه في بعض ما نظم، لأنّ جيّد حافظ قليل بالنسبة لشوقي، وإذا كان الرافعي قد أظهر عدم احتفاله إذ ذاك بشعر شوقي وعدّهُ من شعراء الطبقة الثانية في مقال نشره بمجلة الثريا، على حين جعل نفسه مع حافظ والبارودي والكاظمي من شعراء الطبقة الأولى، فما أظنّ ذلك عن نيّة خالصة، لأن شعر شوقي مهما شُغف بالرسميات الخديوية لا ينزلُ

به عن شعراء الطبقة الأولى وفيهم حافظ والرافعي معاً. أكبر الظن أنه وجَد شوقيّاً بمكانه من الخديوي، ومنزلته من الإلهام أكبر من أن ينافسه في مضماره، فقنع بمجاراة حافظ، على اعتقاد منه أنّه قدْ يشأه حيناً، وهذا مالا مبالغة فيه، بل هذا ما يبدو من حديث الرافعي عن حافظ بعد وفاته وسألمُ به[1] بعد، لأن حافظ لا يتمهّل في تنقيح شعره تمهّل الرافعي، كما أنّه يرحب بديباجة اللفظ ونصاعته أكثر من ترحيبه بعمق المعنى، ولا كذلك الرافعي، فحظّ الرافعي من المعاني كحظه من الصّور وأكاد أقول من التعبير، لولا غموض يترصد الرافعي أحياناً فيضطر قارئه إلى الاستعادة متفهّماً، فالرافعي حين ينظم إنما يستعين بملكتي التصوير والتفكير معاً، فيوفَّق إلى كثيرٍ مما لا يهتدي إليه من يتعجلون النظم دون تغلغل في المعاني، وإذا أراد القارىء مثلاً لذلك فليقرأ قصيدته (على الكوكب الهاوي) إذ تتضمن قصة اجتماعية لفتاةٍ بائسة داهمها الفقر والمرض معاً. وقد نظمها في مُقتبل شبابه مجارياً شعراء العصر ممّن جعلوا قصصَ البائسات ضرباً من الشعر الاجتماعي، حيث انتشر هذا اللون انتشاراً جهيراً على ألسنة الشعراء، كقصيدة حافظ التي يقول في مطلعها:

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال ... لا بل فتاة بالعراء حيالي

وقصيدة محمد عبد المطلب، ومطلعها:

أسألت باكية الدياجي مالها ... أرقت فأرّقت النجوم حيالها

---

(١) في فصل (الرافعي ناقداً).

وقصيدة معروف الرصافي ومطلعها:

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

وقصيدة محمد الهراوي ومطلعها:

على ذلك المضنى جفوني تدمع ومن خطبـةِ المودي فؤادي يجزعُ

فهذه القصائد وأضرابها تسير في طريق مألوف لا جدّة به ولا ابتكار، فالفتاةُ مريضة والأهل ميتون، والفقر ضارب أطنابه، والرحمةُ واجبةٌ لأمثالها من الناس. وكأن القصة الشعرية خطبةً منبرية لا تكادِ تزيد شيئاً. أما قصيدة (على الكوكب الهاوي) فإذا اتحدت في الموضوع مع ما أشرنا إليه من القصائد، فإنّها اختلفت اختلافاً تاماً في براعة التصوير، وعُمق الفكرة وتدفّق المعاني، بحيث لا تُوزن بها إحدى القصائد، فالفتاة في مرآة الرافعي:

تلألأ في صدر المكارم درةً يحيط بها من عقد أنسابها درُّ

فكانت كزهرٍ نضّر الفجر حسنه ولما علتْ كالنجم أطفأها الفجر

رمى الدهر أهليها بحرب ولم يُرد بها الشرّ لكن الحروب هي الشر

ومَن يحطم الكأس الرويّة وحدها فقد ذهب اثنان: الزجاجة والخمر

تقاسمتِ الحسن الإلَهي وانثنى يقاسمها، فالأمرُ بينهما أمرُ

فللشمس منها طلعةُ الحسن مشرقاً وفيها من الشمس التوقّد والجمر

ومـا قيمـة الحسنـاء يقبـح حظهـا وتذوي بروض الحب أيّامها الخضر

من الحسن معنى يَهلك الحسن عنده كما أهلك الأزهار ذلكم العطر

فالمعنى لا يذكر دون صورة، ودون صورة جديدة عليها طابَعُ الرافعي الشاب، لأن الرافعي الكهل شيء آخر كما سَيجيء، أمّا

تصوير البؤس الحاقّ بهذه المنكوبة فمن أبدع ما قال الشاعر الموهوب حين هتف:

ضعيفةُ أنفاسِ المُنى بعد ما غدتْ رقـابُ أمـانيهـا يغلّلهـا الفقـر
تقاذفها موجُ الليالـي ومالهـــا سوى زَوْرق واهٍ يقال له العمر
إذا استنْبَؤُوها أرسلتْ من دموعها لآلىء حُزن كل لؤلؤة فكر
وإن سألوها لجلجتْ فكأنما عَرا اللفظ لما مرّ في فمها سكر
وفي غرفةٍ مما بنى الله لا الورى فليسَ على من حَلّ ساحتها أجر
جوانبهـــا شرقُ الظلام وغربه وفي سقْفها ضاءَتْ كواكبه الزهر
مَمدّةً كالسطر في صفحة المنى وأطمارها تبدو كما شطب السطر
فإن يك أهلُ الأرضِ أرقامَ حاسب فتلك وراءَ العالمين هي الصفر

فإذا دلّت هذه الأبيات على الجانب التصويري لدى الشاعر الشاب، ففي القصيدة روائعُ تدل على الجانب الفكري الجوّال، حين يبصرُ الرافعي مأساة الحياة ممثّلةً في فتاةٍ مشرّدة حيرى تنازعها مُتعارضان يتعاركان، هُما الذّلُّ الذي لم تتعوّده إذْ فارقت نعيم أهلها بفُجاءةٍ قاسيةٍ بين فُجاءات الحرب العالمية الأولى، والكبرياءُ التي ورثتها عن قومها إبّان كانت ترفلُ في أفواف النعيم، وفي حضن الأم وسخاء الأب!! هذا الذل الطارىء يفتح باباً من المعاني لشاعر المعاني، فهو يؤكد أنّ الذل لا يقتُل العبيد ولكنّ الكبرياء هي التي تقتلُ السادة الأغيار!! ولو أنصف الإنسان لاعتصم بكبريائه ولتأتِ الأيام بما تأتي به دُون مبالاة!! ودون تهيُّبٍ لما يتوقع من الأحداث، فالسيفُ سَيْفٌ لحدّه الباتر، والعصا

عصا لضعفها، والصبرُ من وراء ذلك حصنٌ مانع. هذا تلخيصٌ ضئيل يشوّه قول الرافعي:

مشــردةٌ حيـرى تنـازع نفسهـا ... فريقان ذلٌّ لم تُعَوَّدْهُ والكبرُ
وما قتل الذلُّ امرءاً من عبيده ... وكم مَن فتىً يرمي بهامته الفخر
ولو أنصفَ الإنسانُ من قدر نفسه ... رآى قدْرَها ألا يهون لها قدر
فـلا تتسـاءل كيـف تقعدُ وادعـاً ... ولكن تساءلْ كيف يسعَى بك الذِّكر
وكن رجلاً كالضّرسِ يرسُو مكانه ... ليطحنَ لا يَعْنيه حلو ولا مرّ
ولا تتـوقـع أيّ جنبيـك واقـعٌ ... إذا انطبقتْ يوماً حَوادِثُها النكر
ولكنَ تلقَّ الدهر غير مفزّع ... بصدرك ولتعرُ الخطوبُ كما تعرو
فعزّ الحسام الهندوانيّ صدرُه ... وذلّ العصا أنّ العصا كلّها ظهر
وَلمْ يهن الحرّ انتضى عزماته ... وصال بها من صبره الخلقُ الحر
إن تُغلب الأبطال في حومة الوغى ... فما عرفت حَربٌ بها غُلب الصبر

هذا التفنن القدير في القصص الاجتماعي الشعري، لم يكنْ معهوداً لدى من ذكرنا من قبل من شعراء العصر، والمجالُ لا يسمح بالموازنة المستشهدة ولكننا نذكر مع ذلك أن خليل مطران قد كان رائد هذا الضرب القصصي، وله قصائد ممتازة مثل الجنين الشهيد، وعوّادة، والوردة والزنبقة وغيرها، وطريقتُه أوغلُ شعاباً وأدق تصويراً من طريقة الرافعي فضلاً عن سواه، ولا جَرَم كان مطران أقدم سنّاً وأعرق ثقافة وأوفَى شاعريّة من مصطفى، فإذا احتذاه فذلك شيء طبيعي، ولكنّنا نجد في بعض أحاديث الرافعي ما يدل على انقطاع صلته بمطران، وإذا صحّ ذلك في عالم التعارف الشخصي فلَنْ يُعقل في ميدان التأثر الأدبي، لأنّ قصائد

مطران تُنشر في أمهات الصحف والرافعيّ الناشىء قارىءٌ دارس مستوعب فلنْ يفوته أن يقرأها بإمعان، وإذا كانَ لا يشعر بتأثير مطران في شعره، فذلك لا يمنعُ الناقد المحايد أنْ يقول به إذا اتضحتْ أمامهُ الأدلة والشواهد، وهذا ما يعنّ لنا بجلاء.

على أن قصيدة الرافعي هذه كانت من المختارات الذائعة منذُ نشرت، فقد اختارها الأستاذ أنطون الجميل[1] في (مختارات الزهور) وقال إن ناظمها من الشعراء المبرزين، وهو ذُو معان مبتكرة يُحسب معها من الذين إذا قالوا أبدعوا، كما اختارها الأستاذ أحمد الزين حين نوّه عنها في مقالاته الشهيرة (النقد والمثال) بمجلة الرسالة حيث قدَّم لها بمقدمة طريفة قال فيها: (ولا يفوتنا التنبيه على وفرة المعاني الشعرية الساحرة، وقوة الجمال الفني الرائع في شعر الرافعي، فإنك تحسّ بذلك الجمال في كل بيْت من أبياته، بل في كل سطرٍ من نثره، بلْ فيه هو إذا جلستَ إليه وتحدث إليك فهو شعرٌ كله، وإنما أنسب الغموض المتوهم في بعض أبياته إلى قصُور أذهان المتوسطين من القراء، وإلى ضيق الألفاظ المحدودة عن أن تحصُر هذا المجال المعنوي الذي لا يُحَدّ، إلا أنني أرى معانيه من صنعة الفكر وابتكار الذهن، لا مِنْ وحي العاطفة وإملاء الوجدان)[2].

وقد نسي الأستاذ أحمد الزين حين قرّر هذا الحكم بشأن

---

(١) مختارات الزهور ط٢ ص١٣٩.

(٢) مجلة الرسالة العدد ١٢١ سنة ١٩٣٥.

المعاني المبتكرة لدى الرافعي، أن ذهن الشاعر يهتاج أولاً من إحساسه، فإذا جاش الخاطرُ بما يحسّ سلّط الرافعيّ فكره على خاطره، فأخَذَ يعلل الإحساس ويفلسفه حتى ليخيل للكثيرين أن هناك عَقْلاً هو الذي ابتكره وحده. ولكنّ الإحساس رافد العقل ولولا ذلك ما استطاع الرافعي أن يقول ما يُحَسُّ الجمال في كل بيت من أبياته، بل في كل سطر من سطوره كما حكى الزين، وإذا ضاقتِ الألفاظ المحدودة أن تحصر هذا الجمال المعنوي الذي لا يُحدّ، فلا يرجع ذلك لنضوب العاطفة، بل لشدة نفاذها الذي جعل الخاطر غير المحدود ينكمشُ في اللفظ المحدود، وأنا لا أنكر غُموض الرافعي في بعض شعره ونثره، ولكن أنكر أن يكون الذهن هو الرافد الوحيد.

ولقد طبع الرافعي ثلاثة دواوين من شعره، ثم جمع الديوان الرابع، ولكنّه شُغل عن نشر ما قاله منذ اتجّه إلى المقال الأدبي، وقد حفلت مجلات الهلال والمقتطف والزهراء بقصائد جيدة لم تُنشر في مجموع خاص، ولو تمّ ذلك لكانت هذه القصائد هي القمّة الشعريّة التي بلغها الرافعي، إذ أنّ ما قاله في دواوينه على جودته الرائعة لا يبلغُ مبلغ ما قاله في كهولته بعد أن استقام له في الشعر مذهبٌ واضح يعرفه قارىء الرافعي بمجرد قراءة البيت الأوّلَ. ولا أدري لماذا يحرصُ الدارسون على نشر مخطوطةٍ سقيمة لشاعرٍ متواضع من شعراء العصر المملوكي ويعدّونها من روائع التراث الذي يجب أن يذاع، ثم نجد هؤلاء لا يُولّون وجوههم نحو الجمع الراصد لما تفرق في الصحف من آثار

النابهين من أمثال الرافعي، والقيمةُ الفنية والإمتاعُ الوجداني لديهم مما يتضاءلُ جوارهُ نشرُ ديوانٍ مخطوطٍ لشاعر لم تُتحْ له ثقافةُ عصره أن يكونَ شيئاً ذا بال، لا أقولُ ذلك رفضاً لما يُنشر من تراث الشعراء ولكن أدعو من يُريد النشر إلى جودة الاختيار، ودقة الترجيح.

نريدُ مثالاً آخر لتفوق الرافعي في نشأته الشعرية الأولى، إنّ دواوينه المجفوّة لدى الدارسين تُقدّم عدة أمثلة لا مثال، ما تُقدّمه يتصدّر أفق الروعة إذا قيسَ بما قاله الكبار، فحين انتصر الترك على اليونان دوّى الشعراء في العالم العربي بتهنئة الخلافة الإسلامية بهذا النصر المبين، وصدحت قصائد شوقي وحافظ ومحرم والكاشف بما يُعدّ من قلائد الشعر السياسي المعاصر، ومع هذا السبق المبرز لهؤلاء الكبار فقد قال الرافعي الشاب بهذه المناسبة قصيدةً رنانة كانت أكثر أبياتها مما يندر وجوده لدى هؤلاء، لأن طريقته الشعرية معنىً وتصويراً قد نفحتْه بما جعله مُفرداً في بابه، ولا نسوق القول إرسالاً دون استشهاد، ولكننا نُتحف القارىء بمثل قول الرافعي متهكماً بأعداء الخلافة الإسلامية:

رأى الطفلُ نابَ الليث مِسْمار فكّه ... فظنّ عُرامُ الليث يكفيه مبردُ

فلما دنا منه وصمّم وانتحى ... إذا هُو فوق الناب لحمٌ مبدد

فلما دنا منه وصمّم وانتحى ... إذا النابُ موتٌ بل من الموت أنكد

فلما دنا منه وصمّم وانتحى ... إذا الليثُ كل الليث نابٌ محدد

فيا طفلها ما كلّ ما أنت مُصلح ... بحمقك إلا بعض ما أنت تُفسد

أتوا وبهم ريحُ الجنون ليعصفوا وصالوا ببأس المعتدين ليعتدوا

رموا شبكات الحرب في لجة السما لِصَيْد هلال الله لما تصيّدوا

ثرى الأرض قد مدّ الزوابع سلّما ونادى الهلال انزل وإلاّ فأصعدُ

فصبَّت عليهم جُنده بل نجومه غزاةً هُداةً كي يفيقوا ويهتدوا

ترفّ لهم راياتهم أين رفرفت بأجنحة الأملاك تأتي فتحشد

حنيفيّـــةٌ إن هـــمَّ لله جيشهـــا فمـــا هـــزّهـــا إلا النبـي محمـد

مساعير حرب لا تنام همومهم ولاهُمْ على يقظَى الحوادث هجد

فيا جبَل الدنيا وإنْ كنت راسخاً أبِالقَدَرِ الجاني نظنّك تبعَد

قلتُ فيما قبل إن الشعر الاجتماعي كان سمةً من سمات حافظ، وقد حاول الرافعي أن يباريه في ميدانه على بُعد شاسع في الاتجاه، فقد ذكر مصطفى صادق الرافعي في مقاله عن حافظ(١): أنّه حادثه عن اهتمامه بالشعر الاجتماعي وعدّه ميزة خاصّة به، فقال له الرافعي إنه لم يزد على أنّه قرأ مقالات الصحف الاجتماعية وأعدّها شعراً منظوماً فحسب، وهذا نقدٌ حقيقيٌّ لكل شاعر يكتفي في اجتماعياته بالتعبير عن الشعور العام دون أن يضيف شيئاً، وإذا كان الشاعر ـ أي شاعر ـ لسان قومه، فليس معنى ذلك أنه ينقل خواطرهم فحسب، ولكنه يدركها، ثم يعبّر عنها من وجهة نظره في مفهوم كلّي يتسع بالنظرة إلى عمقها الأصيل، ويردّها إلى عناصر خافية لا يدركها القارىء الذي يفصح الشاعر عن مكنونه، وقد اهتدى الرافعي إلى هذا المعنى مبكراً،

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص٢٨٢.

فاختلف شعره كثيراً عما يُنشر لأكثر أعلام الشعر في زمنه.

هذا إلى منظوره الديني الذي نشأ معه منذ طفولته، فقد أدرك من أسرار التشريع مالم يدرك نظراؤه، وظلّ في شعره يصدر عن هذا المفهوم في قوة ذاتية يتفرَّد بها، وإذا كان المنظور الديني لدى الشاعر السطحي يحوّل شعره إلى نظم عروضي، فإنه لدى الشاعر المتمكن يتحول ركناً قويّ الأساس في بنائه الشعري، إذ يكون فكرة نابضة ترفل في لوحة تصويرية حيّة الملامح وضيئة القسمات، فتكون شعراً خلاّباً يُقْرأ، فإذا كان حافظ إبراهيم يذم السفور المتبرج فيقول من قصيدة شهيرة[١]:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا	بين الرجال يجُلْن في الأسواق
يَدْرجْن حيث أردْنَ لا من وازع	يحـذرْن رقبتـه ولا مـن واق
يفعلْن أفعال الرجال لواهياً	عن واجباتِ نواعس الأحداق
فـي دُورهـن شؤونهـنّ كثيـرةٌ	كشؤون ربّ السيف والمزراق

إذا كان حافظ يُنكر السفور هكذا في أسلوبه التقريري فإن الرافعي يسير معه في اتجاهه الفكريّ لا في أسلوبه التعبيري، فهو يقفُ أمام المتبرجة ليسألها لمن تتبرجين فتظهرين في أفق ليس بأفق شمسك؟ ويمضي في التصوير مُستعيناً بأدواتِه المسعفة، ثم يدركه منطق الفكر الرصين فيتساءل ثانية: لماذا لا يخطر أبوك على بالك حين تتبذلين؟ ولماذا لا تذكرين ما يلحق أسرتك

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص٢٨٢.

المؤمنة من عارٍ مشين؟ فإذا انتهى من تساؤله ذكّرها برسالتها المقدسة في الحياة باعتبارها أمَّ المستقبلِ، ومُربّية النَشْءِ؛ اسمعْه يقول:

كَمُلْتِ تبرجاً فكملتِ حسناً	ولكنْ جاء نقصك من كمالك
لمن تتبرجين وذي سبيل	وما هي أفقُ شمسك أو هلالك
أما تخشين أنك في طريق	يرفّ به الحرام على حلالك
وأن ذئاب هذا الحسن تمشي	مسعّرة اللّحاظ على غزالك
عرضتِ لكي نرى فلقد رأينا	لديك الحسن إلاّ في فعالك
كأنك لست بنت أبٍ وإلاّ	فما لأبيك لم يخطرْ ببالك؟
أأختٌ أنت أمْ زوجٌ وأمٌّ	فما منهن واحدة كذلك
نقابُك ذاك؟ أم لونٌ رقيق	نراهُ بين ألوان احتيالك
وما هذا الدّهان لناظريه	سوى روح التلوّن من خلالك
ألا إن الغيار أذىً فمن ذا	يظنّ غيار وجهك من جمالك
ومالك تسألين الحق منا	وخلقتُك الجواب على سؤالك
أعزّك فتيةٌ هم عارُ قوم	إذا قيسوا بفتيان الممالك
جبالُهمُ مهيّأة لِكَيْدٍ	فكيف إذا التَفَفْن على حبالك
وكلٌّ قائل فالقول حيّ	وكلٌّ فاعلٌ فالفعل هالك

وإذن فالرافعي، لا يلوم الفتاة وحدها، ولكنه يلوم الفتى المتبذِّل معها؟ فليس متحزِّباً لجنسٍ ولكنه ينعى على التبذل في شتى مظاهره. وقد أتبع هذه القصيدة بأخرى قالها في (تخنث الشباب) من الذين ظنوا التقدّم في رقة الملبس، ونعومة اللفظ، وتصفيف الشعر، وترصد خطوات الرائحات الغاديات، وهو مما

شاع وذاع في المجتمع المصري، حين تشرّبه دعاة التقدم الزائف والمحاكاة السفيهة لخلاعات ذوي السقوط من الأجانب، وأعجبُ ما عجب منه الرافعي أن يكون من هؤلاء مَن تعلّم وظفر بالإجازة في معاهد أوربا، ولكنه رجع إلى مصر لا لينتفع بما وعَى من علم، بل ليتعالى بالملبس والشارة والأناقة المتكلّفة والحديث الهابط[1]:

غصونٌ في رياض العلم تنْمو	وتُثمر بعد ذاك بما يُعابُ
فلا يغررْك شكلُ العود وانظر	فإنّ لناره صُنع الثقاب
شهاداتٌ ولا عمل يزكّي	كأن حضورَ حاضرهم غياب
وما نفعُ اليقين بما علمنا	وفي الآداب شكٌّ وارتياب
بنفسك لا بعلمك أنت منا	وأنتَ لنا ثوابٌ أو عقاب
ألا إن الشراب لهُ إناء	فإنْ دنّسته دنس الشراب
لكانَ الليث أسهلَ ما ركبنا	إذا لمْ يحمِه ظفر ونابُ
ألا يا قوم للفتيان فينا	وزينتهم، وما حمدوا وعابوا
رأيتُ لبعضهم أمراً عجاباً	وليس كمثله أمرٌ عجاب
يسيل تخنّثاً ويذوبُ ظرفاً	فهل في أرضنا رجلٌ مذاب
ولانَ كأنّه فينا اعتذار	تُقدّمه حوادثُنا الصعاب
ومطمحه الذي يرنو إليه	من العلياء نافِذَةٌ وباب
وهمّتهُ الثياب فليس يمشي	إذا ما سار بل تمشي الثياب
ملوّنةً مصبّغةً لوجهٍ	له في لونه منها اقتراب

(١) مجلة الرسالة العدد ٨٨٤.

أما في هذه الدنيا أمور سِوى الشهوات تحرزها الطلاب
أما في هذه الدنيا أسود كما في هذه الدنيا كلاب

وإلى هنا ننتقل إلى عهد جديد من عهود الرافعي الشاعر وهو العهد الثاني الذي ترك فيه النّسق التقليدي الملتزم بطابع المدرسة الباروديّة، ليستقل بمذهب شعري يكون فيه وحده الأستاذ والتلميذ معاً، حيث لم يتهيأ لأحد من قرائه الملهمين أن يحذوه في طابعه التأملي العميق. ولا ننكرُ أنه في عهده الأوّل كان يجول بفكره الراصد فيما يتنازعه من أحاسيس كما بيّنا من قبل، ولكننا نشير إلى أنه أينع وأثمر في عهد الكهولة إيناعاً لم يتح لغير الرافعي فيما سلكه من منحى متأمل، والرافعي الناقد يأخذ بيدنا كثيراً حين ندرس شعره، لأنّه في نقده يحدّد الاتجاه المنشود للشاعر المتأمل، فنقف معه على أبعاد متّسعة كانت تشغل فكره، بل كانت تهيمن عليه في اتجاهه الناضج، فالشعر كما يقول الرافعي[١]: «معنى لما تشعر به النفس، فهو من خواطر القلب، فإذا أفاض عليه الحس من نوره انعكس على الخيال فانطبعت فيه معاني الأشياء كما تنطبع الصورة في المرآة.

وكما يأخذ النظر عن مطرحه ما بين الأرض السماء، يتناول القلب في مسرحه ما فوق سجف الغيب، وتحت أطباق الثرى، والخيال الساحر بين هذين إنسان بين ملكيْه، ومن سحره أن يضع

(١) الحديقة ج٦ ص١٧٧.

أذنه على العين فتسمع، وعينه على الأذن فترى، والخيال مملكة الشعراء، فما من ذي خيال منهم إلاّ وقد خالطت قلبه لذة الملك في ساعة هي عنده الدنيا وهو ملكُها، فإذا رنّ فيها صوته تحرك الفلك فأسمعه من كل أرض فوجاً وأرْقص به في كل بحر موجاً».

فخيال الرافعي إذن ليس بالخيال القريب المعهود، ولكنه يعلو إلى ما فوق سجف الغيب، ويغوص إلى ما تحت أطباق الثرى، ونحن نعرف في اصطلاحات النقد المعاصر ما يسمى بتراسل الحواس، بمعنى أن تقوم حاسة مقام حاسة أخرى، وقد اهتدى إليه الرافعي تلقائياً حين قال: «ومن سحره ـ الخيال ـ أنه يضع أذنه على العين فتسمع، وعينه على الأذن فترى».

هذا هو الخيال، أما الإدراك المتيقظ عند الرافعي فهو أول منافذ الخيال، إذ يتيح له أن ينطلق بجناحه إلى أعلى آفاقه، هذا الإدارك اليقظ النفاذ معناه عند الرافعي «أن تكون له القوة المبدعة والانتباه إلى أدق المناسبات، فإن الكلام كالشجرة، منها الجذع ومنها الغصون والأوراق، وما فيها من دقيق الخطوط بعضها فوق بعض، وبراعة الشاعر في الالتفات إلى تلك الدقائق، فإن من الكلام ما يتفطّر للمعاني كما تتفطر الشجرة للتوريق، ومن أجل ذلك يسمُّون أجمل البيان وحياً، والشعراء كالمصابيح ما على أحدها أن يتألق بنور غيره، ما دام في كل مصباح زيتُه»[1].

---

(١) الحديقة ج٦ ص١٧٩ ط٢.

هذا حديث الرافعي الناقد، أما المجال التطبيقي عند الرافعي الشاعر فنُمثّل له بقصيدتين قال إحداهما تحليلاً لبعض الخوافي النفسيّة في أطوائه، وقال الثانية في رثاء أحمد تيمور، ففي القصيدة الأولى أدرك الشاعر ما يُعانيه من صراع بين الخير والشرّ آناً، وما يتجشمه من أعباءٍ ثقالٍ تودي بصحته آناً آخر، وهو في الحالَيْن ريشة في مهب الهواء، فهو يجعل من نفسه كائناً مماثلاً يخاطبه، ويناقشه الحساب، كأنّ النفس شيء، والرافعي شيء آخر، هذه النفس ترى صاحبها مقيّداً بالعمل الفكري المبرّح حتى لتذوبُ منه قواه، ويجف فيه دمه، وأمام مَثَلٍ أعلى ينجذب إليه دُون أن يصل، وحسابُه العسير لما يصدرُ من أعماله يقيم منه قاضياً يتَّهمه في ما يأتي ويَدَع!! فالقيدُ مرهق والعناء متّصل.. هذه النفس تحاور الرافعي فتقول:

قالت تُحاورني يا ويحَ قلبك مِنْ	قلبٍ بنى ما بناه وهو ينهدمُ
أذابَ أكثـره إبـداع أيسـرهِ	كالسّن من قلمٍ فيه انبرى القلم
مقيّد في وثاق من خلائقـه	فمـا لَـه لـذةٌ إلا لهـا ألـمُ
يا مُفني العمر في التفتيش عن حُلم	لو كان يُدرك ما كان اسمَه الحلمُ
ما لذةُ العيش إمّا كنت مقتسماً	ففيـك قـاضٍ وسجّـان ومتهـم
دَأْباً تَظل سجيناً لا انطلاق له	ما دام للعقل قاض فيك يحتكم

هذا عتاب النفس، بل هذه صيحتها الناقمة، الرافعي هنا مفكر متيقظ يسمع كل أنَّاته، ويرصد كل هاجسه، ويتولى الرد الصريح فيعلن أن السهل هيّن ذلول، وأن القمّة مرهقة تكلف صاحبها عناء الصعود، والأرض الموطأة تُداس بالأقدام، والبحر الواسع الممتد

لابد أن تلتطم به الأمواج ولابد أن تُوجد الظلمة والضياء معاً، لِيَنْبثق النور من الدجى، والهرمُ شيء طبيعي إذ هو النتيجة المنطقية للصبا والشباب، فإذا وُجد هذان فلابدّ أن يفضيا إليه.

يقول الرافعي:

يانفسُ ويحك مافي السهل من قمم | وإنما شَمَخَتْ في طودها القممُ
من كان في نفسه أرضاً موطّأة | تطأه مِن كل شيء حلّه قدمُ
ومن تكنْ نفسه بحراً تُرجرجه | أمواجُه لم يزلْ يدوي ويلتطم
ومن كان طامي البر كان منفجراً | تيّارُه طاش منه الجمر والحمم
يا حيرة العقل هل للظلمة انبثقت | أنوارها، أمْ على أنوارها الظلم
والخير والشر أي اثنيْهما هو من | خيرٍ وأيّهما الشر الذي زعموا
هل الأُلى حُرِموا إلاّ بمن رزقوا | أم الأُلى رُزقوا إلا بمن حرموا
ممّا ولدت رضيعاً وانتشأت فتى | وعشتَ من بعدُ كهلاً جاءك الهرم
فما الذي أنتَ راضيه وحامدُه | إلا الذي أنتَ شاكيه فمتّهمُ

ثم يعلن إباءه الصريح، وسلوكه الملتزم فيصيح:

أنا المقيَّد في نفسي وفي خُلُقي | كأنني عهد حرٍّ قيْدُه القسم
لا كالخليع يَرى الأخلاق تمنعُه | جرماً عليك فيلقيها ويجترم
شتّان بين امرئٍ في نفسه حرم | قدسٌ وبيْن امرىء في نفسه صنم
كيف السباقُ غداة السبق إن جُمعتْ | لَهُ الجيادُ ولم تُوضَعْ لها اللجم[1]

وقد اقتبستُ من القصيدة ما يشير إلى اتجاهها، وجمالُها الحي

---

(١) الحديقة ج ٤ ص١٥٠ ط٢.

أن تُقرأ كاملة غير مجزوءة، ولعلي حين أشير إلى مرجعها أدفع الدارس إلى تحليلها بعد أن يقرأها قراءة ممعنة، لأن شعر الرافعي مما تتجدد معانيه بمعاودته، وطبيعي أنْ أكتفي بما يعنّ لي عارفاً أني أهملت أكثر مما ذكرت.

أما رثاء الرافعي لأحمد تيمور ـ رحمه الله ـ فصرخة عالية من صرخات التفجع لمغيب مسلم صادق غيور بذل ماله وعلمه ووقته في نصرة الإسلام واللّغة العربية، جامعاً شتى مخطوطاتها من أقصى جنبات الأرض مهما كلفته جهد الجسم والعقل، وضخامة ما يبذل من مالٍ حين يُغالي تجار المخطوطات مغالاة من لا يتوقع الرفض من حريص أمين، وآية العظمة في أحمد تيمور أنه كان استثناءً نادراً بين أبناء طبقته من ذوي الألقاب الضخمة، والمال الوافر، والحسب العريض، فلم يركن لمجده الأُسَريّ، ولقبه اللامع وثرائه الضخم ركون من يظن الحياة لعباً ولهواً، ولكنّه جعل ذلك كله وسيلة لخدمة الإسلام، وكُتب العربيّة، كما كان حرباً على أعوان التفرنج، ودعاة التغريب ومدَّعي الاستقراطية، غيوراً كلّ الغيرة على مقدسات الدين وتعاليم الشرع، عدواً لمن يحاول أن ينتقص قليلاً من مفاخر السلف، وهذا ما جعل الرافعي يحسّ وقع الصدمة العنيفة في مُعسكر المؤمنين الخلَّص بفقده المفاجىء، فقال في لوعة[1]:

يا ضربة الموت ما باليْتِ أن تقعي   على امرىءٍ فيه بنيان لنا يقع

---

(١) الحديقة ج١٠ ص٧٤.

على الذي كان حصن الضاد يمنعها ... إن لم تجدْ صدر حرٍّ فيه تمتنع
حصْن بأسواره أنصارُها احتشدوا ... وحولَ أسواره أعداؤها انصرعوا
رأسٍ على الصخر من دين ومن خلق ... فليسَ يُعرف صخرٌ منه يُقتلع
ومن يكن لدفاع الضاد منجرداً ... فلْينتصبْ كالرواسي فيمن اتضعوا
وليجفُ مثل جفاء القفر ممتنعاً ... على المذلة في أخلاق من خضعوا
وليدّرع صدرُه الصحراء كاشرةً ... لمن بسفساف أوربا قد ادّرعوا

كأني بالرافعي كان يتحدث عن نفسه إذ رأى في اتجاه تيمور مثيلاً لاتجاهه!! فأوصى سامعه أن ينتصب كالرواسي فيمن اتّضعوا، وَلْيُجفَ مثل جفاء القفر ترفعاً عن المذلة، وليدرعْ الصحراء هرباً من سفساف أوربا، ويعني بالسفساف ما أُغرم به الشباب لعهده من بريقٍ كاذب يجده في اللهو العابث، والتبرج الشائن، دون أن يُغْرمَ باكتشافات أوربا العلمية وتقدّمها الصناعي!! فكان من أسباب انحدارِ أمته وفساد جيله، ولو شاء لعزف عن أساليب السقوط كما يعزف الأباة الناهضون، وهذا ما صوّره الرافعي أبلغ تصوير حين قال:

قالُوا أتى الليثَ حلاّقٌ يعلِّمهُ ... قصَّ الأظافر تجميلا كما ابتدعوا
يا ليثُ قُلْها لذا الحلاّق زمجرة ... إنّ المخالب في كفّي هي السّبع
يا ليث قُلْها لذا الحلاق همهمةً ... زدْني مقصّك ظفراً منه أنتفع
يا ليثُ قُلْها لذا الحلاق دَمْدَمةً ... الظفُر للّيْث بالدنيا وما تسع
لو كلُّ مزمارِ فنٍّ عندنا خَنِثٌ ... لَنَا بِهِ مدفعٌ فنانُه بشِع
إذنْ لكانت لنا بين الورى لُغةٌ ... متى تَقُلْ قولها في العالم اقتنعوا
ويحَ الفضائل من باغين لوّثهم ... هوى أُوربّا، فهمْ ناسٌ وهم بُقع

يجـدّدُون لنـا أخلاقنا زعموا ضرّوا لنفع فقد ضرُّوا وما نفعوا
يا من يُحطِّم بلُّوراً ليسمعَ مِن أنْغَامِه ويْلَكَ اسمعْ، إنّه قِطعُ

وهكذا يجد الرافعي في المناسبة الباكية مجالاً لثورةٍ عارمة يصيح بها صياحَ الأسد الجريح، وقد كانت وثباته الفكرية دائماً تلتقي مع أنّاته الوجدانية فتُحرّك جامدَ الإحساس، وتنْقلُ السامع من الخاص إلى العام، ومن مُصيبةِ فردٍ إلى مصيبة أمّة، وقد كان تيمور في مرآة الرافعي نجماً ساطعاً، أخلاقُه نورُه يستمد عظمته من عظمةِ دينه الذي ملأ شعاب نفسه، وتفرّغ في جسمه فلم يُبق لغيره مكاناً:

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهمْ من نجوم حيّة صُنعوا
أخلاقُهم نورهمْ من أي ناحية أقبلتَ تنظرُ في أخلاقهم سطعوا
يُحقق العلم في إنسانه مثلاً من قوة الدين، لا زيغٌ ولا بدع
ديـنٌ تـفـرغ فـي جسم فوقـره كما يُرى مُفرغاً في جسمه السبع

ومن أبلغِ ما اتّجه إليه الرافعي في هذه المرثية حديثُه عن لغةِ القرآن، وقولُه عن الكتاب الكريم، والذكر الحكيم:

فـدَتْـكِ نفسـي قـرآنيـةً رُفعـت بكفّ جبريل مافي مسّها طمع
وللنبـيّ عليهـا لـم يـزلْ نَفَسٌ حيٌّ ومِن وجههِ في نورها لمع
لكاد والله في التنزيل قارئُه يحسّ صوت رسول الله يرتفع
إن الـنبيّ لـحيٌّ فـي ضمائـرنا على الزمان يرى منها ويستمع!
تالله ما ناصب الفُصْحى سوى رجل بالمكر يخدع أو بالجهل ينخدع
كم أجنبي غريب بات يحفظها كحفظ عينيْه أنْ يغشاهما الوجع
وكم ترى من بنيها ذا مكاشرة لسـانُـه كلسـانِ النـار تندلـع

يا قوم لن يستحي مستنقعٌ وخِم   إذا جرت حوله الأنهار والترع!

وقد أطلتُ في الاستشهاد بقلائد من هذه النادرة الناضرة، لأنّها تصوّر اتجاه الرافعي أدباً وخلقاً وديناً، ولو لم يعلم عنه أحدٌ شيئاً وقرأ رثاءه التيموريّ لعرف خلاصة ما يجبُ أن يعرف من اتجاه الأديب الكبير، ولا أصدق دلالةً على الرافعي من أدبه الصارخ الذي يزأر به في مدْلهمات الأحداث زئير الليث تحت العاصفة، وقد نهض لغوثِ أشباله والريح تدمدم، والبرق يلمع، والرمالُ تهيج!! أما امتزاجُ الصورة الرائعة بالفكرة الحية فأوضحُ من أن ندلّ عليه في سياقه الرصين.

ونأتي للعهد الثالث من عهود الشعر لدى الرافعي، وهو ما ظنَّ فيه الكثيرون أنّ الأديب النابغة قد ترك الشعر إلى النثر الفنيّ. والحقّ أنه ترك الوزن العروضي فحسب، أما رُوح الشعر فقد أُمِدّ بقوة جديدة حين تحرّر من الوزن إلى القافية تحرراً ساعد على جودة التصوير، ورِقّة التعبير، بحيث ظهرتْ فيه الألفاظ وكأنها عرائس، والخواطرُ وكأنها أرواح، فاستعاض الرافعي بذلك كله عن الموسيقى الخارجية التي تنحصرُ في الوزن والقافية متّجهاً إلى الموسيقى الداخلية ذاتِ الإشباع الوجداني حين تترقرقُ الخواطر، وكأنها ماء عذب رائق يتسلسل في غدير شفّافٍ، تُظلّه الغصون الوارفة ذات الزهر البهيج!!. إن تجربة الرافعي الوجدانية فيما سطّره في أوراق الورد والسحاب الأحمر ورسائل الأحزان، لم تفارقه حين كتب في أواخر عهده مقالات الرسالة التي جمعت في وحي القلم، ففي أكثر مقالات الرسالة رفيف من الشاعرية المبدعة

ذات الصور الأخاذة، والمعاني الحافلة، وفي بعضها يكاد الشاعر الناثر يتخلص من كثافة الألفاظ فتحسبه يهبّ نسيماً، ويتألق شعاعاً، فالْعبيرُ في روحك، والضوء في عينيك، والنشوة في أعطافك، والانبهار في فكرك!!

لستُ مبالغاً فيما أقول، فالأمثلة الشاهدة على ما أقرّر أكثر من أن تحصر، وسأقدم هنا ثلاثة نماذج، أوّلها ما كتبه الرافعي على لسان مارية إذ أسِفت لفراق عمرو بن العاص حين رحل وترك فسطاطه، ومن تحته يمامة تحتضن بيضها، غير دارٍ بما يعصف في قلبها من شجون، قال الرافعي فيما سمّاه نشيد اليمامة:

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها
تركها الأمير تصنع الحياة وذهب هو يصنع الموت[1]
هي كأسعد امرأة ترى وتلمس أحلامها
إن سعادةَ المرأة أولُها وآخرها بعضُ حقائق صغيرة كهذا البيض

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
لو سُئلتْ عن هذا البيض لقالتْ: هذا كنزي
هي كأهنأ امرأة ملكت ملكها في الحياة ولم تفتقر
هل أكلّفُ الوجود شيئاً إذا كلّفتُه رجلًا واحداً أحبّه

(١) لو قال الرافعي: وذهب يصنع حياة أخرى لكان أوفق فجهاد عمرو حياة لاموت.

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها
الشمس والقمر والنجوم كلها أصغر في عينيها من هذا البيض
هي كأرق امرأةٍ عرفت الرقدة مرتين، في الحب والولادة
هل أكلّف الوجود شيئاً إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها
تقولُ اليمامة إن الوجود يجب أن يُرَى بلونيْن في عيْن الأنثى
مرةً حبيباً كبيراً في رجلها، ومرّة حبيباً صغيراً في طفلها
كل شيء خاضع لقانونه، والأنثى لا تريد أن تخضع إلاّ لقانونها

أيتها اليمامة لم تعْرفي الأمير وترك لك فسطاطه
هكذا الحظُّ، عدلٌ مضاعف في ناحية، وظلمٌ مضاعف في ناحية أخرى
احمدي الله أيتها اليمامة، أنْ ليس عندكم لغاتٌ وأديان
عندكم فقط، الحبّ والطبيعة والحياة

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمة تحضن بيضها
يمامة سعيدة، ستكون في التاريخ كهدهد سليمان
نُسب الهدهد إلى سليمان، وستُنسب اليمامة إلى عمرو
واهاً لك يا عمرو!! لو عرفتَ (اليمامة الأخرى).

هذه القطعة الرائعة من الشعر المنثور حقاً، والشعر المنثور اصطلاح عصري قد اشتهر وذاع، وقد أنكرهُ الرافعي وحمل عليه

حين قال[١]: «ومن ههنا نشأ في أيامنا ما يسمونه (الشعر المنثور) وهي تسمية تدلّ على جهل واضعها ومن يَرضاها لنفسه، فليس يضيقُ النثر بالمعاني الشعرية، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب، ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة، ولأيسر سبب، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلاّ من أمدّه الله بأصحّ طبع، وأسلم ذوق، وأفصح بيان، فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ، أو فساد العبارة أو ضعف التأليف... غير أن النثر يحتمل كل أسلوب، وما من صورة منه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهي إلى العامي الساقط، والسّوقي البارد، ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه، وما يتفق فيه من الحسن الشعري فإنما هو كالذي يتفق في صوت المطرب حين يتكلم لاحين يغني، فمن قال (الشعر المنثور)، فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية، وادعاؤه من ناحية أخرى».

وإنكار الرافعي الناقد لايمنعنا أن نخالفه ونردّه، فقد اعترف أن الشعر يحتاج إلى قيود مرهقة لا يقوم بها غير الأفذاذ، وهذا حق، ولكنّه لا ينكر أن القوافي والأوزان مهما تملّكها الشاعر المقتدر تعجز عن تصوير كل المعاني والخواطر التي تتردّد في نفس الشاعر العمودي، وإذا استطاع بموهبته أن يفي بأكثر ما يحسّ. فلابدّ أنّه يترك أشياء في نفسه قام الوزن دون إبداعها في الصورة الشعرية

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٣٢٧.

الرائعة، وهو قدير قدير، والنثر العاطفي يتسع لأكثر مما يتسع الوزن العروضي، والفرق بينهما هو فرق ما بين المطلق والمقيّد، وإذا وُجدت المعاني الشعرية في النثر القديم، فإنها لم تكن بالكثرة التي تتداول اليوم فيما نقرؤه من نماذج الشعر المنثور، الذي نجد له أمثالاً في أوراق الورد والسحاب الأحمر وحديث القمر ورسائل الأحزان لدى الرافعي نفسه، ولولا أن روح الشعر تخفق بين جوانحه لما طار إلى قمة هذا الإبداع، وإذن فالشعر المنثور في الأدب المعاصر حقيقة واقعة لا مرية فيها، ولا نستشهد لها بآثار جبران خليل جبران ومي زيادة وراجي الراعي فحسب، بل نستشهد لها بآثار الرافعي فهو أقوى جناحاً، وأوسع أفقاً، وأسلمُ لغةً، وأبدع تصويراً، وإذا كان الشاعر العمودي يعجز عن استيفاء بعض الخواطر كما تتراءى في نفسه، فإن الكاتب أيضاً ليعترف بعجزه مهما اتسع أمامه مجال القول دون حدود، وهذا ما أكّده الرافعي نفسه وعلّله حين قال[١]:

«لقد تعاون أفراد هذا الإنسان الضعيف على أن يخلقوا الطبيعة خلقةً معنوية، فصوّروها باللّغة وضبطوها ـ على عظمها ـ كما يضبط تاجر اللؤلؤ حساب ما في حقيبته الصغيرة، لا حساب ما في البحار، وجرَوْا في أكثر المعاني السامية هذا المجرى، فربّ معنى تجده ملء السموات والأرض وما تجد له من صفة تُحدّ إلا وهي حدٌّ لصفة أخرى... وهذه اللّغة الناقصة التي تصوّر الطبيعة

---

(١) الحديقة ج٧ ص٢٧٤ ط٢.

وتحدّها هي في ذلك كالعين التي ترى الطبيعة وتصفها باللّغة».

فالكلام نثراً وشعراً يعجز كثيراً عن نقل الملموس والمحسوس كما هما، وإذا كان الشعر ذا قيود فعجزه أكثر احتمالاً، ومن هنا اتسع الشعر المنثور لدى الرافعي لتصوير أدق الخوالج تصويراً تتجلى قسماته تجلّياً باهراً يدهش ويروع!! كما رأينا في (نشيد اليمامة) وكما نرى في هذين النموذجين الآخرين؛ وهما عن البحر في فترة الاصطياف بالاسكندرية، إذ أن للرافعي مقالات شتى هب نسيمها من أفق البحر الأبيض في الاسكندرية، وقد اخترنا أنموذجاً يعبّر عن الإعجاب الرائع بجمال الطبيعة، فهو إعجاب المبتهج المسرور لما يشهدُ في ربيع الحياة من أفانين الجمال، ومعه أنموذجٌ يعبّر عن حسرة المؤمن العفيف حين يجد مشاهد العري والتبرج تموج على الشاطىء وفي خضمّ الموج، فتعلن عن ابتذالٍ مسف، وانحدار مشين!!. هذان المشهدان المتقابلان قد ألهما الشاعر المبدع ما لا يقوله سواه!! وأقول سواه عن خبرةٍ نقدية منصفة، فالرافعي نسيج وحده، واجتهدْ أن تبحث له عن نظير في أسلوبه التصويري، نظيرٍ معاصر أو غابر، فلن تجد في مدى عصور العربيّة من يرتفع إلى هذا البيان.

قال الرافعي في أنموذجه الراضي المبتهج، بعدَ أن تحدث عما سمَّاه (الربيع المائي)[1] حين يحتدم الصيف، ويصبح البحر

---

(١) وحي القلم ج١ ص ٤٣.

بنسيمه وجوّه ربيعاً تنتقل إليه أرواح الحدائق ويحس الشعراء أن الربيع يتأوّه:

«في الربيع المائي يجلس المرء، وكأنه جالس في سحابة لا في الأرض، ويشعر كأنه لابس ثياباً من الظل لا من القماش، ويجد الهواء قد تنزّهَ عن أن يكون هواء التراب.

وتخف على نفسه الأشياء.

الشمس هنا جديدة، تثبت أن الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في شعور النفس به.

والقمر زاهٍ رقّاف من الحسن، كأنّه اغتسل وخرج من البحر، أو كأنه ليسَ قمراً، بل هو فجر طلع في أوائل الليل، فحَصَرتْه السماء في مكانه ليستمر الليل.

فجر لا يوقظ العُيون من أحلامها، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها، ويلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حولَه إلا مستبهمة، كأنها أحلام معلقة.

للقمر هنا طريقة في إبهاج النفس الشاعرة كطريقة الوجه المعشوق حين تقبّلُه أول مرة.

وللربيع المائي طيوره المغرِّدة، وفراشه المتنقل:
أما الطيور فنساء يتضاحكن، وأما الفراش فأطفال يتواثبون
نساءٌ إذا انغمسْن في البحر، خيّل إليّ أن الأمواج تتشاجن وتتخاصم على بعضهن
رأيتُ منهن زهراء فاتنة، قد جلستْ على الرمل جلسة حواء قبل

اختراع الثياب، فقال البحر: يا إلّهي لقد انتقل معنى الغرق إلى الشاطىء. . .

إن الغريق منَ غرق في موجة الرمل هذه. . .

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجّون كأنما اتّسعتْ لهم الحياة والدنيا

وخُيّل إليهم أنهم قد أقلقُوا البحر كما يُقلقون الدار، فصاح بهم: ويحكم يا أَسْماكَ التراب. . .! ورأيتُ طِفلاً منهم قد جاء فوكَزَ البحر برجله، فضحكَ البحر وقال: انظروا يا بني آدم. . أعلى الله أن يعبأ بالمغرور منكم إذا كفر به؟ أعليَّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلني برجله؟

أيها البحر، قد ملأتْك قوة الله لتثبتَ فراغ الأرض لأهل الأرض.

ليس فيك ممالك ولا حدود، وليسَ عليك سلطان لهذا الإنسان المغرور.

وتجيشُ بالناس وبالسفن العظيمة، كأنّك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشّا ترمي به.

والاختراع الإنساني مهما عظم لا يغني الإنسان فيك عن إيمانه.

أنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول، ردّاً على عظمة الإنسان وهَوْلِه في الربع الباقي، ما أعظم الإنسان وأصغره. . . إلخ».

هذا بعض النموذج الثاني، أما النموذج الثالث فجزء من قصيدة (لحوم البحر)، قال الرافعي إنه ترجمها عن الشيطان الذي

ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفةً في أجسامها تحت عين التقي والفاجر، لتعمل عملها في الطباع والأخلاق، فسوّل للنساء وللرجال أن ذلك الشاطىء علاج الملل من الحرّ والتعب، حتى إذا اجتمعوا فتقاربوا فتشابكوا سوّل لهم الأخرى: إن الشاطىء كذلك هو علاج الملل من الفضيلة والدين، وما أتى الشيطان ـ كما قال الرافعي ـ أحداً، ولا وسوس في قلب، ولا سوّل لنفس، ولا أغرى من يغويه، إلا بأسلوب شعري ملتبس دقيق يجعل المرء يعتقد أنّ اطِّراح العقل ساعة هو عقل الساعة، وإذن فالرافعي قد استوحى شيطان الإثم حين قال:

يا لحوم البحر سلخك جزّار من ثيابك

جزّارٌ لا يذبح بألم، ولكن بلّذة

ولا يَحِزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة

ولا يميتُ الحيّ إلا موتاً أدبيّاً

إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء

فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق

للطبيعة أسلحةُ العري والمخالطة، والنظر والأنس والتضاحك ونزوع المعنى إلى المعنى

وللأخلاق المهزومة سلاحٌ من الدين قد صدىء، وسلاحٌ من الحياء مكسور

يا لحوم البحر، سلخك من ثيابك جزّار

الشاطىء كبير كبير يسع الآلاف والآلاف

ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير . . حتى لا يكون إلا خَلْوة
وتقضي الفتاة سنتها تتعلم، ثم تأتي هنا، تتذكر جهلها وتعرف ما هو
وتمضي المرأة عامها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادّة اللؤم الطبيعي
الفتاة ترى في الرجال العريانين أشباح أحلامها، وهذا معنى من السقوط
والمرأة تُسارقهم النظر تنويعاً لرجُلِها الواحد، وهنا معنى من المواخير
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار

يجيئون للشمس التي تقوى بها صفات الجسم
ليجد كلّ من الجنسين شمسه التي تضعف بها صفات القلب
يجيئون للهواء الذي تتجدد به عناصر الدم
ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسد به معاني الدم
يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية
ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية، سمكة تُطارد سمكة
ويقولون ليس على المصيّف حرج
أيْ لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حرج
يا لحوم البحر، سلخك من ثيابك جزّار . . ».

إذا قلت بعد ذلك إن الرافعي قد قضى حياته السعيدة شاعراً لم يفارق الشعر، فمعي الدليل في فصول كثيرة من وحي القلم وهو آخر ما كتب، رحمه الله.

* * *

الرَّافِعيّ ناقِدًا

في بعض الدراسات الجامعية عن النقد الأدبي المعاصر، تعرّضَ باحث فاضل لمصطفى صادق الرافعي الناقد فأخذ عليه أن نقده فقهيّ، وأنّه ليس له مفهومٌ واضح في حقيقة الشعر كما جاء في مقدمة الجزء الأول من ديوانه.

أما المأخذ الأول ونعني به النقد الفقهي، فهو كما يراه الكاتب (ولا أدري كيف نسبه إلى الفقه) أن يكون النقد متعلّقاً بالكلمات اللّغوية وصحتها، وبالمعاني من حيثُ اقتباسها من المتقدمين، وهو نقدٌ سلفي نجده في كتب التراث، وأراهُ اليوم مما يجبُ أن يُراعَى لأن إهمال الاستعمال اللغوي الدقيق، واتخاذ ألفاظٍ غير عربيّة تارة، وغير موضوعة وضعها الصحيح تارة أخرى مما يجبُ أن يصحّح، وقد كان نقّاد الأدب في مطلع هذا العصر يهتمّون بذلك اهتماماً كبيراً، فالمرصفي الكبير في الوسيلة، والشيخ حمزة فتح الله في المواهب، وغيرهما قد حرصوا على الاستعمال الصحيح للفظ العربي، وكان اليازجي يُفرد صفحاتٍ في مجلة الضياء لإيضاح ما ارتطم فيه الصحفيون من أخطاء في فهم المراد من الكلمات، وعاد ذلك على اللغة بالنفع الجزيل إذْ أنّ الطبقة

التالية من الشعراء والكتاب قد حَرصت على سلامة الّلغة وجاءتْ آثارها الأدبيّة ناطقة بالاستعمال الصحيح، ومن أخطأ منهم تدارك خطأه، وصحّح ما وقع فيه. ومدرسةُ التجديد الشعري التي قادها شكري والمازني والعقاد كانت حريصةً كل الحرص على الاستعمال اللغوي الصحيح، وقد أخذ العقاد في مقدمته لكتاب (الغربال) على شعراء المهجر تحلّلهم من الصحة الّلغوية، وعدَّ ذلك عيباً مشيناً خالف فيه ما اتجه إليه الأستاذ ميخائيل نعيمة مؤلّف الغربال من التساهل في الاستعمال. فإذا تشدَّد الرافعي في نقده الّلغوي فذلك مما يُحمد له، بل ذلك مما يجب أن يُراعى الآن، لأنّ ما نشهده الآن من ركاكة الأسلوب لدى من يسمون أنفسهم شعراء الحداثة ناشىءٌ عن الجهل بحقيقة الاستعمال اللغوي، وهمْ في حاجة إلى ناقدٍ كالرافعي يدفع بهم إلى ضرورة فهم الّلغة بألفاظِها الحقيقية والمجازية قبلَ أن يتصدوا للتأليف الشعري والنثري دون دراية بأول ما يجب عليهم في هذا المجال!!

هذا عما يسمّى بالنقد الفقهي، وكان الأحرى بمن أطلقوا عليه هذا التعبير أن يسمّوه بالنقد الّلغوي احتراماً لما يدلّ عليه اللفظ في معناه الحقيقي الصريح، أما مُراعاة السرقات الشعرية، أو الاتفاق في الخواطر، فأمرٌ شُغل به القدماء، ودارتْ كتب النقد التراثيّة عليه، حيثُ جعلَ القدامى يترصّدون للشاعر ليعرفوا مدى ابتكاره ومدى تقليده، وقد فرّقوا بين المعاني المشتركة التي لا يجوز الحكم فيها بالأخذ والمعاني الطريفة المستحدثة التي يبتكرها الشاعر فوضعوا لذلك حدوداً ملزمة يعرفها الدارسون، فإذا جاء

الرافعي وتناول ما قرأ للشعراء المحدثين، وردَّ بعضَه إلى قول سابق، فقد سارَ على منهج مألوف، والقارىءُ لنقدِ الرافعي، سيوازن حتماً بين القول المأخوذ منه، والقول الآخذ، ويحكمُ إذا كانَ الناقد صائباً أو غير صائب، ولا أدري كيف يُحرّم على النقاد أن يرجع بالقول المأخوذ إلى مصدره، ويُعدّ ذلك نقداً فقهياً، وأريدُ أن أسأل من يذهبون إلى ذلك عن رأيهم في ناقد أخذ آراءهم، وتبنّاها لنفسه ألا يَصرخون بالشكوى منه، ويعدّون ما ارتكبه جريرةً بَلْقاء!! فما بالهم يعتصمون بقضية (توارد الخواطر) دُون نظر إلى قيودها الدقيقة، ويعدّون كلّ من ردّ الشيء إلى مصدره ناقداً محدوداً بمنهجه القديم!!

هذا عن الشق الأول فيما وُجِّه إلى الرافعي من نقد، أما الشق الثاني وهو عدم وضوح المعنى الفنيّ للشعر في فكر الرافعي، فقد اعتمد قائلُوه على ما جاء في مقدمة الجزء الأول من ديوان الشاعر، وقد كتبها في سنّ العشرين، فمَال إلى الاحتفال بالأسلوب الإنشائي باعتباره مبتدئاً أخذ ينظم الشعر على منهج مُعاصريه، ثم اندفع إلى كتابه مقدّمة أدبيّة لديوانه نحا فيها المنحى الشاعري حين قال: «إنّ أوّل الشعر اجتماع أسبابه، ويرجع ذلك إلى طبع صقلته الحكمة، وفكرٍ جَلا صفحة البيان، فما الشعر إلا لسان القلب إذا خاطب القلم، وسفير النفس إذا ناجت النفس، ولو كان طيراً يتغرد لكان الطبع لسانه، والرأس عشّه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمع من أفواه المجيدين».

هذا بعض ما جاء في مقدمة الرافعي لديوانه الذي أصدره سنة

١٩٠٣، وهو في سن العشرين، ثم صار بعد ذلك ناقداً يفهم الشعر على منهجه الصحيح إذا نقد، ويحدّده بمفهوم معاصر لا اختلاف عليه، فكيف يجوز للناقد أن يحكم على الرافعي في ضوءِ مقدمةٍ فنية إنشائية كتبها في صدر شبابه قبل أن يستكمل نضجه النقدي، ويجعل فهمه للشعر ساذجاً في ضوء هذه المقدمة وحدها!؟

وقد كان عليه أن يرجع إلى ما كتبه من بَعدُ عن حقيقة الشعر وجوهره وبخاصةٍ ما جاء في الجزء الثالث من وحي القلم، ليضع الرافعي الناقد موضعه الصحيح!! وقد كان الرافعيّ ناقداً حقاً؛ سواءٌ في فهمه النظري للشعر وحقيقته ورسالته في الحياة، أو في نقده التطبيقي لكبار الشعراء وأوساطهم من معاصريه، وما دَوّنه في هذا المجال محفوظٌ في آثاره المتداولة، وسأحاول أن أقف في الجانب الآخر فلا أرجع إلى ما ابتدأ به الرافعي من آراءٍ في الشعر ساقها في مطلع شبابه، بل أرجع إلى الناقد الحصيف حين تمّ اكتماله الأدبي، وصدر في وزن الحقائق الأدبيّة عن منطق متسع فسيح، قد يجد مَن يخالفه بالحجة، وهذا مما لا مؤاخذة عليه، فالكلمةُ الأخيرة في النقد الأدبي لم تُقل بعد، وإنما النقدُ حلقات في سلسلة ممتدة، تمتدّ وفق العصور المتتابعة، ولكلّ عصرٍ تياره الخاص، فقد تشيعُ نظريةٌ نقديةٌ في عصرٍ ما وتجد التأييد المطلق، ثم يأتي عصرٌ آخر بما يعصف بهذه النظرية المتفق عليها، ويأتي برأي جديد مخالف!! مؤرخو النقّد هم الذين يُوالون تسلسل هذه الآراء، ويحكمون عليها بما يشاؤون.

وأنا في هذا المجال النقدي للرافعي سأتجاوز ما كتبه في مقدماتِ دواوينه، كما أتجاوز ما كتبه في مؤلّفه (تاريخ آداب العرب) لأنّي أفردت له بحثاً خاصاً لا أجدُ معه مدعاة للتكرار، وسأتّجه إلى ما كتبه في الجزء الثالث من وحي القلم، فهو الثمرة الشهية التي آن أكلها بعد فترة النماء الصحيح.

كتب الرافعي فصلاً هاماً تحت عنوان (نقد الشعر وفلسفته)[1] تحدّث فيه عن الشاعر أولاً، فهو في رأيه لا يعيش في عمر واحد، ولكنْ في أعمار مختلفة إذ ينطوي على نفوسٍ تجمع الإنسانية من أطرافها، وبذلك خُلِقَ ليفيض من حياته علىٰ الدنيا، وليزيد كلّ إنسان معاني وجوده المحدود، وليرهف أعصابه فتدرك شيئاً مما فوق المحسوس.

أما ما قال عن الشعر نفسه، فقد أوضح منزلة الفكرة من الشعر وبين منزلة الخيال منه، فقرّر أن الفكرة ليست شعراً إذا جاءتْ كما هي في العلم والفلسفة، وإنّما الشعر تصوير خصائص الجمال الكامنة في الفكرة إذ يلوّنها الشاعر بما يظهر أسرارها البعيدة، فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم بها في نفس قارئها فحسب، وإنما يصنع الفكرة ويتصرف بها لتعطي العلم والذوق معاً، وعبقريةُ الأدب لا تكون في تقرير الأشياء تقريراً علمياً بحتاً ولكنْ في إرسالها على وجه من التسديد، لأن الفكرة ليست علماً

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٢٣٧.

وفلسفة فحسب، وإنّما هي الصدى المتجاوب في النفس إزاء ما أُلهم الشاعر من العلم والفلسفة، ومتى نزلت الحقائق في الشعر يجب أن تكون موزونةً في شكلها كوزنه، فلا تأتي على سرْدها العلمي بلا علم ولا صناعة!!

وحين تحدث الرافعي عن الخيال الشعري قال إن تخيّل الشاعر إنما هو إلقاءُ النور على المعنى ليشفّ به، فهو بذلك يرفع الطبيعة درجةً إنسانية، ويرفع الإنسانية درجةً سماوية، وكل بدائع العلماء والمخترعين هي منه بهذا المعنى، فهو في أصلِه ذكاءُ العلم، ثم يسمو فيكون بصيرة الفلسفة، ثم يزيد سموّه فيكون روح الشعر، أما إذا قَلبتَ هذا النسق فانحدرت به نازلاً كما صعدت به حصل معك أن الخيال روح الشعر، ثم ينحط شيئاً فيكون بصيرة الفلسفة، ثم يزيد انحطاطاً فيكون ذكاء العلم.

وإذا كانت هذه الحقائق مقررة فيجب أن يقوم عليها النقد المعاصر، لأن النقد المعاصر ـ كما كان يراه الرافعي حينئذ ـ لا يزيد على أن يكون تعليقاً على كلام الشاعر، فيجيءُ عمل الناقد كأنه تصنيفٌ وشرح لما يقول الشاعر، وبذلك يكونُ الشاعر هو المتصرف في ناقده، يديره كيف يشاء، والناقدُ الذي يزحم النقد بأخبار الشاعر وتاريخه إنما هو كاتبٌ يجدُ مادة إنشائية يتصرّف فيها، وليس النقد مادة إنشاء تتحدثُ عن حياة الشاعر وأحواله، بل هو الاطلاعُ والذوق والخيال والقريحة تؤدّي ثمارها في تكوين النقد فيبدع في منحاه.

ومن أجل ذلك ترى من آيات الناقد أنّ الشعر في مرآته الناقدة يعرض نفسه عليك عرضاً، ويبيّن لك حالته في ذهن شاعره، وكيف توافى وائتلف، وكيف انتزعه الشاعر من الحياة، وما وقع فيه من قدر الإلهام، وما أصابه من تأثير الإنسان، وبالجملة يورد عليك الناقد ما ترى معه كأنّ حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر.

هذا رأي الرافعي في النقد الشعري مُوجزاً ملخصاً، وهو يُصوّر الناحية النظرية في فهمه للأدب والشعر معاً، لأن الأدب المبدع يحمل رسالة الشعر وروحه، ويستمدّ الوحي من طبيعةٍ تقرب من طبيعة الشاعر، أمّا الأمثلة التطبيقية فنجدها في آثار الرافعي الناقد.

لقد تحدث عن الشاعر (إسماعيل صبري) فقَرنه[1] بمحمود سامي البارودي لاتحادِ زمنهما المتقارب، وقد قال عنهما: «إن البارودي قد نبغ قبل صبري بعدة سنوات، ولكن الجزالة العربيّة والأدب الفارسي هُما رافدا البارودي، أمّا صبري فقد تحوّل إلى الأدب الإفرنجي والرقة العربية، وهذا موضعُ التفاوت في شعر الرجليْن اللذيْن اقتَنصا الخيال الشعري من طرفي الأرض، وكلاهُما يذهب مذهباً خاصاً، فالبارودي يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة، ثم يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس في ممر الوحي؛ وصبري يسترق ويضيف

(١) وحي القلم ج٣ ص٢٦٠.

إلى صفاء لفظه جمال التخيّر وحلاوة الرّقة، ويُعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب. والبارودي لا يرى إلا ميزان اللسان يُقيم عليه حروفه وكلماته، وصبري لا يرى إلا ميزان الذوق الذي هو من وراء اللسان، وقد يُسّرت لكليهما أسبابُ ناحيته في أحسنِ ما يتصرّف به، فجاء البارودي حافظاً كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولَّدين، وجاء صبري مفكراً كأنه مجموعةُ أذواق وأفكار. وأحسنُ ما تجد شعر صبري في الغزل والنسيب والوصف والحكمة فهي عناصر قلبه وذوقه، ولعلّه إن جاوزها قصر معه شيئاً ما، وضعفتْ أداتُه ضعفاً ما، لأنه يكون شاعر الصنعة وهو يأباها ويكره أن يكون شاعراً من أجلها... ويمتازُ نسيبه بأنه يكاد يكون في طهارته وعفته ضوءاً من جمال الشمس والقمر».

ثم يجيء دور حافظ إبراهيم فلا يصفه الرافعي بما ليس فيه، ولكنه يضعه موضعه الصحيح حين يقول عنه[1]: «لا جرم كان شاعرنا عبقريّاً عجيب الصنعة قوي الإلهام... ولكنه كذلك في مذاهب من الشعر دون غيرها، فلم يكن معه من التمام في فنون الشعر.. وكم من مرة نبّهته إلى ذلك وقلتُ له إنّه كالنمط الواحد، وإنّه يجب أن يترسَّل شعره بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة، فإذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هي السياسة، ولا ينبغي أن يكون شعره كشمس الصيف، فإن للربيع

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٢٧٢.

شمساً أجمل منها وأحب، كأنما هي مجتمعة من أزهاره وعطره ونسيمه.

قال حافظ للرافعي يوماً: أنا لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات، فقلتُ له: ومالك لا تقول بالعبارة المكشوفة «إنك لا تعد الشاعر إلا مَن ينظم مقالات الجرائد».

ثم بسط الرافعي مراده بقوله: «إن مادة الشعر غير روح الشعر، فإذا كان في المادة اجتماعيٌّ وسياسيٌّ، فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه، والاجتماعيات ليستْ كل حقائق الحياة، وهي بعد ذلك معانٍ محصورة في زمنها ومكانها، على أن الحقائق ليست هي الشعر، وإنما الشعر تصويرها والإحساس بها في شكل حي تلْبسه الحقيقة من النفس»، وقال الرافعي بعد شرح مسهب:

«وضعفُ الموهبة الفلسفية في حافظ عوّضه ناحيةً أخرى من أقوى القوة في الشعر، وهي اهتداؤه إلى حقيقة الغرض الذي ينظم فيه، وتركه الحواشي والزيادات، وانصراف قواه إلى دقة الوصف حين يصف، وتعويله على إحساسه أكثر من تعويله على فكره، فزاد ذلك في روْنق شعره ومائه، ونحا به منحى المطبوعين، فخرج يتدفق سلاسة وحلاوة، ممتلئاً من صواب المعنى، وبلاغة الأداء، وقوة التأثير، وبهذا نبغ في الرثاء ووصف الفواجع نبوغاً انفرد به، حتى لأحسبُ أن هناك روحاً يمده في هذه المواقف، وأن الحقيقة تتبرجُ له في هذه العظائم خاصة، ليرى منها مالا يراه غيره، وهو يتحد بالعظيم الذي يرثيه فيجيد فيمن يعرفه إجادة

منقطعة النظير، تتبيّن الفرق بينها وبين شعره فيمن لا يعرفه تلك المعرفة».

أما تقدير الرافعي لشوقي فمما أعلنه صريحاً دون جَمْجَمَةٍ، وقد قال في مطلع كلمته النقدية عنه[1]:

«هذا هو الرجل الذي يُخيل إلي أن مصر قد اختارتْه دون أهلها جميعاً، لتضع فيه روحها المتكلم، فأوجبت له مالم تُوجب لغيره، وأعانتْه بمالم يتفق لسواه، ووَهبته من القُدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدْر أمّةٍ تريد أن تكون شاعرةً، لا على قدر رجل في نفسه، وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ: شعري وأدبي».

والمبالغة في العبارة الأخيرة لا تخفى، وقد ساقها الرافعي ليغيظَ قوماً من خصومه كانوا حرباً على شوقي فهم ينقدونه بعنفٍ دام، لأن شوقي ليس وحده الذي تقولُ مصر عنه هذا شعري وأدبي!! وإذا كان ذلك كذلك، فأيْن معاصرو شوقي وأين أساتذته؟

وعاد الرافعي إلى الاستطراد في هذا المنحى فقال: «كلّ شاعرٍ مصريّ هوعندي جزءٌ من جزء، ولكن شوقي جزءٌ من كل، والفرق بين الجزءيْن أن الأخير في قوته وعظمته وتمكنه واتّساع شعره جزءٌ عظيم كأنه بنفسه الكل، ولم يتركْ شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي، وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه، وذلك من الأدلة على

---

(١) وحي القلم ج٣ ص٢٩٥ وما بعدها.

أنه هو المختار لبلاده، فساوى الممتازين من شعراء دهره، وارتفع عليهم بأمور كثيرة هي رِزق تاريخه من القوة المدبرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطي، وقد اجتمع لشوقي في ميراث دمه ومجاري أعراقه: عنصرٌ عربي، وآخر تركي، وثالث يوناني، ورابع شركسي، وهي كثرة إنسانية لا يأتي منها شاعر إلا كان خليقاً أن يكون دولة من دول الشعر.. وعندي أنّه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم في طبقة الفحول من شعراء العالم إلا إذا أُعيد تاريخ شوقي مهذباً منقّحاً في رجل وهبه الله مواهبه ثمّ تهبه الحكومة المصرية مواهبها».

والغلوُّ في ذكر عناصر الدم الغريب عن مصر في تركيب شوقي واضح، لأنّ البارودي وولي الدين يَكَن وأحمد الكاشف وحسن حسني الطوراني مما يمكن أن يقال في أنسابهم البعيدة عن مصر ما قاله الرافعي في شوقي، ولم يبلغ أحد من هؤلاء منزلة شوقي الشعرية، وقد أتيح لبعضهم من الجاه السياسي مالم يتح لشوقي، فاتفق معه فيما يريد أن يقرر به الرافعي توفيق شوقي من ناحية الأصل والبيئة، وقد جرّد الرافعي في هذا المقال وفي غيره مصر من شاعر موهوب، فاندفع الأستاذ عبد الله عفيفي يكتب مقالات تحت عنوان (مصر الشاعرة) ليردّ ما كتبه الرافعي عن شعراء مصر، وكانت حرباً، وقد وازن الرافعي بين قول أبي تمام:

أتيتُ فؤادها أشكو هواها ... فلم أخلص إليه من الزحام

وقول شوقي:

أتراها تناست اسمي لمّا ... كثرت في غرامها الأسماء

فقال: «مرَّ المعنى في ذهن شوقي كما يمر الهواء في روضه، وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها، لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء، لا بقلب امرأة يحبها، وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في إبداعه وذوقه ورقته!!

والحق أن الرافعي قد استرسل في التشبيه بالنسيم والهواء والروض في غير مراعاة للموقف العاطفي، فالازدحام على قلب الحبيبة الجميلة أكثر من الازدحام في سوق البيع والشراء، والجلبة هنا مما ترفع قدر الحبيبة في ذات النفوس المترامية على جمالها! أما القول بأنها تناست الاسم لكثرة الأسماء فلا يصوّر هذا التهافت الصارخ على سلطانة في دولة الجمال! فبيت أبي تمام أوفى وأبلغ وأدق تصويراً لما يُراد. .

وقد تعرَّض الرافعي بعد مقدمته هذه إلى أخطاء كثيرة وقع فيها شوقي، ونقد ما رآه نقداً مطبوعاً مؤيداً بالدليل، ولكن نأخذ عليه مبالغة في المدح سيقت في غير موضعها، والإنصاف عند الاعتدال. .

ثم توالت نقدات الرافعي لشعراء وأدباء أذكر منهم: علي محمود طه، ومحمود أبا الوفاء، وصروف اللغوي، وتوفيق الحكيم، وفي هذه النقدات وفي غيرها ما يهيء للرافعي مكاناً في دنيا النقد، وهو بهذا كله ليس (الناقد الفقيه)، ولا أقول إن النقد كان أبرز ميزات الرافعي، بل أقول إنه كان أثراً قيّماً من آثاره، وله وزنه في تقدير كفاحه الأدبي الطويل.

* * *

الرَّسائِل الخاصَّة مِن وجهَةٍ إسلاميَّة

(حول رسائل الرّافعي)

كثُرت في المكتبة الأدبية المعاصرة كُتُب الرسائل الخاصّة، إذْ حرص بعض الذين يحفظون رسائل الراحلين من كبار الأدباء والعلماء على نشرها، ورأوا من تهافت القراء عليها، ما دفعهم إلى تكرار طبعها. والحق أن قراءة هذه الرسائل تمثّل متعة أدبيّة لا شك فيها، لأن كاتب الرسالة حين أرسلها إلى صديقه إنّما فتَح صدره بأسراره وهواجسه وآماله وآلامه إلى صاحبه الذي اختاره لِمُراسلته، وقد ائتمَنَه على أسرارٍ كثيرة، رأى في البوح بها تنفيساً عن مشاعر مكظومة. وقد طالع القراءُ هذه الرسائل بعد رحيل صاحبها، فرأوا فيها ما يُذمّ وما يمدح، ولا أعدّ من هذه الرسائل التي أخُصُّها بحديث اليوم الرسائل التي نشرها كاتبوها في حياتهم إذْ راعَوْا فيها سنن الإعلان المجاهر، فلزموا الحرص الشديد فيما يكتبون، وأمثّلُ لذلك برسائل أحمد أمين لولده المغترب في أوربّا، ورسائل أحمد حافظ عوض لولده أيضاً، وقد نشرهما المؤلفان على القراء، لأنّ ما جاء بهما نصائحُ أبٍ متمرسٍ لابنٍ يودُّ له المستقبل السعيد، فلا فرق إذنْ بيْن ما كَتَباهُ في الرسائل،

وما يكتبانه في المجلات من مقالاتٍ هادفة تنشدُ النفع العام.

وكذلك لا أعدُّ من الرسائل الخاصة ما ازدهر في الأدب العربي من رسائل ديوانيّة، أو رسائل إخوانية، أو رسائل علميّة، لأنّ كلّ ما نحا هذا المنحى فصولٌ فكريّة تعالِجُ مسائل أدبيّةً، على نحو ما جاء في رسائل أبي العلاء، أو مسائل سياسيةً اجتماعية على نحو ما جاء في رسائل الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصابيٍ، أو خواطر عاطفية تصوّر شوق الصديق إلى الصديق كما نعهدُ في رسائل الخوارزمي وابن العميد، كلّ ذلك لا يندرجُ تحتَ عنوان الرسائل الخاصة التي نخصّها بهذا المقال، لأنّ هؤلاء جميعاً قد كتبوا رسائلهم لتُنشَر وتُذاع، ولم يسمحوا لمشاعرهم الخافية أنْ تتألّق بين السطور على نحوٍ كاشف يُبرزُ مكنون الضمائر وخوافيَ الأحاسيس، فإذا قال قائلٌ إنّ الأدب العربي يعرفُ الرسائل الشخصية على مرّ عصوره، فلنْ يخالفه أحد، ولكنّها رسائل الجهْر لا رسائل السِرّ، وقد احتلتْ مكانتها بين الأنواع الأدبية للنتاج الفني، وكتب الدارسون عَنْ خصائصها الفنية المختلفة باختلافِ العصور والأمثلة، فلنترُك الحديث عنها، إلى ما نَعنيه من رسائل الهمس والمكاشفة في ظلٍّ من الكتمان.

إنّ في بعض هذه الرسائل أسْراراً يحرصُ كاتبُها على ألا تذاع، وهو يعلمُ تمامَ العلم حين أرسلَ خطاباته إلى صديقه أنّه سيدّخرها لنفسه، فقد تكونُ بها بعض الشتائم التي تمسّ مشاعر قومٍ آخرين، وقد تكشف عن علاقةٍ عاطفية بين الكاتب وبعض من يَخُصُّهُنَّ بالود، وكل ذلك يجعلُ من نشر الرسائل بنصّها الأصلي نميمةً

آثمةً، ووشايةً ظالمة، وأقولُ بنصها الأصلي، لأنّ من المستطاع أن تحذف أمثالُ هذه الأهاجي القاسية، أو المشاعر الخاصة، دُون أن يؤثّر ذلك شيئاً في جوهر الرسائل. ولكنَّ مُصيبة المصائب أنّنا نُقلّد أوربّا في شُرورها لا في محاسنها، فنحنُ لا نسابقها في الاكتشاف العلمي ولا في التوثّب الصناعي، بلْ نجعلُ مجاراتها قاصرةً على نواحي الشذوذ الفنيّة، فإذا نُشِرتْ رسائلُ فنانٍ فرنسي وحفلتْ بالقبائح المخزية جعلنا ذلك سبقاً رائعاً يجب احتذاؤه، وأخذْنا نضربُ به المثلَ على التحرر، والّذين يُسارعون إلى تقليد هذا الضرب الشاذ لا يمتّون إلى الأدب الصحيح في جوهره الأصيل، ولعلّ حبّ الكسب المادي يكونُ أقوى الدوافع إلى نشر هذه المخزيات، لأنّ القراء مولعون بهذه الأنماط الغريبة، ولهم عُذرهم إذا وجدوا من الاستشهاد بأعلام الغرب ما يؤيّد هذا المسلك المنحرف، أذكُر أنّ كاتباً فاضلاً ـ وأقولُ فاضلاً عن اعتقاد لأنّ آثارهُ الأدبيّة ذاتُ اعتدالٍ وترفّع ـ هذا الكاتبُ الفاضل قد تأثّر بما قرأه عن أدباء الغرب، فدعا إلى نشر الرسائل الخاصة في مجلّةٍ ذائعة، واعتمد على أقوال المؤيّدين من كُتاب أوربا فيما هدف إليه من وُجوب النّشر لهذه الرسائل، وكان ممّا ذكرهُ نقلاً عن البروفسور «ستارلنغ» أستاذ الأدب الانجليزي المنتدب بكلية الآداب المصرية في الثلاثينات قوله[1]:

---

(١) مجلة المجلة (ديسمبر ١٩٦٠) ص٧٦ من مقال للأستاذ سامي الكيّالي صاحب مجلة الحديث الحلبية.

«الرسائل تعرّفنا إلى الأشخاص لا إلى الإنتاج الأدبيّ، وهذا هُو سرُّ قيمتها وروْعتها، فإننا نجد عظماءنا في رسائلهم على حقيقتهم، ذلك أنّه حين يكتب رجلٌ إلى صديقه أوأبيه أوابنه، لا يتخذ شخصيةً تخالفُ حقيقتهُ، وإذا كان ذا طبع منطلق جائشٍ كالشاعر (بيرون) فلن يتكلّف الطبع تكلّفاً، وإنما يرغبُ في أن يُفهم، لا في أن يترك تأثيراً في نفس قارئه، وإذا كان ذا طبع حيي متحفّظ كالشاعر (غراي)، فهو يظهر شخصيته في رسائله بشكل ليس من الممكن أن يُظهرها فيه مع الجماعة. . . ومن الصعْب تعريف السّر في كتابة الرسائل الموفقة، فأكثريّة الرسائل التي بقيتْ لنا تمتازُ برقّتها وسهولة أسلوبها، غير أنّ ذلك وحده ما كان يكفل لها الخلود، وقد أعْربَ (جيمس هويل) ـ وهو من أسبق كتاب الرسائل الانجليزية وأعظمهم في عَصره ـ عبَّر عن آرائه في سريّة كتابة الرسائل الجيدة، فقال: يجبُ أن تُكتب كما نتحدّث، فالرسالة الصادقة المألوفة هي تلك التي تعبر عن خواطر كاتبها، كأنّما كان يحادثُ الشخص الذي وجّه إليه الرسالة بعبارةٍ قصيرة وجيزة، وخيرُ الكلام ما قل ودلّ، فإنّ كلا اللسان والقلم مُترجمان عن العقل، غير أني أعتقد أنّ القلم أكثرهما وفاء».

وأنا لا أنكر أنّ الرسائل الصادقة تعبّر عن خواطر كاتبها وأنّها تعرّفنا إلى الأشخاص في ذواتهم لا إلى براعتهم الفكرية، كما لا أنكر أنها تحوي من الذخائر الفكرية ما لا يُسْتهان به، ولكنني أرى إذا كان من الضروري أن تُنشر هذه الرسائل فإنّ من الواجب أن يحذف ما يقولُه المرسلُ في لحظاتِ غضبه من شتائم تُوجّه إلى

خصومه، أو ما قدْ يبوحُ به من سرٍّ عاطفيّ يكشف عن غضب على من يتعلق به هذا السر، أو أهله إذا كان قد فارق الحياة، وإذا تركنا الرسائل جانباً، ورجعنا إلى الحديث الشخصي بين صديقين استأمَنَ أحدُهما الآخر على سرّ، أفيجوزُ له في منطقِ الخُلق القويم أن يُذيع هذا السرّ، وإذا أذاعه أفلا يُعدُّ مُخطِئا يرتكب الإثم، فما الفرقُ إذنْ بين سرٍّ مُتَحَدَّثٍ به، وبيْن سرّ كُتِب في خطاب خاص، ليقرأه صديقٌ خاص؟

وإذنْ فالرسائل تحوي أسراراً لا تجوزُ إذاعتها، وللإمام الغزالي في الإحياء قولٌ فصْل في تحريم إفشاءِ السّر لما فيه من الإيذاء والتهاون بحقّ المعارف والأصدقاء، مستنداً إلى قول رسول الله ﷺ: «إذا حدّث الرجلُ الحديثَ ثم التفتَ فهي أمانةٌ» رواه أبو داود والترمذي وحسّنه. وقد أوْجَب الغزاليّ على من يعرفُ السرّ أن يُنكره، وإن كان كاذباً في إنكاره، يقول[1] حجة الإسلام: «وإنْ كان كاذباً، فليسَ الصدق واجباً في كل مقام، فإنّه كما يجوزُ للرجل أن يُخفي عيوبَ نفسه وأسراره ـ وإن احتاج إلى الكذب ـ فلهُ أن يَفْعَل ذلك في حقّ أخيه، فإن أخاهُ نازلٌ منزلته، وهما كشخصٍ واحدٍ، لا يختلفان إلا بالبدن، هذه حقيقةُ الأخوّة» وقد امتدّ الحديثُ بالغزالي في هذا المجال امتداداً مقنعاً أيّده بالحديث الشريف وبالشّعر الرائع، وبِسِيَر السابقين في علائقهم الذاتيّة، والرسالةُ ما كُتبت لشخصٍ معين، وما غُلِّقتْ في مظروف

(١) الإحياء ج٢ ص١٧٦ طبعة الحلبي.

خاص إلا لما تتحمّلهُ من السّر، فكيف يُذاعُ من المخبّأ مالم يُرد كاتبه أنْ يذاع؟

لقد قرأنا رسائل كثيرة نُشِرتْ بعد وفاة كاتبيها، وحَمدنا لناشِريها اعتصامهم بالخلق الفاضل حين ذكروا في مقدمات هذه الرسائل أنّهم حذفوا ما رأوا حذفه مما يمسُّ قوماً آخرين، وفي مجال التطبيق العملي نشيرُ إلى ما نُشِر من رسائل الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي حيث أحدثت لغطاً من قومٍ حاولوا أن يشوِّهوا سيرة الأديب الكبير عن عمد، فالتفَتُوا إلى عباراتٍ قاسية قالها في حق معارضيه، وإلى زَهْوٍ أدبيّ وإعجاب نطق به مادِحاً بعض آثاره، وإلى شكوى صادقة مما ابتُلي به من الفقر والمرض، وتألُّب المستغربين عليه، ففاض ببعض ما يكن.

التفتُوا إلى ذلك، وإلى ما يشبه ذلك مما يروْنه موضع المؤاخذة، فألفوا الكتب الخاصة بتجريح الرافعي رحمه الله معتمدين على هذه الرسائل، إذ حملت من الهنات ما جسَّموه وجسّدوهُ حتى كأنّه وحده هو الذي يمثّل الرافعيّ في جهاده الممتد، وأدبه العاطفي الحار، وقيامِه بعبء الجهاد في مهبّ العواصف، ويُخيّل إليّ أن هؤلاء وقد كتبوا ما كتبوا منذ أمدٍ بعيد، لو راجعوا اليوم ما قامُوا به من الحملات على مَن عُرف بأنّه حجة العرب ونابغة الأدب لاستنكروا ما تورّطوا فيه من هجاءٍ، وكان الأجدرُ بهم أن يتعمّقوا بواعث الرافعي، وأن يقدروا ظروفه، وأن يعرفوا أنّه إنسانٌ ظُلم في حياته، وَوُضع في غير موضعه، وتحمّلَ أعباء العيش والطبع والنشر دونَ مُعين في دولة مقصّرة، وصحافةٍ مغرضة، وذيولٍ يتزلفون.

لقد آثر الرافعي تلميذه الشيخ محمود أبو ريّة برسائل متّصلة امتدتْ من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٣٤ وتضمنتْ (٢٣٨) رسالة، أكثرُها مُوجز، وأقلّها مسهب، وقد قال أبو رية في تقديمها[1]:

«وقبل أن أضَع القلم أذكر أمراً لابدّ من الإشارة إليه، ذلك أنه قد ينبعثُ من بعض هذه الرسائل دخانٌ خفيف مما كان قد شجرَ بيْن الرافعي رحمه الله وبين بعض كتّابنا المعاصرين، وقد نازعتْني نفسي بيْن تبديد هذا الدخان أو تركه، ولكنّني آثرتُ تخفيفهُ بحذفِ بعض كلماتٍ أو عبارات اشتدّ فيها قلم الرافعي».

ولا أدري كيف خفّف هذا الدخان، وبين الرسائل لهيبٌ محرق، وشواظٌ لاهب، لم تمسّهُ يد التخفيف!! وهلْ أصعبُ من أنْ يصف الرافعي أديباً ذا مكانة بأنه «حمار»، ثم يتركَ هذا الوصف دون تخفيف! إنّ هذه الرسائل كانتْ فرصة ذهبية لكاتبة ـ كانتْ في صدر شبابها ذات حماسة لخصوم الرافعي ـ فآثرتْ أن تجعل من الرسائل مادةً لانتقاص أدب الرافعي، وأخذتْ تقتنصُ من عباراتها الشاكية والغاضبة والفاخرة ما أمدّها بنقدٍ متسرع لا يقومُ على دليل متين، وقد قلتُ إنها كتبتْ مؤلّفها في صدر شبابها، لأنّها الآن ذاتُ اتّزان هادىء، ولها جهدُها المشكور في ميدان البحث والإصلاح، ولكنّ الكتاب باق لم يتبدّد، باقٍ يُعلن الغضب الناقم على الأديب الكبير دون موجب، والاعتمادُ الأول في هذا الهجوم على ما تضمنتْه الرسائل.

---

(١) رسائل الرافعي ص١١ ط٢.

على أنّ (أبا ريَّـة) لو كان ذا صَبْر متئد، لفهم من رسائل الرافعي حرصه على عدم إذاعة الأسرار الخاصة بمعيشته وأموره الذاتية، فقد كتب إلى أبي ريّة، يُعلن في الرسالة الثالثة[1] أنه ألّف كتاب المساكين، غير أنّه لم يجدْ من يعينه على طبعه فطواه دُون نشر، وليسَ طبعُه بالمعجز كما يقول الرافعي، إذ لا تبلغ النفقات [حينئذ منذ ثمانين عاماً] أكثرَ من خمسةٍ وعشرين جنيهاً، ولكنه لا يجدُها، ويتساءل: أين هي؟ بل أيْن مَن يقول: ها هي. وما كاد الخطاب يصل إلى أبي ريّة، حتى كتب إلى صاحب مجلة البيان الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي يرجوه أن يقوم بطبع الكتاب، وعلم الرافعي بما فعله أبو ريّة، فكتب إليه يقول في الرسالة الرابعة[2]:

«السلامُ عليك، وبعد: فإني شاكرٌ لك أدبك وغيرتَك، ومروءتك، غير أنّي أعتب عليك إذ كتبت للشيخ البرقوقي ما كتبتَ، فإنّي في كتابي الأخير إنما اعتذرتُ عنْ عدم طبع كل كتبي لأنّي لا أملأ السوقَ ويدي خالية لا أستطيع أن أملأها، وفرقٌ بين عدم امتلاء اليد وبيْن ضيقها، فإنّي والحمد لله في يُسر، وإن لمْ أكنْ في سعة، على أنّي كنت مريضاً يومئذ فكتابتي كانتْ مريضة كذلك والحمد لله على العافية».

فالرافعي رحمه الله قد استاء من تلميذه لأنّه أذاع سراً ائتمنه

---

(١) رسائل الرافعي ص٢٩ ط٢.

(٢) رسائل الرافعي ص٣٠ ط٢.

عليه، وأخذ يُفهمه أنه ليسَ ذا فاقة حتى يُعلن للشيخ البرقوقي حاجته، وأكّد له أنه في يُسر وإنْ لم يكن في سعة، وأن هناك فرقاً بين عدم امتلاء اليد وضيقها!! وبرّر ما قاله بأنه مريض فجاءتْ كتابته حينئذ مريضة! وكان في هذا الكتاب مقنع لأبي ريّة كي يحذف عند النشر ما ينحو منحى الشكوى، إذْ لا يوافق الرافعي على إذاعته، ولكنه غَفَل!!

إنّ في رسائل الرافعي أفكاراً جيدة في اللّغة والتفسير والحديث والبلاغة، إذ كان أبو ريّة يسأله عن فنون مختلفة في عُلوم العربية فيجيب عنها بإقناع وإمتاع، بين ذلك ما كتبه عن أفكار المتكلّمين والبلاغيّين، وعن الأسلوب البليغ وكيف يقرأ؟ وعن رأيه في الحجاب والسفور، وعن تحليله لأسلوب الشيخ محمد عبده بدءاً وخاتمة، وعنْ وحي القرآن لفظاً ومعنى، وعن التضمين في اللّغة، وعن طريقة الجاحظ في قراءة الكتب، وعن تعليم الإنشاء العربي، وعن تفسير آية ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ وآية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ﴾ وعما ينحو هذا المنحى. وأكثرُ ما سطره الرافعي في هذه الإجابات مِن ملْحوظه الخاص لا مِمّا قرأه في آثار السابقين، ونَشْرُ هذه الرسائل العلميّة ذُو نفع لاشك فيه، كما أن في نشر آرائه المعتدلة عَنْ معاصريه من أمثال محمد فريد وجدي وعبد العزيز جاويش وحافظ إبراهيم وأحمد زكي باشا ما يُعطي مزيداً من الضوء على حياة هؤلاء.

أما موضع الخطر ففيما ذَكَرهُ عن معارضيه، وقد عاش الرافعي وكأنّه في حَوْمة قتال، إذ لمْ يُهادِن أحداً من عمالقة عصره، وكلّهمْ

ذُو اعتزاز بالِـغٍ بتقدّمه وريادته، وكبارُ الكتّاب يتملّقون هذا الطراز، وينفخـون في أبواق الثناء بالحق والباطل، لكنّ الرافعي يقفُ وحده ليجابه العقاد وطه حسين وسلامة موسى وزكي مبارك، ولا يملكُ من الأسلحة ما يملكون، فإذا هاجمه طه حسين في جريدة السياسة، وبَعَث بالردّ الساحق امتنعت الجريدة عن النشر إرضاءً لطه حسين، وإذا هاجمه العقاد في المقتطف وبعث الرافعي بالرد امتنعت المقتطف عن النشر إرضاءً للعقاد، وإذا هاجمه زكي مبارك في البلاغ وبعث الرافعي بالردّ الماحق امتنعت البلاغ إرضاءً لزكي مبارك، وكلّ ذلك مُدوّنٌ برسائل الرافعي لتلميذه، ولا شيء في نشره لأنه صفحةٌ من صفحات الأدب المعاصر. إنّما الضررُ في نشرِ السِّباب الحاد الذي أسرّه الأستاذ الرافعي لتلميذه فلمْ يشأ أن يمحوه، وقد كان في استطاعة الرافعي أن يُخفف من لهجته في الرد على خصومه ليتيسر نشرُ رُدوده دُون جرح، لأنّ نشر النقد الهادىء لا يُوقع خصومةً بين رئيس التحرير وكبار الأدباء من محرّري جريدته، ونكلّف الرافعي فوق احتماله لو طَلبْنا منه أن يهدأ في خصومة العقاد وطه حسين بالذات فكلاهما إعصارٌ ساحق، ولابدّ أن يُقابلا إعصاراً مماثلاً، وهذا ما أدركه الرافعي تمامَ الإدراك.. ورسائلُ الرافعي تفيضُ بالمشاعر الغاضبة الصارخة نحو هذيْن، ولو كتب العقاد أو طه رسائل لمن يَسألهما عن الرافعي لأجابا بأكثر مما أجاب به الرافعي حدة واندفاعاً، ولكنّ الرافعي راسل تلميـذه ببعض ما يضمر، فأصبَـح وحـده موضع المؤاخـذة ممّن يسرهم أن ينقدوا الرافعي تزلّفا لسواه.

لا أنكر أنّ الرافعي قد بالغ مُبالغةً مفرطة في تقدير مؤلفاته، وليس وحيداً في هذا الاتجاه، فزعماءُ الأدب في عصره يبالغون في الاعتزاز بآثارهم كما بالغ الرافعي، وأصدقاؤهم ينقلون عنهم مثلَ ما سجله الرافعي في رسائله، فإذا اعتُبر فخر الرافعي بنفسه في رسائله مدعاة غرور وادعاء فكلّنا مباهٍ مغرور، إنّما الظلم كل الظلم أن نقتطف من رسائل سِريّة كتبها الرافعي في ساعة ضيق لتلميذه بعض شطحاته لنجعلها وحدها مجال النقد والتقييم!! ثم نشفِعُها بتهكم لا مبرر له، بل نشفِعُها بما هو موضع الخطأ الصريح.

لقد قال الرافعي في رسالة أشرتُ إليها من قبل: «على أني كنت مريضاً يومئذ فكتابتي كانت مريضة كذلك» وهو شعور يتلبّس كل كاتب يضطر إلى الكتابة وهو مريض، أفيدري القارىء بماذا عقّبتْ عليه صاحبةُ كتاب (دراسة في أدب الرافعي) إنّها قالت إن الرافعي يقرّر أن كتابته تمرض بمرضه، ونظلمُه إن طالبناه بكتابة سليمة معافاة من العِلاّت[1].

وقد قال الرافعي شاكياً من جحود مكانته وإهمال الدولة إياه:

«وأظنّ هذه البلادِ في حاجة إلى رجلٍ يرصد نفسه وحياته لبيان الغلطات، ويعيش دائماً عدوّاً مكروهاً في سبيل الله كما كان المرحوم أمين الرافعي، ومَن الذي يقدر على هذا في شَعْبٍ

---

(١) دراسة في آداب الرافعي ص٩٨.

لا يُكافىء ولا يميّز»[1].

قال الرافعي ذلك فاستدلّتْ به الكاتبة على أنّ الرجل سوري الأم سوريّ الأب، وهو إن استوطن مصر فليسَ من طبيعة الأشياء أن يكونَ هواه خالصاً معها.. ولا أجدُ إسرافاً بَلَغَ مبلغه من الشطط كما أجدُ في هذا التعليق، إنّ أدباء مصر في أكثرهم قد شكوا ما شكاه الرافعي، وأشعار أحمد محرم وأحمد الكاشف وأحمد نسيم ومحمد إمام العبد وإبراهيم الدباغ من معاصري الرافعي تجأر بالشكوى الأليمة لما يقاسون من إهمال وركود!! ولم يُقْل أحد إن هؤلاء لا يشعرون بالولاء لمصر، وليسَ من طبيعة الأشياء أن يكونَ هواهم خالصاً معها!! بل إن شاعر النيل ولسانَ الوطنية في عصره حافظ إبراهيم رَدَّدَ هذه الشكوى قائلاً:

فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنـت بـالبلـد الطيـب

وكم ذا بمصر من المضحكات ... كمـا قـال فيهـا أبـو الطيـب

وماشكّ أحدٌ في وطنية شاعر النيل؟ فكيف نصمُ الرافعي فيما هو منه بريء!!

وأعجبُ تعليق طالعْتُه في كتاب (دراسة في أدب الرافعي) ما عقّبتْ به الكاتبة الأديبة عقب قول الرافعي ناقداً تلميذه أبا ريّـة: «إنك كرّرت في كتابك ذكر النبي ﷺ دون أن تُتبعَ اسمَه الشريف بصيغة الصلاة عليه، وهذا سوءُ أدب لا أقبله أنا من أحد، ولا أقرّ

(١) دراسة في آداب الرافعي ص٢٢.

أحداً عليه، وأنتَ حين تقول في كتابك (إن الألفاظ ألفاظ محمد) لا تكاد تمتاز عن رجل مظلم القلب، نعوذ بالله من هذه الظلمة، فانتبه إلى ذلك واستغفر الله لنفسك»[١].

هكذا كان الرافعي غيوراً على نبيه العظيم، وناصحاً تلميذه بما يجب، ولكنّ المؤلفة الأديبة تقول في تعليقها الساخر: «حينَ أقرأ هذا لا أستطيع أن أبرّئَهُ من التزمت وضيق النظرة!!» أيّ تزمّت في الصلاة على رسول الله!!

وأنا في هذا المجال لا أستطيع أن أنقل ما تورّط فيه الرافعي من نقدٍ عاصف لزملائه، لأني أؤاخذ الشيخ أبا ريّة على تسجيله، فلا أقوم بترديده الآن، ويكفي أن أدلّ عليه في موضعه، مُعلناً رأيي في ضرورة تنقية الرسائل الخاصة مما يشوبُها من تطرّفٍ دعا إليه الظرفُ الطارىء، فالرسائلُ الأدبية بحاجة إلى هذه التنقية الجادة، وليتذكر من تُسوِّل له نفسُه أن ينشرَ كلّ ما كتبه مُراسِلُه في ساعةٍ من ساعات الحرج، أوْ في لحظات اللهو، إنه يسيء إلى صاحبه إذا أعلَن عنه مالا يحب أن يعلن، كما يُسيء إلى نفسه إن لم يكنْ موضع الأمانة والاطمئنان، وأنا أعرف أنّ نفراً من الناس يعارضون هذه الوجهة وقد يَروْنها تزمّتاً لا يليق، ولكنّني أعرف أيضاً أن نفراً من ذوي الرصانة الخلقية يؤيّدونها كلّ التأييد، ويذكرونَ من الأسباب ما يروْنه كافياً للتستّر والصَّوْن والاحتجاز، بل إنّ من هؤلاء من يُمانع في نشرِ رسائل لا تحمل شيئاً من النقد،

---

(١) دراسة في آداب الرافعي ص٧٠.

ولا تصوّر إلا نزوةً عابرةً وفاءً لذكرى راحلة أو راحل.

كانت الآنسة (مي زيادة) أديبة عصرها دُون منازع، فلم تبلُغ مبلغَها كاتبةٌ تدبجُ المقالات عن حسّ مرهف، ونظرٍ دقيق، وسلاسة في التعبير، وقد حازتْ بذلك إعجاب أعلام الفكر والأدب والصحافة من معاصريها، وكانَ منهم إسماعيل صبري، وولي الدين يكن وخليل مطران وعباس العقاد ومصطفى صادق الرافعي ومصطفى عبد الرازق وأحمد لطفي السيد وطه حسين وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وأنطون الجميل، ولهؤلاء رسائل أدبيّة كثيرةٌ بعثوا بها إلى الأديبة الفذة، وليس بها غير النبيل من العواطف، والرقيق العف من الخواطر، وحين فارقت الحياة وُجِدتْ هذه الرسائل البارعة في منزلها، وقام الأستاذان خليل مطران وأنطون الجميل بإعدادها للنشر؛ إذ رأيا فيها ثروة أدبيّة رائعة ستنزل من القراء أطيب منزل وأرقاه، ثُمّ عنّ لهما أن يَستشيرا أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد وله رسائل بين هذه المجموعة، في ما اعتزما عليه من النشر، وكانا يظنان أنّه سيرحبُ ترحيباً بالغاً بإذاعة مجموعة أدبيّة نادرة، ليسَ فيها سطرٌ واحد يدلّ على هبوط، بل ليس بها كلمة واحدة تلفت النظر الناقد، ولكنّ الأستاذ أحمد لطفي السيد أبى كل الإباء أن تُنشر رسائلُ خاصةٌ لم تأذنْ صاحبتُها بنشرها، بل لم تُوصِ أحداً بمراجعتها وحفظها في دار الكتب بين ما تجمعه من وثائق مخطوطةٍ، أدبيّة وسياسية، وطال الجدل بين راغبي النشر والأستاذ أحمد لطفي السيد، وهو جَدلٌ

سجلّه الأستاذ كامل الشناوي في كتابه عن ميّ[1] حيث قال:

«قابلا - مطران والجميل - لطفي السيد وعرضا عليه الفكرة، ودهشا عندما قال لهما لطفي السيد إنه يعارضها، وعلى طريقته في الجدل سألهما: لماذا تنشران هذه الرسائل؟ فقالا: ننشرها للحقيقة والتاريخ، فردّ: وهل أنتما موكّلان بالحقيقة والتاريخ؟ فقال مطران: كلّ إنسان مكلّف بأن يبحث عن الحقيقة، وأن يُساهم في كتابة التاريخ. فقال لطفي السيد: وإذا تعارضت الأخلاق الفاضلة مع الحقيقة مثلاً، فهل ننشر الحقيقة أوْ نرعى الأخلاق!؟ فقال مطران: لكي نُجيب على هذا السؤال ينبغي أن نعرف هل الحقيقة غاية أو وسيلة؟ فإنْ كانت وسيلة فيجبُ ألا تتعارض مع الأخلاق، وإن كانت غايةً فقد وجب أن نُذيعها مهما تكن الظروف والملابسات. فقال لطفي السيد: إن الحقيقة غاية ووسيلة معاً، وهي في الوضعيْن لا ينبغي أن تكون عاريةً، بل يجب أن يكون لها ستر لا يتنافى مع الأخلاق الفاضلة، فقال مطران: إنّ الرسائل التي كتبها كبار الأدباء والمفكرين إلى ميّ، ليس بها ما يمسّ العفة أو يخدش الحياء، إنّ فيها تعبيراً عن حب غامض، أو صبابة مبهمة، فهل في هذا ما يتعارض مع العفة والحياء؟

قال لطفي السيد: لا يعنيني هذا كله، ولكنْ ما يعنيني هو أن هذه الرسائل سرٌّ أودعه أصحابها بين يديْ ميّ، فصار سِرها هي،

---

(١) الذين أحبُّوا «مي» للأستاذ كامل الشناوي ص٣٠، ٣١، ٣٢.

لا أحـدٌ سواهـا يملك إذاعتـه، حتى الـذين كتبـوا هـذه الرسائـل لا يملكون أن يذيعوها، إن ميّ هي التي تستطيع أن تذيع السرّ إذا شاءت، وهي لم تشأ أن تذيعها، وإنّ المنطق السليم يحتم أن تظلّ هذه الرسائل هي وجثمان ميّ في مقبرة واحدة. قال مطران: يا سيّدي هذه وثائق إنسانية فكريّة، فقال لطفي السيد: بل مؤامرةٌ على سرٍّ امرأة!! وقد ارتضى مطران والجميل رأي أستاذ الجيل فوافقا على إهمال النشر.

وموضعُ الاستشهاد في هذا الحوار هو أنّ الرسائل عفيفةً ذات نبل وشرف، ومع ذلك لم يرضَ لطفي السيد أن ينشرها، إذ الحقّ في ذلك لصاحبتها وهي لم تشأْ نشرها، ولم تُوصِ به!! وعليه فإنّ الرسائل التي تحملُ بعض الشطط أوْلَى بالكتمان والصون الخلقي، وإذا كانَ النشرُ ضرورةً في رأي من يُبيحه فإن الواجبَ أن يُبعد من الرسائل ما يشي بنقيصة، أو يُنبىء بتهجم على إنسانٍ مناوىء، أو يفضح عاطفةً من حقها أن تظلّ طي الخفاء، وقد قلنا إنّ الرسالة الخاصّة سرٌّ من الأسرار فلها إذنْ ما يلزم السرّ من حفظٍ بين الجوانح، وبُعدٍ عن الإعلان.

* * *

رثاءُ الأميرِ شَكيب أرسَلان

(للرّافعي)

نشر أمير البيان أرسلان هذه المرثية الحارة، بعد أن طبع ديوانه الشعري، فلم تُنشر به، لذلك رأيت أن أعيد نشرها في هذا الكتاب، لما تضمنت من تعداد آثار الرافعي، فهي وحدها سجلٌّ لتاريخه الكريم:

إن الذي قد ضم جِسْمك للثرى ... قد ضم فيه العبقريَّ الأكبرا

كان ابنُ بحر واحداً فَفَضَلْتَهُ ... بأوائلٍ كانوا جميعا أبْحُرا

«الرافعيين» الأُلَى فَرَعُوا العُلَى ... وتدبّروا في كل فنّ عبقرا

هي عزةٌ أبقى «أبو حفص» لها ... مجداً يتيه على السِّمَاك ومفخرا

جمعتْ إلى أنْسابها أحسابَها ... وغدَت تجر من الأئمة عسكرا

مَنْ مثلُ نادرةِ الزمان «المصطفى» ... سلطانَ مَنْ وَشَّى الطروس وحَبَّرا؟

إلاّ تكن قد أنجبتْ إلاّ «أبا ... سَام» كفاها أن تسود وتظهرا

قد كان في جيش البيان مكانُه ... ما كان يوماً تُبَّعٌ في حِمْيرا

ما إن رأى العصرُ الحديث نظيرَه ... فَحْلاً يُباري الأولين، ولن يُرَى

قل للمحاول أنْ يرى أندادَه ... أقْصِر فكلُّ الصيد في جوف الفَرَى

ملأ الزمان بدائعاً وروائعاً ... بقريحة تحكى الغَمامَ الممطرا

تلك القريحة تُمْترى أخلافها ... أبداً، وليس يغيضها ما يمترى

تدع الخيال لدى العيون مجسَّما … مهما توارى شخصُه وتنكرا
وترى المعاني كالشياه مُقادَةً … بينا تكونُ من الجآذر أنْفرا
شأوٌ يشق على الجميع لحاقُه … من ذا يشق له لعمري عِثْيَرَا؟
هيهات يطمع طامع في «المصطفى» … إنْ صالَ في يوم العراك وهَدَّرا
تتضاءل الأقران دون بِرازه … مثلَ السباعِ تكِعُّ عن أُسْد الشرى
كثر التفيهقُ في الجديد ونهجه … كم مَنْ تكلّم بالجديد وما دَرَى
وعَدا رجال يحلمون بأن يروا … شملَ العروبة في البيان مبعثرا
حرجت صدورهُم بأن يجدوا من الـ … ـقرآن موردَ أمة والمصدرا
فتقصّدوا أن يطفئوا ذاك الضّيا … وتعمدوا أن يفصموا تلك العُرَى
وتغفّلوا قوماً أبت أحلامهم … أن تَستبين الرشدَ أوْ تتدبرا
فمحا بنور الحق آية ليلهم … وأراهُمُ عنه النهار المُبصرا
ورماهُمُ بكتائبٍ من كُتْبه … فتطايَروا كالحُمْرِ لاقت قَسْوَرا
واقاهُمُ ببلاغة مُطَريَّة … ما كان معجزُها حديثاً يفترى
فغدتْ سفاسفهم لدى آياته … نارَ الحُباحب ناوحت نار القرى
من ذا يُضارع في البيان عصابة … قد أوضحوا نهج البلاغة نيِّرا
هم ذلك السلف الذين لسانهم … تنحط عنه جميع ألسنة الوَرَى
من ذا يطاولُ في البلاغة أحمدا … وصحابَه، وأبا ترابٍ حيدرا؟
المُعْربينَ إذا أجالُوا خاطراً … عنه بأعذبَ ما يكونُ وأقصرا
والمانعين المُسكِراتِ وقولُهم … ما دارَ في الألباب إلاّ أسكرا
تلك العصابة من يَحدْ عن سُبْلها … حَقاً يقال لمثله: أطْرق كرا
زعَم الألى نحوُا الجديدَ بأنه … عصرٌ تحتَّم أن يخالِفَ أعصُرَا
حسَبوا التدني في البيان تقدّما … رأَوُا الركاكةَ بالثقافة أجدرا

عمدُوا إلى التغيير حتى يُحْدِثوا حـدثـاً يبلِّغهـم مـراداً مُضْمَـرا

واستظهـروا بمقـالـةٍ تلخيصُهـا أن القديم مَضَى، وولَّى مدبرا

قد فاتهمْ أنّ الحلاوة سَرْمد ومذاقُ طعم الشهد لن يتغيرا

كم منْ قديم لا يُزال رواؤه متألقاً يحكى الصباحَ المسفرا

مهما تقادَم جوهرٌ في عِتْقه فهو الثمين، وليسَ يبرح جوهرا

من حاد عَن حبّ الجمال تعنّتا يتبدلِ الأدنى، ويبغي الأحقرا

لغة قَلَوْا أسلوبَها، وتخيروا عنها كلاماً مثل أحلام الكرى

يرتـد وارده ومـا ذاق الـرِّوَى ويعودُ قارئه اللبيب وما قرا

أخنى «أبو السامي» على غُلَوَائهم وأذاقَهم مرَّ الكفاح الممقرا

وذَرَا دَعاويَهم كما نُثِر الهَبَا وأعادَ خُضرتهم هشيماً أغبرا

زحفت بلاغتُه تجرّ جيوشَها فانقاد طوعاً من أبىَ واستكبرا

قدْ يحرقون عليه من حسدٍ، ومِن بُغض، ولكنْ يحرقون العنبرا

ما زال في الأدب النزيهِ مبرِّزا حتى إذا شهد السفاهةَ قصَّرا

أعززْ «أبا السامي» عليَّ بأن أرى ذاك اليراعَ الجـاحظيّ مكسَّرا

من أسرةِ القصب الضعيف وفعلُه في الخَطب يهزأ بالحديد مُعَصْفَرا

لك في البيان رئاسة أزلية أبديّة، ليست تُباع وتشترى

ما إن دعوتُك جاحِظاً إلا وقد رُزْتُ الرجالَ مقدماً ومؤخرا

ما قلتُ فيك سوى الذي أيقنته ما كنتُ مَن كالَ الرجال فأخْسرا

أحييت آداب اللسان، ولم يزل فيها مؤلفك السراج الأزهرا

ورفعتَ للقرآن أرفع «رايـة» فلذا غدوتَ «الرافعي» الأشهرا

أنشأتَ أمثال النسيم رقائقاً كانت على الحساد ريحاً صرصرا

ولَّيْتنـا طـول الحيـاة لآلئـاً واليوم نبكيك العقيق الأحمرا

ألبستني بثناك فضلاً ضافياً ... فيه لبستُ الطيلسان مجرَّرا
فأنا عليك إلى نُزولي في الثرى ... أذكَى الأنام أسىً، وأبْكى محجرا
سِرْ نحوَ ربك تاركاً في خَلْقه ... ذكراً كما أجّجتَ مسكاً أذْفَرا
واستودع الدارَ التي فارقتها ... لجوار ربك ضاحكاً مستبشرا
فلأنت أجدرُ أن تُهنَّأ بالذي ... مِن أجله نَبكي عليه تحسرا
فتملَّ من رضوان ربك جَنَّةً ... سبغت، ومن غفرانه لك يغفرا
أنتَ الدخيل عليه في ملكوته ... حاشَا كريم ذِمامه أن يُخْفَرا
لا تبعدنّ وأنت وافدُ خُلْده ... لا تظمأنّ وقد وردتَ الكوثرا

شَكيب أرسلان

* * *

فهرس

الموضوع	الصفحة

* * *